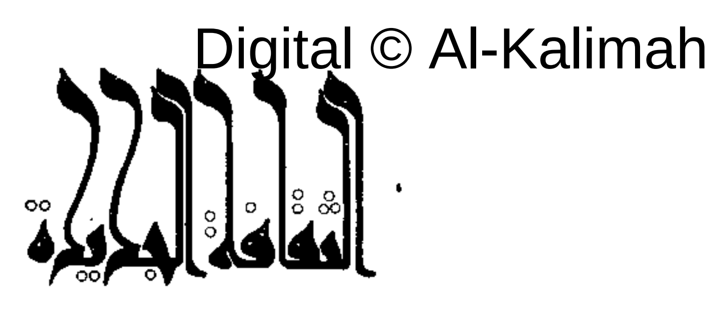


مجلـة فكريـة إبداعيـة

شهرية تصدر مؤقتاً ست مرات في السنة ــ السنة الخامسة ــ العدد الثامن عشر ــ 1980

المدير المسؤول : محمد بنيس.

هيئة التحرير : محمد البكري، مصطفى المسناوي، عبد الله راجع.

العنوان : ص.ب : 505، المحمدية، المغرب.

الاشتراكـات :

المغــرب :

الاشتـراك العادي : 30 درهما
اشتراك المؤسسات : 75 درهما

الأقطار العربية وأوروبا :

الاشتـراك العادي : 75 درهما.
اشتراك المؤسسات : 225 درهم.

إشتراك المساندة : ابتداء من 50 درهم

تبعث الاشتراكات باسم
محمد بنيس
الحساب البريدي : 1.383.41 الرباط

التصفيف الالكتروني : ليبر النخلة، 5، زنقة مستغانم البيضاء
السحب : مطبعة الأندلس، 499 شارع الفداء، البيضاء.
التوزيع : سوشبريس

1 ــ المقالات التي تنشر في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها
2 ــ المقالات التي لم تنشر لا ترد الى أصحابها.

الموضوعات :

توفيق السعيدي

إطلالة على علم المعرفة المعاصر

(القسم الثالث) ـ خاص ـ
مات جان بياجي، وليزهر تراثه

بمناسبة وفاة العالم جان بياجي ننشر هذا المقال الخاص الذي يندمج في سلسلة مقالات الكاتب حول علم المعرفة المعاصر.

في السادس عشر من شهر شتمبر 1980 توفي العالم الكبير جان بياجي بمدينة جنيف عن سن تناهز أربعة وثمانين عاماً.

لقد كرس جان بياجي حياته للبحث العلمي الجاد، فمارسه بخصوبة فكرية واختبارية منقطعة النظير، وباستماتة جديرة بكل إجلال. وكانت حصيلة هذا العمل الجبار، بصرف النظر عن الحجم المذهل لمؤلفاته العلمية والابستمولوجية، تفوقاً نوعياً بارزاً في المنهج والخلاصات بالمقارنة مع علماء عصره. ويشهد الجميع لهذه الشخصية الفذة بأجمل الخصال في السلوك العلمي، وفي مقدمتها النزاهة الفكرية الخالصة، والروح الموضوعية الرائعة، والتواضع الرفيع، والحرص على الحوار والتعاون، وقوة الحجة والصلابة في المواقف المتقدمة، والقدرة على الربط المحكم بين العمل الجماعي والاجتهاد الفردي المتواصل. هذه الخصال تعد بلا ريب من أمثل الشروط الذاتية للبحث العلمي المثمر. وقد خلّد بياجي قدوة ومثالاً في الالتزام بها؛ والقصد من الاشارة إليها إتماس العبرة والاستفادة من التجربة أكثر مما هو اطراء وتمجيد شخصية علمية يغنيها علمها ومكتسباتها للفكر و الحياة عن كل اطراء. ولن يفوت البشرية أن تخلده في وجدانها التاريخي مع أعظم شخصيات الفكر والفن والسياسة الخ...

وليس التراث العلمي لجان بياجي وزملائه بقابل لأن يوجز في بعض صفحات، وهو الذي عرض في عشرات المجلدات، الشديدة الثراء العلمي، الرائعة التركيز، والعديمة الثرثرة والحديث العفوي. في مقال مخصص للفقيد بجريدة لوموند (18 سبتمبر 1980) تحت عنوان ''نظرية في المعرفة، ذات أسس علمية''، نقرأ ما يلي : «ان نظرة سريعة إلى ما نشره جان بياجي من مؤلفات قد تترك إنطباعاً مفاده أن في تأهيله العلمي نوعاً من عدم الحسم. فهل أراد لنفسه أن يكون عالما بيولوجيا كما توعز بذلك أطروحاته وأبحاثه...[حول تكيف بعض الانواع الحية] وكذا مؤلفه حول ''البيولوجيا والمعرفة'' (1971) ؟ أم هو بالاحرى فيلسوف كما تدل على ذلك ''مقدمته للابستمولوجية التكوينية'' (1950) في ثلاثة مجلدات ضخمة،

ومؤلفه ؟ '' حكمة الفلسفة وأوهامها (1965) ؟ ام هو عالم منطق كما يستفاد من ''جامعه في المنطق '' (1949) ومؤلفه : ''طروح في تحويل العمليات المنطقية '' ؟ ام هو قبل كل شيء عالم النفس المتخصص في الطفولة كما تشهد على ذلك مؤلفات متعددة مثل ''نشأة الرمز عند الطفل '' (1945) ''نمو مفهوم الزمن لدى الطفل '' (1946)...الخ، يعني حوالي عشرين مؤلفا ويزيد انجزها بياجي في الفترة ما بين 1923 و 1961 بمفرده أو بالاشتراك مع A.Szeminska، و B.inhelder, ونذكر منها أيضا : ''نشوء العدد لدى الطفل '' (1941)، ''وتمثل الطفل للمجال '' (1948)، ''ونشوء فكرة العرض (أو الصدفة) عند الطفل '' (1951).» الخ... ويمكن ان نضيف لهذه اللوحة أعمال بياجي المتعددة بخصوص البيداغوجية ومشاكل التربية والتعليم، ودراساته حول الادراك الخ...ولابد هنا من ملاحظة عابرة، وهي ان تصوير ضخامة أعمال بياجي وشمولية اهتماماته، وتلخيص تصوره لمراحل النمو المعرفي للطفل من المرحلة الحسية الحركية الى مرحلة الذكاء العلمي الى مرحلة الذكاء الصوري، الفردي الاستنباطي الخ...يشكل بالطبع عملا إجابيا في التعريف بتراثه. بيد ان هذا النوع من التعريف قاصر إذ لا يبرز في أخر المطاف مدى أهمية وأبعاد نظريات بياجي ووجه الاصالة فيها...وهذا هو الانطباع الذي تتركه كثير من المقالات التعريفية المخصصة له : رجل يعمل كثيراً، ويربط بين ميادين متعددة، ودرس بصفة خاصة مراحل نمو الذكاء عند الطفل منذ الصغر، وحدد ووصف عدداً من المراحل التي يخترقها هذا النمو، واستثمر هذه الدراسات في فكره الابستمولوجي العلمي على محورين : اخضاع الفكر الابستمولوجي لتجارب علم النفس التكويني، والدعوة للربط بين علوم البيولوجيا والمنطق والنفس في التفكير الابستمولوجي العام. كل هذا جميل ولاشك ! لكن هل ثمة في فكر بياجي **مضمون** جوهري أصيل، جديد حقا، في سياق نظرية المعرفة والبحث العلمي ؟ هل أتى مثلا بنظرية مركزية حاسمة يمكن مقارنتها من حيث الاهمية والعمق بنظرية داروين في تطور الانواع البيولوجية، أو بنظرية ماركس في فائض القيمة، أو بالنظرية النسبية لأينشتاين ؟...هذا التساؤل قلما يطرح. ذلك ان ضخامة تراث العالم، وشمولية اهتماماته كثيراً ما تجعل المعلقين يفتقدون الخيط الموجه لتفكيره أو يَسُوقُونه دون الوعي التام بأصالته وأهميته. و ''الغريب '' (المفهوم مع ذلك)، ان بعض الهيئات الماركسية التي تعبر عن تقديرها لجان بياجي، تميل في الغالب الى التقاط هذه المقولة أو تلك لمجرد التدليل على ان بياجي بعد كل ما قام به من مجهود ضخم، لم يفعل سوى الالتقاء مع الماركسية التي تكون حسب هذا الطرح قد حلت مسبقا جميع مسائل المعرفة بفضل القوانين العامة... كل ما هناك ان بياجي كعالم لم يلتزم داخل الأحزاب البروليتارية فاحتاج الى العناء الشديد ليحقق هذا الالتقاء... أو بعبارة اخرى ليقتحم بابا كانت قد فتحت نهائيا... ليس ثمة جديد تحت الشمس ! هذا رأي الدوغمائية المثالية المحافظة... مهما كان رداؤها النظري .

قلنا : بعض الهيئات ''الماركسية '' لأن ثمة بعضاً آخر لا يرى في فكر بياجي سوى نوع من الترف المثقفي، ''النخبوي '' الذي يبتعد على ما يبدو كلية عن الضرورات الملحة للممارسة ''الثورية ''... اللفظية... خصوصا وأنه لا يكترث بالطابع الطبقي لبنيات المنطق والحساب كما ''لا شك '' يتجلى منذ نعومة أظافر الأطفال.

ويبدو على عكس هذا الاسفاف ان علم جان بياجي ساهم ويساهم بعمق في الحركة الثورية للبشرية في مرحلتنا التاريخية، بالمفهوم الكلي طبعا للحركة التاريخية للبشرية كحركة شاملة تستند الى الجانب الاقتصادي كأساس وتعم الجوانب السياسية الاجتماعية والعلمية ــ الايديولوجية، والفنية ــ الجمالية. والانجاز الثوري لجان بياجي في الجبهة العلمية والفكرية يمكن إيجازه في محورين أساسيين :

ــ إعطاء مضامين جديدة وأشكالا ملموسة لوحدة علوم المادة والانسان.

ــ إغناء نظرية المعرفة وتطويرها بتفسيره الجديد لأساس تكون البنيات المعرفية والاجرائية للانسان كذات فاعلة ــ واعية.

أولا : مضامين وأشكال جديدة للممارسة العلمية المتخصصة والوحدوية :

في عالم الثورة الالكترونية والنووية والفضائية، حققت البشرية خطوات جبارة في السيطرة على الطبيعة. ومع هذا فان العديد من العلماء لا زالوا يعجزون خارج ممارستهم العلمية، بل واحيانا داخلها، عن السيطرة على الاحكام المسبقة المثالية والغيبية. ذلك ان مخلفات قرون طويلة من الهيمنة الغيبية والخرافية ما انفكت حيةً فاعلة في أذهان اقرب الناس الى الاحتكاك الاختباري المباشر بالقوانين الباطنية لحركة المادة الحية وغير الحية. ثم أن تناقضات وتمزقات الممارسة الحياتية في المجتمعات القائمة على الاستغلال الطبقي في عالمنا المعاصر نفسه تُبثُّ بهذه الدرجة أو تلك في أكثر العقول تنوراً جوانب مظلمة تغزوها الأحكام المثالية والذاتية اللامتناهية الصيغ. و يمثل جان بياجي في ظل هذا الواقع بالتحديد إحدى العقول الأكثر تحرراً وصلابة في وجه ''الإغراءات'' المثالية والغيبية واللاأدرية. **من هنا بحث دائما عن الحقيقة في الوقائع بواسطة الاختبار و المنطق السليم، والنقد المجتهد، ورفض الحلول الجاهزة للمشاكل الجديدة كما سعى لتجاوز «الحلول» المغلوطة للمشاكل القديمة.** هذا الاحتكام المستمر للواقع المتبدل صاحبه نبذ كل طرح وضعي لمسألة الوقائع أو «الملحوظ». فرغم نشاط بياجي في بيئة إجتماعية وعلمية غلبت عليها النفعية الضيقة في الممارسة والوضعية الفظة في الفكر، رفض نهائياً و بكل إستماتة التنازل النهائي عن أية قطاعات خاصة من الوعي البشري كي تصبح هكذا من غير إختصاص العلم الموضوعي وتُحال على أنواع أخرى من المعرفة. وأطروحته المركزية في هذا الشأن هي أنه لايوجد فرق وَلاحَدٌ مطلق بين ميادين حركة المادة والفكر من حيث قابليتها للبحث العلمي الموضوعي. ومن ثم فإن الفرق بين مختلف أنواع المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية لن يكون أبداً من حيث إنفصال موضوع الأولى عن موضوع الثانية. فالموضوع واحد بأشكاله المتعددة : حركة المادة والمجتمع والفكر. وكل أشكال الموضوع قابلة للتفسير العلمي اليوم أو غداً. وخط الفصل بين البحث العلمي والبحث غير العلمي يتحدد في المناهج المتّبعة في كل منهما. **فلا مكان للسياجات الوهمية المصطنعة بين ميادين المعرفة العلمية من جهة، وميادين المعرفة اللاعلمية من جهة ثانية عكس ما يدعي الوضعيون.** ليس في المعرفة اقطاع للعلم، واقطاع لمادونه. والنتيجة أن جميع ميادين الحركة المادية والاجتماعية والذهنية يمكن أن تكون اليوم أو غداً موضوعاً للعلم الموضوعي بالذات، بما في ذلك مسائل النفس والروح والوجدان والقيم،

وغيرها من الأمور التي يحلو للسفسطة المثالية والنزعة الوضعية احتكارها أو جعلها مرتعا أبدياً «للذات» الفردية الجاهلة، وللنزعة القدرية، وللاستيلاب المطلق والخشوع. إن الدراسة العلمية للقيم الروحية مثلا لاتمنعها من ان تبقى روحيات ما دام لها مبرر موضوعي، بل ولا تمنعها حتى من الاحتفاظ بكل فاعليتها السحرية ازاء كل مريد. فالدّراسة العلمية للروائح وظاهرة الشم لا تحذف أريج العطور ولا تحرم المستنشق من الاستمتاع الذاتي بها. كل ما هناك ان العلم يرفض الحدود الوهمية للمعرفة الموضوعية في أي ميدان على الاطلاق. وهذا ما جسدته ممارسة بياجي على نحو نموذجي. وبقدر ما رفض الحدود الأفقية للمعرفة العلمية حسب تنوع واختلاف المواضيع، رفض كذلك وبنفس الجرأة كل حد وهمي لها من حيث العمق. اذا كان الفرق الجوهري بين المعرفة العلمية والمعرفة غير العلمية من حيث المبدإ **يكمن في المنهج**، وليس في الموضوع، فان ميزة وغاية المعرفة العلمية هما **تفسير الظواهر سببيا**. وبقدر ما لا يصح حصر النشاط العلمي في وصف «الملحوظ» وإهمال المجالات المعقدة كالنفسية والقيم والسياسة، الخ... حسبما يتصور الوضعيون، بقدر ما لايصح كذلك الوقوف أصلا عند حدود الوصف في أي ميدان. فما دامت الأشياء متحركة ومتبدلة باستمرار في جميع الميادين فكل وصف جدي للأشياء والظاهرات هو في الحقيقة عرض صيرورتها وبنياتها المتعددة الأحوال والأشكال والجوانب، أي عرض صيرورة التحولات (المادية أو الذهنية)؛ ويبدو جلياً أن كل صيرورة من التحولات تتضمن بالضرورة أسبابها الجوهرية أو الاساسية. وعليه، يستبعد أن يكون ثمة وصف جدي لا يؤدي في آخر المطاف إلى شرح سببي للظواهر، اللهم إذا عزلت عن صيرورتها وافترض مسبقا بقاؤها على نفس الحال. وبالمقابل، يستبعد أن يكون ثمة تفسير جدي بدون سابق وصف، اللهم إذا افترض سبب خارجي تماما بالنسبة للظاهرة المعنية. **التحرر إلى حد بعيد من الأحكام المسبقة والعقائد المجانية في الممارسة العلمية، ورفض كل الحدود الوهمية لشمولية المعرفة العلمية من حيث موضوعات البحث، والاستماتة في البحث عن أسباب الظواهر في صيرورتها الواقعية**، تلك هي بايجاز شديد أولى المقومات المبدئية في النضال العلمي لجان بياجي. ومن هنا اجتهد شخصيا ودعم بكل ثقله جهود أكثر العلماء تقدما في البحث البيولوجي مثلا من أجل دحض الميول الميكانيكية والميتافيزيقية في مسألة نمو الأنواع وتطور أشكال الحياة وإنتقال الخصائص المكتسبة وراثيا. وفي هذا المضمار عمل على إثبات عدم صحة التقييد الآلي للجسم الحي من طرف المحيط أو البيئة بقدرما رفض إستقلال الأول عن الثاني ونمو الأنواع بالتالي بمحض الصدفة. ومقولته في هذا الصدد هي أن النمو والتطور البيولوجي رهين بالتكيف الذي يشمل مظهرين : **إستيعاب الجسم** الحي لشروط البيئة على نحو يحولهما معاً، وبالتالي تلاؤم الجسم الحي أكثر فأكثر مع المحيط بقدر مايستقل عنه.

وأن رفض جان بياجي عن حق، أن تكون كل خاصية مكتسبة قابلة للانتقال الوراثي بصفة آلية، فقد بين بأبحاثه الشخصية، وأبحاث الغير، صحة مبدإ الانتقال الوراثي للخصائص المكتسبة حسب نموذج يعتمد على التفاعل المستمر بين **الجينوتيب** (أو الرصيد الوراثي للخلية أو الجسم الحي) وبين **الفينوتيب**(أو مجموع خصائصه المتحققة فعلا والمتفاعلة مباشرة مع البيئة). ويبين في هذا الصدد قدرة بنيات الضبط الذاتي العضوي لكل جسم حي على إنجاز تصحيحات قابلة للرجعة وقابلة للرسوخ الوراثي. وهذا التصحيح الذاتي للتوازنات

الداخلية المختلة باستمرار هو بالتحديد قاعدة التطور البيولوجي. المهم أن بياجي وهو يخوض في البيولوجيا تجده ينفر كلية من الفرضيات الميتافيزيقية والمجانية التي تحاول تعتيم البحث العلمي الجاد الرامي لشرح الشروط المادية لنشأة الحياة وتطورها. وبالمثل فإن بياجي رفض كل نزعة قبلية أو مثالية في علم النفس، كما إعترض على كل تصور عقلاني متحجر ومجرد في المنطق وامور العقل. ان البحث في الحقيقة في موضوعها وليس في الحكم المسبق، يرادفه الصدع بان لا حقيقة مطلقة أبدية في العلم، لأن العلم هو المعرفة المتطورة باستمرار لأشياء وظواهر تتطور باستمرار، في شروط لا تدوم على حال. وإذا كانت الموضوعية هي الحجة الوحيدة لبياجي في العلم، فان مكتسبات هذه الموضوعية بالذات لتجعل من حياته وانتاجه حجة للعلم في الحياة المعاصرة، واعظم بها من حجة !

هذا من حيث تعزيزه المبدئي للمعرفة الموضوعية بانسجام باهر بين الرؤية الفكرية أو الأيديولوجية وبين الممارسة العلمية.

وقد إكتمل هذا التعزيز المبدئي للبحث عن الحقائق الموضوعية في الوقائع بالسعي للم شتات العلوم وتوحيد خلاصاتها وبعض مناحيها وتوضيح ما لا يحصى من النقاط المختلف فيها بشأن صلاحية أو موضوع أو منهاج هذا العلم أو ذاك. ولعل أطروحته الأساسية باتجاه إيجاد محور أساسي لتوحيد العلوم يمكن تلخيصها كما يلي : ان بياجي ينطلق من اهتمامه الخاص بدراسة الذات الانسانية العارفة من حيث هي ذات فاعلة، تُكَوِّن لها بنيات اجرائية تجعلها قادرة على **تحقيق حالة خاصة من التكيف** عن طريق **المعرفة المرتبطة بالعمل**، وهي حالة من التكيف لا نظير لها في الطبيعة، ولا تتحقق بطبيعتها إلا في الانسان باعتباره هو أيضا كائنا طبيعيا. ولدى دراسة هذا الشكل الارقى للتكيف بالعمل الواعي المصحوب بالعلم، يحتاج بياجي عمليا الى الاستعانة بجميع العلوم التي تسمح بهذه الدرجة من المباشرة أو تلك، بمعرفة قوانين حياة الانسان البيولوجية والاجتماعية والذهنية.

فلولا الدراسة المنطقية والرياضية المعمقة لما أمكن وضع صياغات مضبوطة وعلمية لتلك البنيات الاجرائية ــ المعرفية التي يمتاز بها الانسان. ويستحيل وصف تكون ونمو هذه البنيات بدون الاستناد إلى السيكولوجيا وعلم الاجتماع، والتاريخ، وتاريخ الفلسفة والعلوم. ثم إنه لا يمكن حتى مجرد تمني الحصول على صورة مضبوطة لكيفية تبلورها وسيرها في الدماغ وعموم الجهاز العصبي المتحكم في حركات وأفكار الانسان بدون تطور النورولوجيا. وأخيراً فإن إكتشاف وجود جذور حسية ــ حركية، قبل ــ فكرية وقبل ــ لغوية، وحتى جنينية، للارهاصات الاولية لهذه البنيات يدعو حتما إلى الاستعانة بالبيولوجيا! وغنيٌّ عن البيان أن القوانين البيولوجية، على أصالتها وتميزها عن المستويات الدنيا للمادة، تستند مع ذلك إلى القوانين الفيزكيماوية لحركة المادة. ومن ثم كان طبيعيا وضروريا أن تستدعي دراسة البنيات الاجرائية لذات المعرفة (باعتبارها الانسان الحقيقي وليس محض مفهوم فلسفي مجرد يقابل مفهوما أخر لا يقل تجريداً وهو «الموضوع»)، كل العلوم بدون إستثناء تقريبا للتعاون من أجل إستجلاء موضوع خاص، يمتاز على كل الموضوعات الأخرى بكونه ذات المعرفة بالتحديد، وبكونه بنفس المناسبة ملتقى جميع مستويات حركة المادة، بما فيها المادة العاملة، جسم الانسان، والمادة المفكرة، دماغ الانسان. ويذهب بياجي في دراسته المتعددة المجالات إلى الافتراض الجريء التالي : ان الأساس العام لتطابق وملاءمة البنيات الاجرائية المعرفية للانسان

مع معطيات العالم الخارجي، بل تكرار الحالات التي يسبق فيها النسق الرياضي في الظهور تطبيقه النظري في صياغة قوانين موضوعية جديدة في ميدان علمي ما، أن ذاك التلاؤم والاستباق ''الذاتي '' يجد أساسه في آخر المطاف في الحقيقة التالية : أن لكل جهاز حي بنيات للضبط الذاتي العضوي تمتاز بكونها أولًا تحفظ إستمرار الجهاز خلال تحوله، وثانيا تطابق القوانين الفيزكيماوية والبيولوجية للمادة التي يتشكل منها وينمو في محيطها الجسم الحي. هذه البنيات إنما هي القوانين العامة المشتركة لكل التنظيمات الحية باعتبارها تنظيمات مزودة ببنيات الضبط الذاتي العضوي، بما فيها التنسيقات العضوية والتصحيحات ذات المفعول المدبر (Freed-back) والاسترجاع المستمر للتوازنات المختلة. ويبدو من المعقول تماما أن تكون البنيات الاجرائية، التي هي حالة خاصة، متطورة من بنيات الضبط الذاتي، ملائمة في آخر المطاف لقوانين الاشياء المحسوسة مهما إبتعدت في التجريد والبناء «الفرضي الاستنباطي» عن التداول المباشر لتلك الاشياء. وهذا التلاؤم مرده ليس فقط إلى كون تلك البنيات الاجرائية مرتكزة دائما وبالضرورة أصلا على الأفعال والممارسة على الأشياء المحسوسة، ولكن أيضا إلى كونها تنشأ وتنمو في تنظيم مادي حي تطابق قوانين سيره الباطني قوانين حركة المادة بالطبع. وإن لم يكن بالامكان راهنا إعطاء مضامين ملموسة ومحدَّدة أكثر لهذه الفرضية، فإن أهميتها التي لا جدال فيها على كل حال تكمن في أنها بمثابة أرضية خصبة وأساس متين لتعاون مختلف العلوم الاساسية مستقبلا حتى تتحقق معرفة أعمق بهذا الكائن الذي ينفرد بالقدرة على العلم :الانسان.

ولم يفت جان بياجي نفسه أن مارس بل وأبدع الاشكال المتقدمة لهذا النشاط العلمي المتفتح.

فقد سَدَّ أولًا ثغرة في دائرة العلوم إذ أسس علم النفس التكويني ، كعلم يتحدد موضوعه في دراسة مراحل نمو القدرات أو البنيات المعرفية بالتحديد، من الرضاعة إلى الرشد. ويمتاز هذا العلم عن المدارس السيكولوجية الأخرى بكونه :

أ ــ **موضوعي**، من حيث يعتمد لا على ظنون الفرد وإنما على مقدراته العملية أثناء الاختبار، ومن حيث أنه يستند بالضبط إلى الاختبار المنظم وليس إلى التخمينات أو التعميمات المجانية أو الاستبطان (introspection) .

ب ــ **تكويني**، من حيث يفترض في المنطلق أن كل ما يعرفه ويفكره الانسان الراشد إنما هو مكتسب عبر مراحل معينة يسعى العلم لتوضيحها.

ج ــ **متفتح**، على كل العلوم وبصفة خاصة الرياضيات والمنطق والبيولوجيا، لأن موضوعه يتعلق ببنيات اجرائية يحملها كائن حي ينشط في شروط معينة تتعلق بالقوانين الموضوعية لحركته الداخلية ولحركة بيئته ؛ ولهذا السبب أعطى بياجي البرهان المشخص على أن تخصص كل علم في موضوع معين لا يعني بالضرورة تخصص العلماء وانزواءهم كلا في موضوع واحد مغلق فالمهم تعميق البحث في كل باب علمي متميز على حدة، دون فقدان الرؤية الشمولية، وليس الخضوع لقسمة العمل الاجتماعي وخلق «مهن» أو حرف علمية متوازية ومنغلقة عن بعضها البعض.

وفضلا عن اشتغال بياجي بتخصصات فرعية في المنطق والبيولوجيا، إلى جانب تخصصه الرئيسي في علم النفس التكويني، نجد في مؤلفاته الحرص الدائم على استيعاب

وتوظيف أهم الاكتشافات المتحصلة في العلوم الأخرى الفيزكيماوية، والرياضية، والسبرنتيك وغيرها. ولا يكتفي بالدعوات اللفظية إلى تعاون فروع العلوم بل نجده حريصا على المبادرة بإنجاز الاعمال المشتركة بين العلماء ذوي المشارب المختلفة ، في شكل مؤلفات مثل «المنطق والمعرفة العلمية» (منشورات لا بلياد) أو ملتقيات ومؤتمرات. بيد أن أعظم إنجاز له في هذا الشأن هو «مركز الأبحاث في الابستمولوجية التكوينية» الذي أسسه في جنيف وأنجزت به العديد من الاعمال والاختبارات التي تطلبت بطبيعة الحال المساهمة الدؤوبة في الاطار الجماعي من طرف علماء متنوعي الاهتمامات ماكانوا ليلتقوا ويفكروا معا لولا هذا الاطار. وأخيرا فإن ربط التفكير النظري الابستمولوجي بالممارسة العلمية على هذا النحو يُعد في حد ذاته تعزيزاً للموضوعية العلمية ولوحدة العلوم ضداً على الانغلاق الوضعي وعلى التخبط التجريبي.

ان هذا الدفع الهائل بالعلم إلى الأمام في المجالات الفرعية المتخصصة الجديدة كما في التنسيق بين العلوم المختلفة، يعد بذاته، أي دون اعتبار الاثراء الكبير للمحاور النظرية للبحث العلمي المنسق، مكسبا أساسيا في ظل الشروط السائدة راهنا في الممارسة العلمية. صحيح أن الوحدة الموضوعية للكون بحكم ماديته تضغط هنا وهناك نحو بروز أشكال متعددة من التنسيق العلمي ؛ كما أن المصالح النفعية للطبقات السائدة تدفعها أحيانا إلى تشجيع مثل هذا التنسيق. لكن التخصص الأعمى مانفك ظاهرة سائدة تحول دون **ربط التخصص المثمر بالتنسيق العلمي، وبالنقاش النظري الابستمولوجي، وبالرؤية الشمولية لحركات الأشياء والظواهر.** ومَرَدُّ ذلك أن قسمة العمل الاجتماعي مانفكت تتعمق، كما أن النزعة الفردية والحلقية والقومية الضيقة، والنظرة الوحيدة الجانب، كلها عوامل تحول دون ربط الاجتهاد الفردي بالعمل الجماعي وربط التعمق الفرعي بالنظرة الاجمالية على نحو مُرضٍ. وهذا الواقع هو الذي يترك لغير العلماء، مجالا هاما للكلام وصياغة الخلاصات العامة المشتركة بين مختلف العلوم بل وتقييم المعرفة العلمية وأسسها، مما يؤدي الى الأخطاء والتشويهات التي تنم عن ضعف الأهلية أو الميل المصلحي الطبقي إلى استثمار العلوم لمقاصد أيديولوجية واقتصادية مختلفة بدون أيِّ اعتبار للحقيقة الموضوعية ولغير المنفعة الضيقة. ويمثل جان بياجي على العكس من هذا، نموذجا لعلاقة الاخصاب المتبادل المثلى بين ممارسة الاختبار العلمي وبين التفكير النظري الابستمولوجي، مع تفوق أساسي يميزه عن بعض العلماء الذين اهتموا بالابستمولوجيا، وهو أن بياجي تخلى عن معالجة أية قضية ابستمولوجية على أساس التخمين الذهني، وحرص كمؤسس لمدرسة علم النفس والابستمولوجيا التكوينيين على إخضاع كل فكرة في هذا الشأن للتمحيص الدقيق والاختبار كلما أمكن.

ثانياً : تطوير نظرية المعرفة في المنهج والمضمون : التنسيق العام للأفعال أساس بنيات الذهن الاجرائية.

ان الثمرة الأساسية لعلم النفس التكويني ولمجمل المجهود العلمي والابستمولوجي الخلاصي والمتعدد التخصصات، الذي أنجزه جان بياجي وزملاؤه هي تقديم أساس نظري جديد لحل معضلة الذكاء والتغلب على طلاسم الحياة الذهنية المعرفية للانسان وقدراته

الاجرائية، الرياضية ــ المنطقية. ولايقل هذا التقدم من حيث الأهمية عما تحققه العلوم الفيزكاوية والبيولوجية في التغلب على طلاسم حركة المادة غير الحية والأجسام الحية. وقد ارتبط البحث العلمي عند بياجي في البنيات النفسية للمعرفة البشرية بأكبر المعضلات العريقة في نظرية المعرفة وعموم الفلسفة.

والجانب الأول من التحول الثوري العلمي الذي تحقق في هذا الصدد هو أن تلك المعضلات العريقة أخذت طريقها إلى الاختبار العلمي المباشر وغادرت او تكاد مجال التصور الفلسفي الصرف. إذا أردت مثلا أن تفهم مصدر «العدد»، أو مفهوم الزمن، أو عموم البنيات الرياضية، فلم يعد بإمكانك الان أن تقتصر على المفاضلة المجردة والمجانية بين أدوار التجربة الحسية، والحدس الهندسي، والقوالب العقلية، و«الصور المثلى» الخ... فقد أصبحت تلك الامور تطرح وتحل علميا واختباريا من وجهة نظر التكون التاريخي لِبُنْيَانِهَا، على أساس التفاعل الواقعي الملموس بين الذات والموضوع قبل الوعي الذاتي ومعه وخارجه. وهذا التحويل المنهجي الأساسي أثمر بداية الحل المادي العلمي لمسألة أصول البنيات الرياضية المنطقية وأعطى الملامح الأولية لنموها اللولبي الشكل، والمتميز بأسبقية الممارسة العملية على الوعي، فتأكد بالتالي أن لهذا الوجه من وجوه الحركة نفس القوانين العامة، الجدلية، التي تطبع كل حركة. لكن الأساسي ليس أن تتأكد الجدلية ؛ إنما هو خصوصية وأصالة وأبعاد الاكتشافات الجديدة في هذا المضمار.

وخلاصة جان بياجي في الموضوع أن البنيات الاجرائية للذات العارفة لا هي تنسخ نسخا من الخصائص الخارجية للأشياء، ولا هي وحي يوحى في العقل الصرف. إنما تستند البنيات الرياضية ــ المنطقية هذه في منشئها ونموها إلى تنسيق الافعال في الممارسة العملية، باعتبار هذا التنسيق نشاطا انعكاسيا تنظيميا على المستوى النرولوجي والنفسي قبل الوعي وباستقلال عنه، حتى عندما يكون متحققا (وعي الذات لا يعكس أبدا في بدايته سوى نتائج المسلسلات الذهنية والنفسية العميقة ويصعد منها بعد ذلك فقط نحو استجلاء المقدمات والأسباب) فالعدد مثلا، ومجمل الحساب، أساسه التنسيق التدريجي بين مجموعة من الأفعال المنفصلة أصلا والبسيطة في حد ذاتها، وأهمها : ــ ترتيب مجموعة من الأشياء حسب خاصية مشتركة متزايدة أو متناقصة (مثلا أكبر فأكبر أو أصغر فأصغر) ــ وتصنيف الأشياء إلى مجموعات تمتاز كل منها بخاصية مشتركة بين عناصرها وتسمح بذات الوقت بأن نميز هذه العناصر عن غيرها ونجمعها معا ضمن صنف أو مجموعة واحدة. وينشأ العدد عندما يتم التنسيق بين هذين الاجراءين المنفصلين أصلا، وذلك بعد مسلسل من النمو المعرفي لقدرات الفرد على أساس الاحتكاك العملي بالأشياء وتقدم نضوج الدماغ. بيد أن العدد ليس نتيجة الضم البسيط للاجراءين الأوليين المذكورين باضافة أحدهما للآخر. لا بل أنهما لدى تركيبهما في بنية جديدة يتبدل كل منهما تبدلا جوهريا : فالخاصية النوعية للعناصر لا تعود لها أية أهمية لدى تشكيل الصنف ــ العدد، عكس الصنف العادي المذكور. فالميزة «النوعية» للصنف ــ العدد ليست سوى كمية العناصر التي يحتويها، تلك الكمية التي تتحدد ليس بالعدد، إذ لا زلنا بصدد تشكيله، وانما بالعلاقة الترتيبية لكل صنف من هذا النوع الخاص مع بقية الأصناف من نفس النوع بحيث يكون أكبر من هذا وأصغر من ذاك. فالترتيب إذن يتخذ هنا من جهته شكلا جديدا : انه الآن يجري على الأصناف وليس على الأشياء المنعزلة،

ويعتمد لا على تزايد أو تناقص خاصية معينة للأشياء المنفردة، وانما على تزايد أو تناقص الحجم الكمي للأصناف ـــ «الاعداد». يبقى أن إجراء ترتيب هذه الأصناف يؤدي من خلال الممارسة الى اكتشاف أن كلا منها هو بذات الوقت صنف متميز، لكنه، إن شئنا، يضم الصنف السابق له (إذ هو أكبر منه) ويوجد متضمنا بدوره في الصنف اللاحق (إذ هو أصغر منه). وهكذا فإن الأصناف واحد، إثنين، ثلاثة، أربعة... هي بذات الوقت أصناف **كمية، مرتبة تصاعديا، ومتداخلة** بحيث يضم اللاحق في السلسلة السابق فيها. لقد أغنى جان بياجي في هذا الصدد النظرية المادية في كون المعرفة وعموم الوعي البشري إنعكاسا للعالم الموضوعي، المادي، أي «الموجود خارج وعينا وباستقلال عنه» (حسب تعبير لينين في ''المادية والنزعة الانتقادية التجريبية '').

ويكتسي هذا الاثراء مظهرين :

ـــ المظهر الأول، غير جديد في مبدئه، وإن كان جان بياجي قد أكسبه مضامين جديدة ملموسة أكثر ومبنية على التجربة العلمية الاختبارية في ميدان علم النفس التكويني بالذات. ويستنتج من التجارب التي أجريت في هذا الصدد، سواء على مستوى ميكانيزمات الادراك والاحساس، أو على مستوى نمو البنيات الرياضية ـــ المنطقية، أن الانعكاس الذاتي للعالم الموضوعي في الوعي البشري ليس أبداً عملية رهينة بمحض تأثيرات أو تحريضات الأشياء الخارجية، وان الذات العارفة لا تكتفي أبداً بمجرد التلقي السلبي والتسجيل الآلي للانطباعات الآتية من الخارج. بل أن جميع الانطباعات الحسية ذات الأصل الموضوعي، (خارج الوعي)، تفترض أمرين : الأول هو النشاط الفاعل والموجب للحواس التي تلتقطها،وذلك بالطبع حسب شروط فيزيولوجية ونفسية معينة تؤثر إلى حد كبير في المضامين الذاتية للانطباعات الحسية. والثاني هو وجود هياكل للاستيعاب الذاتي حسب المكتسبات الماضية بفضل الخبرة العملية وحسب الضرورات الذاتية الراهنة للممارسة الحسية ـــ الحركية ـــ الادراكية ؛ وهذه الهياكل تُقَوْلِبُ الانطباعات وتؤطرها في بنيات معرفية أو حسية ـــ حركية مميزة لمستوى ونوعية الذات الفاعلة أو العارفة. ويستشهد جان بياجي في هذا المضمار بدعوة ماركس في اطروحاته حول فيورباخ إلى ضرورة «اعتبار العالم المحسوس من حيث هو نشاط عملي ملموس للانسان» ؛ ويومىء ماركس هنا بلا شك إلى النزعة الطبيعية الحسية الضيقة لفيورباخ الذي لا ينظر للذات ككائن ملموس فاعل وإنما ككائن متأمل يُحس بالطبيعة وبما يحيط به من الأشياء، بصرف النظر عن نشاطه الحركي ـــ الحسي ـــ التحويلي في الكون. ومعنى هذا بالنسبة لنظرية المعرفة أن الانعكاس ليس أبداً بالنقل الألي، السالب والمحايد، الدقيق التام، للون وطعم وسرعة وشكل هذا الشيء أو ذاك، بصرف النظر عن النشاط الكلي العملي والحسي للذات العارفة وبصرف النظر عن الشروط التاريخية لحياتها، وبصرف النظر، نتيجة لذلك عن التحويرات التي تكون قد طبعت مسبقا إستعدادات وعيها لادراك الموضوع وتقييمه. وقد طور جان بياجي هذا الجانب الأساسي من نظرية المعرفة المادية ـــ الجدلية بفضل دراساته المعمقة إختباريا وإحصائيا حول شروط ومضامين الادراك في مختلف الأعمار وكذا في تقييمه النقدي لمختلف مراحل نمو الفكر العلمي والفلسفي.

ـــ أما المظهر الثاني لمساهمة جان بياجي في تثوير نظرية المعرفة فيتمثل في إبرازه وجها أساسيا للانعكاس المعرفي أغفل تماما من قبله باستثناء كارل ماركس الذي أشار إلى وجوده

وأهميته من حيث المبدإ. فلا يكفي فهم الانعكاس على نحو ديناميكي ــ تحويلي ــ فاعل، بحيث تصبح الفاعلية الانسانية من مقومات العالم المحسوس. بل لابد أيضا من التمييز بين وجهين مترابطين لصيرورة إنعكاس هذا العالم، المفهوم بهذه الشمولية، في خبرات الذات العارفة ووعيها، أي باختصار في ثقافتها. وتدين نظرية المعرفة لجان بياجي بهذا التمييز الحاسم الذي يمكن إيجازه كما يلي :

هناك أولا جانب من الانعكاس يكسبنا **معلومات وخبرات ودراية بقوانين موضوعية** بالمعنى التقليدي، تتعلق بالخصائص المميزة للأشياء والظواهر المحيطة بنا وكذا بأنماط وقواعد حركتها وتناقضاتها الداخلية وتبدلاتها؛ وهذا هو مضمون كل العلوم المتعلقة بالمادية العادية والحياة والمجتمع الخ... (فيزياء، كيمياء، بيولوجيا، ميكانيك، نورولوجيا، اقتصاد الخ...)

وهناك ثانيا جانب من الانعكاس يكسبنا قدرات **وبنيات اجرائية (حسابية، هندسية، جبرية، منطقية الخ...)**؛ وهذه البنيات تجد منطلقها كما سبق الذكر في التنسيق العام للأفعال منذ الصغر، وتعد بالتالي حصيلة للانعكاس الباطني للممارسة على الموضوعات (في مقابل الانعكاس «الخارجي» لها من حيث المصدر وهو الذي يحتوي المعلومات حول الأشياء والظواهر التي هي موضوعات الممارسة). وهذا التنسيق العام للأفعال يجري أساسا باستقلال عن مدى الوعي به، ويبقى ملتصقا عمليا بالفعل المباشر على الأشياء في مراحله الأولى قبل أن يؤدي إلى تكوُّن البنيات الاجرائية الصرفة، الرياضية المنطقية. ومن وظائف هذه البنيات أنها تنظم وتؤطر ما يُكتسب من المعارف من الصنف الأول، بل أنها تنظم وتطور ممارسة الاحتكاك بالموضوعات من أجل إكتساب هذه المعارف، بل أنها أخيراً تؤسس قواعد البنيان الفرضي ــ الاستنباطي الذي يسمح أحيانا باستباق التجربة في الكشف عن ظواهر أو قوانين جديدة في ميدانٍ مّا من المعرفة العلمية. فالتنقل والأخذ والرد والترتيب والتصنيف والعد والجمع والطرح والقسمة والتخطيط، واستعمال الوسائط لبلوغ الاهداف الخ... كلها أفعال أو إجراءات عملية ملموسة تمارس ماديا على الأشياء (من الأصابع واللُّعَب والأدوات المنزلية والمهنية حتى الري والمبادلات والطرز الخ...) قبل أن تصير عمليات رياضية أو هندسية تمارس على الرموز المجردة للأشياء أو حتى على مخض عمليات سابقة دون الاكتراث بالأشياء مادية كانت أم رمزية.

هل لهذا النوع الثاني من الانعكاس قيمة موضوعية رغم أنه ينطلق من ممارسة الذات وليس من خصائص الموضوع بالمعنى التقليدي ؟ الجواب الواقعي عن هذا التساؤل تعطيه بالطبع حقيقة ملاءمة الانساق الرياضية تمام الملاءمة لصياغة القوانين الموضوعية لحركة العالم. لكن ثمة جواب نظري فلسفي من المهم إستجلاؤه بالنسبة لنظرية المعرفة. وهذا الجواب يفترض التساؤل بصيغة أخرى ملائمة لمفاهيم نظرية المعرفة : هل الممارسة العملية للذات العارفة تعد من مكونات الموضوع، أم هي إمتداد للذات فحسب ؟ إذا اعتبرنا أن الذات هي الوعي، فلا شك أن الممارسة العملية لجسم الانسان ليست بذاتية، ولا واعية بذاتها في كل الظروف، ومن ثم فهي على كل حال غير الوعي وغير الذات المفترض فيها الوعي كشرط ضروري لوجودها كذات للمعرفة. وإذا اعتبرنا أن الذات هي عموم الوجود الانساني علما وعملا، فكراً وفعلا، فعندئذ تكون الممارسة الانسانية امتداداً خارجيا للذات المعرفية، وعندئذ يصعب

الاعتراف للممارسة الذاتية بأن تكون مؤهلة للانعكاس على شكل انساق ذات قيمة موضوعية كونية، كما هو الحال بالنسبة للرياضيات مثلا !

إن علم بياجي يسمح بالتجاوز الجذري لاشكالية التعارض الميتافيزيقي المطلق بين الذات والموضوع كما تجلت في الفلسفة الكلاسيكية، وفي نفس الوقت تجاوز اشكالية اسقاط الذات في الموضوع والخلط بينهما على نحو لاعقلاني وذاتي، كما تجنت في الاتجاهات الظاهراتية والوجودية. وقد ألحّ ماركس من حيث المبدإ في أطروحاته حول فيورباخ على « ضرورة اعتبار الفاعلية البشرية نفسها كنشاط موضوعي » ، و « اعتبار العالم المحسوس من حيث هو نشاط إنساني ملموس ». وأصبح الآن ثابتاً علميا بفضل اكتشافات جان بياجي أن هذا النشاط الانساني الملموس، كجزء لا يتجزأ من العالم الموضوعي، هو الذي يشكل، من خلال التنسيق العام للافعال منذ الصغر باتجاه تأسيس البنيات الاجرائية للذات العارفة، منطلق أحد أروع العلوم التي يعتز بها ويتسلح بها الوعي البشري والعمل البشري في السيطرة على الطبيعة وفهم قوانينها. لقد كان النقاش حول دور الذات والموضوع في تأسيس البنيات الاجرائية للمعرفة يسقط غالبا في تبسيط سطحي مغلوط، يحصر الموضوع في مجرد الأشياء الطبيعية المحيطة بالانسان، ويحدد الذات في الوعي. ومن ثم فكثيرا ما أغفل أهم ما يميز الأجسام الحية : الفعل، وما يميز الانسان بوجه خاص : العمل (أو الممارسة) المنسقة في الأفعال والمصحوب بالتمثل الواعي بهذا القدر أو ذاك من الشمولية في الانعكاس. وتتجلى السمة الموضوعية للفاعلية الانسانية في أنها عمل جسمي، مادي، ملموس، متكيف ومتفاعل مع باقي العالم المادي (والاجتماعي) المحيط به .. ثم أن هذه الممارسة موضوعية كذلك من حيث أنها لاتخضع كلية للارادة ولا تبقى خاضعة وتبعية للذات على إعتبار هذه الأخيرة هي بالتحديدالوعي. فالممارسة سابقة للوعي تاريخيا، ومتجاوزة له مضمونا من حيث السعة، والعمق وهذا هو السبب في ضرورة قيام علوم تسعى للاستجلاء الموضوعي للممارسة الانسانية الزاخرة الغنى في الاقتصاد والسياسة والعائلة الخ .. ذلك أن تلك الممارسات الموضوعية لا تنعكس أليا ولا كلية ولا على نحو مستقيم في الوعي التلقائي للذوات البشرية القائمة بها. والذات من جهتها لا يمكن حصرها في الوعي كأداة للتأمل والتسجيل، إذ لا وجود للوعي بدون الفعل الذاتي النشيط ؛ كما أن مضامين الوعي مقيدة دوما بهياكل ذهنية للاستيعاب لا يكون إدراكها الواعي التلقائي إلا جزئيا إن لم يكن غائبا أو معكوسا. ويمكن القول أنه بدون الهياكل العملية والبنيات الاجرائية التي تنعكس عن الممارسة العملية لا يمكن للوعي الذاتي أن يستقبل أي «معطى» خارجي. ومع ذلك فقد أغفل الفكر الفلسفي على العموم أدراج الممارسة الملموسة للانسان في مفهومه للموضوع، رغم أنه من جهة أخرى يغفلها تماما لدى تحديده للذات، التي لا يرى فيها سوى «الوعي».وقد عاب ماركس في أطروحته الأولى حول فيورباخ، عاب على المادية القديمة بمجملها قصور مفهومها للموضوع إذ طرحته على نحو سالب، يستثني الممارسة البشرية. وسجل أن المثالية هي التي طورت في الغالب «الجانب النشيط» أو الموجب على حد تعبيره، لكن كما يقول « بصورة مجردة، لأن المثالية بطبيعتها تجهل النشاط الملموس الواقعي بصفته هذه ». كما أن ماركس كثيرا ما ألح، في تحليله للعلاقات الاجتماعية والايديولوجيا، على أن الممارسة الاجتماعية تحمل مضامين تتجاوز بكثير حدود الوعي والارادة، بل أن إنعكاس تلك المضامين، بكل تمزقاتها، قد يكون مقلوبا في

الوعي أو محورا تحويراً مثاليا جذرياً بالاضافة إلى جزئيته . وأثبت جان بياجي من جهته أن البنيات الاجرائية التي يفترضها الحساب مثلا لاتنعكس إلا على نحو جزئي وسطحي في الوعي التلقائي للناس الذين يعرفون مع ذلك الحساب. وأين توجد يا ترى تلك البنيات الايديولوجية التي يتصرف من خلالها الناس والتي تحدد مضمون وعيهم السطحي أو التلقائي؟ دون أن يستنفذ هذا الاخير مضمونها ؟ ثم أين توجد تلك البنيات الاجرائية التي تجعلهم قادرين على ممارسة النشاط الذهني والعملي على نحو منسق دون أن يعوا بكل مضامينها ومقدماتها ؟ انها بالطبع توجد في البنية النفسية ــ النورولوجية للذات بعينها، كانعكاس غير واع لتنسيقات الافعال السابقة خلال مجمل التجربة الحياتية للناس. ويتضح هنا أن إفقار الموضوع في الطرح الفلسفي القديم بإغفال عنصر الممارسة الملموسة للبشرية، كأرقى اشكال حركة الجسم الحي ذي الوجود الاجتماعي، رادفه إفقار الذات كذلك بإغفال البنيات « القاعدية »، النفسية ــ النورولوجية للوعي، باعتبار تلك البنيات الخزان المنظم للتجربة السابقة كلها ومختبر العمليات الذي يستمد منه الوعي أفكاره ومشاعره الجاهزة، ويستمد منه الجسم القواعد المنظمة لكل ما يقدر على فعله دون أن يقدر على وصف كل مقدماته ومراحله. من هنا يبدو واضحا إن إرجاع أصل البنيات الرياضية ــ المنطقية إلى تنسيقات الافعال من الطفولة يعد بحق اكتشافا علميا هائلا وتشمل أبعاده اضافة إلى رفع الابهام عن أصل تلك البنيات ذاتها، تثوير المناهج البيداغوجية، وتأسيس علم النفس المتخصص في شؤون نمو البنيات الذاتية ــ الموضوعية للمعرفة، وتثوير نظرية المعرفة في تصور كل من الذات والموضوع وطبيعة التفاعل بينهما، والحث على البحث المتعدد التخصصات حول شروط وأشكال التكيف المميزة للانسان ككائن طبيعي حي (بما في تلك الأشكال الخاصة من عمل ووعي وتواصل إجتماعي، ونظم رمزية وتصورات ايديولوجية الخ...). وفضلا عن ذلك فإن هذه النظرية الجديدة لم تقف قط عند حدود الطرح المبدئي. فقد تمكن جان بياجي وزملاؤه، في الظروف التاريخية والعلمية التي عملوا فيها، من إنجاز عدد هائل من الأبحاث النظرية والاختبارية تشمل الكثير من جوانب مسلسل تكون البنيات الاجرائية للمعرفة ومضامينها في مختلف مراحل نموها، كما حددوها بأنفسهم، من المرحلة الحسية الحركية، إلى المرحلة الاجرائية الملموسة، إلى المرحلة الاجرائية الصورية (حيث يستغني النشاط الذهني، الفرضي ــ الاستنباطي عن التداول العملي للأشياء).

○ ملاحــق :

الملحق 1 : الديالكتيك والنزعات التجريبية والأفلاطونية والقبلية (جان بياجي)

... فيما يخص التجريبية، تتخذ المسألة الشكل التالي :

إذا كان كل شيء رياضيا، أو قابلا للصياغة الرياضية، لِمَ لا تكفي التجربة الفيزيائية (بمعناها العام أي المرس بالأشياء) لاكتشاف الكائنات الرياضية ؟

...إن السبب الجوهري لقصور النزعة التجريبية يكمن في الحقيقة العامة التالية التي أحسن صياغتها (G.lippman) إذ قال : أن الكائن الحي مزود «بأجهزة» على مستوى تكوينه العضوي كما على مستوى وظائفه المعرفية، بينما الواقع الفيزيائي عبارة على ظواهر [عكس الأجهزة] وخاصية كل جهاز أنه ينجز أشغالا معينة، ومن ثم فإن المحيط خاضع لتحويل المستمر من طرف الذات التي تستوعبه على جميع المستويات : الفيزكيماوية، والوظيفية والمعرفية. ولذا فإن المعرفة تستند إلى التفاعلات بين الذات والموضوع، وحتى عندما تكون الذات هي موضوع المعرفة، تتأسس تفاعلات بين الذات التي تعرف والذات التي تُعَرَفُ. والنتيجة أن أي موضوع للمعرفة كيفما كان (بما في ذلك الذات) لا يُعرف في ذاته إلا عبر سلسلة من التقريبات المتلاحقة تتجه نحو حد يتراجع إلى ما لانهاية. وإنطلاقا من هذه التفاعلات التي لا يمكن فصلها عن بعضها البعض أول الأمر، تنحو المعرفة نحوين متناقضين :

ـــ أولهما، قطب الاستيعاب الداخلي، ويتكون من التنسيقات الداخلية الضرورية للأفعال وللتفاعلات، تلك الانعكاسات التي يؤدي تحليلها الانعكاسي إلى إستخراج البنيات الرياضية المنطقية.

ـــ وثانيهما، قطب الاستيعاب الخارجي، ويتميز بمتابعة الموضوع وإكتساب المعرفة التجريبية [بالمعنى الوصفي، لا الفلسفي] Experimentale (± empiriste)

وهذا هو السبب في أن الواقع، وإن كان من طبيعة رياضية ـــ منطقية، تبقى إطاريته قابلة فقط للصياغة الرياضية، دون أن تكون الكائنات الرياضية في المتناول إعتمادا على محض التجربة.

زد على ذلك. (وهذا هو السبب الجوهري الثاني في قصور التجريبية)، أن استيعاب أجهزة الكائنات الحية والمفكرة للواقع لا يتم إلا تدريجيا. ومن ثم فلا قراءة معطيات التجربة ولا الوعي ببنيات الذات مباشرين. بل يبقى من الضروري دائما بناء الموضوعية، وبناء الأنساق الاستنباطية. هذا البناء المزدوج هو الذي يوقف، من جهة أخرى النزعة الأفلاطونية ويفشلها. فقد رأينا فيما سبق كيف أن حدود الصياغة الاكسيومية. تؤدي من وجهة نظر الصياغة الصورية، إلى ضرورة الأخذ بالرؤية البنائية، بما أنه لا يمكن إتمام أي نسق إستنباطي إلا بالاعتماد على الإنساق اللاحقة وليس السابقة. [يشير بياجي هنا إلى القاعدة المعقدة التي وضعها عالم المنطق كودل سنة 1931، والتي مؤداها باختصار أن أي نسق صوري لا يمكنه إثبات عدم تناقضه الداخلي بوسائله المنطقية الخاصة، وإنه ينبغي لابد أن يتجاوز في نسق أشمل يأتي بعده ويضمه كحالة خاصة، ونفس القاعدة تسري على النسق الجديد وهكذا].

وفي أفق النزعة الرياضية الجذرية (pan mathematique) ، حيث الواقع نفسه يعد رياضيا بطبعه، يمكن التساؤل عما إذا لم يكن عالم الأفكار المطلقة قد وجد هكذا تبريره حينئذ لا يبقى للطرح البنائي من صلاحية سوى بالنسبة إلى الذات، بينما يكون الفكر الشامل لكلية الواقع لا يرى فيه سوى مجموع الكائنات المنطقية ـــ الرياضية المتحققة

بالتمام. ولا تعدو التجربة الفيزيائية أن تكون نمطا أدنى وإعتباطيا للاستطلاع في خضم تلك المجموعة من الكائنات. أما الاستنباط البنائي فيمثل عندئذ الطريق الملكي الأمثل لولوج بواطنها. تلك كانت بالتحديد رؤية «جوفي» G.juvet صاحب بنية النظريات الفيزيائية الجديدة. ففي رأيه ليس عالم التجربة إلا «قطاعا» من العالم الرياضي «صغيرا جدا»، و ذلك لأن كل تفسير صحيح في ميدان الفيزياء الرياضية، يؤدي إلى إعادة غطس القوانين المكتشفة تجريبيا في عالم البنيات. وهكذا فإن كل نظرية فيزيائية، تؤدي حسب جوفي، إلى إخضاع التحولات الملحوظة لفرقة من التحولات [بالمعنى الرياضي لكلمة فرقة groupe] هي بمثابة النمط النموذجي للتحولات الرياضية والمبدإ الأساسي للعلية الفيزيائية في آن معا. أما عالم البنيات الأساسية هذه، فيمتاز حسب جوفي بنوع من الوجود العام بطبعه، وهو منبع الواقع المحسوس بقدر ما هو مصدر ديمومة الحقائق المنطقية ـــ الرياضية. وقد أخطأ بوانكري [عالم الرياضيات الفرنسي] أخطأ حسب جوفي عندما عرف وجود الكائنات الرياضية ـــ المنطقية بعدم تناقضها. على العكس من هذا فإن وجود هذه الكائنات حسب جوفي هو الذي يجعلها إلى الأبد في منأى عن التناقض.

مثل هذه النزعة الأفلاطونية، بدون ذات مفارقة، تبدو ظاهريا وكأنها لا تفعل سوى الأخذ بتلك الصيرورة المزدوجة التي يعترف بها الجميع : الصياغة الرياضية للواقع المحسوس تدريجيا، نمو الضرورة الباطنية المميزة للانساق المؤسسة إستنباطيا. بيد أن المسألة برمتها تتعلق عندئذ بمعرفة ما إذا كان يجوز التفكير في الواقع بكليته بواسطة نفس الادوات الاجرائية التي تمنح شرعيتها [في نظر جوفي] للمكتسبات التي تحققت خطوة خطوة في مجالات محدودة من الميادين التجريبية والاستنباطية. ويشهد تاريخ الفكر العلمي على ما تحصل من الأفكار الحادية للمنطق كلما وقع الانجرار إلى الحديث عن الكون الفيزيائي برمته. خذ مثلا على ذلك كل الميتافيزيقيات التى استخرجت من مبدإ كارنو Carnot [يشير يحيى هنا على الخصوص إلى ميتافيزيقا الموت الحراري بعد التي تعتمد أساساً على أسس المبدإ الثاني في الترموديناميك أو الديناميكا الحرارية، والذي مؤداه انه في «نظام حراري مغلق» تتجه الجسيمات ذات الطاقة الحرارية المرتفعة إلى التوزع داخل النظام وفق حالة التوازن الحراري الاجمالي حيث تتساوى حرارة كل «نقطة» على حدة مع حرارة غيرها ويصبح النظام المغلق برمته مفتقرا للقوة الحرارية الدافعة، أي الفاعلة كأن تستعمل في عمل ميكانيكي مثلا] ومثال اخر على ذلك الحديث عن مجموعة رياضية في إتحادها الكلي (انظر نقائض نظرية المجموعات) [يشير يحيى هنا إلى أزمة من أزمات الرياضيات في العصر الحديث، ومثلا على تلك التناقضات ما يلي : هل مجموعة المجموعات (التي لا تشتمل على نفسها) تشتمل على نفسها أم لا ؟ إن اشتملت على نفسها تناقضت مع تعريف نفسها كمجموعات التي لا تشتمل على نفسها، وإن لم تشتمل على نفسها أصبحت من المجموعات التي لا تشتمل على نفسها، وكان يلزم حينئذ عندئذ أن تشتمل على نفسها! ويمكن للقارىء بالعربية أن يرجع إلى عرض محمد عابد الجابري هذه التناقضات في مدخل إلى فلسفة العلوم الجزء الأول]

ان القرار بعدم تناقض العالم الصوري باسم وجوده المفترض، يعد بلا شك مغامرة

جميلة، بالمعنى الافلاطوني للكلمة، لكنه يبقى مجرد مغامرة.

وإذا حصرنا القول فيما يمكن مراقبته وإثباته، فلا يجوز الحديث سوى عن تيارين في الفكر العلمي : الأول يتضمن غزو الموضوعية الفيزيائية بفضل التقريبات الاختبارية المتزايدة الدقة باستمرار وبفضل الصياغة الرياضية التي يتيحها الاستيعاب الاستنباطي. والثاني يتضمن تأسيس البنيات المنطقية ـ الرياضية بفضل التركيب المتجه إلى أمام، وبفضل الصياغة الصورية التي تراجع المكتسبات. هذان التياران مستمران إلى ما لانهاية له، ومن ثم فإن منظومة العلوم تبدو على شكل لولبي يتوسع بإستمرار. ولو إلتقى التياران فرضا على غرار ورشين إنطلاقا من بابي ممر تحت الأرض والتقيا في وسطه، عندئذ فقط يمكن إثبات النزعة الافلاطونية لجونفي وأمثاله. وفي إنتظار تحقق هذا الفرض، فإن كل علم للمعرفة حريص على أن لا يتجاوز تأويل مسالك المعرفة الحقيقية (الفعلية)، لايسعه إلا أن يعترف بتعدد سبل الفكر وبالتنسيقات التي تتحقق بينها بدون إنسجام قبلي مسبق.

وتمثل النزعة القبلية طريقة أخرى لتفسير الطابع البنائي اللا محدود وكذا صرامة قواعد أنساقها وإتفاقها مع التجربة. ذلك أن البنية التركيبية القبلية [بالمفهوم الكانتي]، تعد منبعا للتركيب وتحقق اللزوم الرياضي وتمثل شرطا ضروريا لكل تجربة. ولابد لنا من الاعتراف بأن قيامنا بربط البنيات المنطقية الرياضية بالتنسيق العام للأفعال يجعلنا نقر بنوع من الشرط الوظيفي القبلي اللازم لكل فعل أو عملية معينة. وفضلا عن ذلك فمن المهم جدا أن نلاحظ أن المعرفة، وأن كانت تمثل، كما يبدو ذلك بديهيا، حالة خاصة من بين علاقات الجسم مع بيئته، فإن البيولوجية المعاصرة تتجه لصالح القبلية من حيث تعتبر البنيات الوراثية تابعة مباشرة لتأثيرات المحيط.

بيد أن الثغرة الجوهرية في النزعة القبلية الكلاسيكية تتمثل في طابعها الستاتيكي، الناتج بدوره عن المتطلبات الترانساندنتالية الوهمية لتلك النزعة، أو بحثها عن الأصل المطلق. ومن ثم فلا بد من إعطاء المقدمات القبلية [أو المعطى سلفا] طابعا نسبيا وفهمها على نحو مَرِنٍ في صورة عملية بناء تتم تدريجيا.

ذاك الطابع النسبي تفرضه حقيقة كون الحدود بين التجربة وشروطها المسبقة أو بين البناء الحر وإطاراته اللازمة هي حدود نسبية بالأساس إذ ترتبط بالذوات حسب مراحل نموها التاريخي والتكويني. فبالنسبة للذات أ (ألف)، تخضع تجاربه وتشييداته دوما لشروط مسبقة وضرورية في آن معا. لكن هذه الشروط لا تبقى هي هي عند انتقال الذات (ألف) من أحد مستويات نموها إلى مستوى لاحق. ومن جهة أخرى فإن المعطى القبلي بالنسبة للذات أ (ألف) قد يكون موضوع تجربة أو بناء بالنسبة للذات ب (باء)، (التي قد تكون مؤرخا أو عالم نفس، أو باحثا في الابستمولوجية)، مع العلم أن الذات «ب» خاضعة بدورها لاطارها القبلي الخاص بها. ومن هنا بات من غير اللازم الاستنجاد بأية نزعة قبلية مفارقة أو ترانساندانتالية، في حين أن الجدلية التكوينية أو التاريخية تحتفظ بكل ما في «القبلي» من حقيقة (نعني الشروط المسبقة الضرورية) دون أن تعفي هذه الحقيقة من المستلزمات العامة للتحليل العلمي، البنائي والاختباري.

وهنا نصل إلى النقطة الجوهرية، وهي أن النزعة القبلية في صورتها الستاتيكية تتضمن نوعا من التكوين القبلي. ذلك أنها توجب على البنيات التركيبية القبلية أن تتضمن سلفا وبصورة جاهزة مجمل البنيات المنطقية ـــ الرياضية. وفي هذا تصطدم النزعة القبلية بتكذيبات التاريخ : فقد بدأ إكتشاف الهندسات اللا أوقليدية على أنه مدعاة لافلاس المذهب الكانتي الذي فرض على المجال (أو المكان) بوصفه قالبا قبليا للحساسية إرتداء الشكل الاوقليدي بالذات كفرض لزومي في أفقه الستاتيكي. وعلى العكس من هذا، ففي الأفق البنائي، تعد البنيات ضرورية في جذورها ومفتوحة في نفس الوقت بإستمرار للتشييدات اللاحقة التي تستوعبها وتدمجها في إطار دائم التوسع. وعلى هذا المنوال تتزايد المستلزمات المميزة لتلك الضرورة الداخلية [للبنيات] بدل أن تتناقص، وتتوطد بذلك الحقيقة المتضمنة في التأويلات ذات النزعة القبلية في نفس الوقت الذي تتحرر فيه هذه التأويلات من القوالب القبلية الجامدة والمفارقة وتتحرر بوجه خاص من فرض التكوين القبلي.

وبناء على هذا، فإن التأويل الذي يبدو أكثر ملاءمة للرياضيات المعاصرة هو التأويل الجدلي. والفكرتان المركزيتان في كل جدلية هما فكرتا النمو والتركيب. ولا داعي للالحاح، بعدما ذكر آنفا، على مدى تطابق الرؤية البنائية الاجرائية الموصوفة أعلاه، مع فكرة النمو الجدلي بالذات. أما مفهوم التركيب فيقدم عادة على الشكل التالي :

طرح الموضوعة «م»، ثم نفيها على صورة لا «م»، ثم تجاوزهما معا في إطار التركيب أو التوفيق «ر»، الذي يحتفظ بما هو جوهري في كل من الاطروحة والنقيض («م» و لا «م») مع إضافة خصائص جديدة يتسنى معها رفع التناقض.

ولا فائدة هنا في إثارة مسألة وجود أو عدم وجود منطق جدلي متميز عن أنواع المنطق المعروفة لحد الآن. فخلال مناقشة دارت بمركز الابستمولوجية التكوينية بجنيف، برزت المواقف التالية : بالنسبة للبعض لابد من تأسيس منطق جدلي من أجل صياغة كل نمو بنائي. وعلى هذا المنطق أن يمنح دورا جديدا وإيجابياً لمبدإ التناقض. بيد أنه لا مناص من الاعتراف بأن منطقا من هذا النوع غير موجود لحد الآن في صياغة صورية. وبالنسبة للبعض الأخر فإن أنواع المنطق المعروفة حاليا هي من المرونة والتعدد بحيث لاتبقى ثمة حاجة «لتغيير المنطق». وامتدادات المسالك المنطقية المعروفة كافية للسماح لكل التغييرات والتطورات اللازمة كما كان الحال دائما في الماضي... أما عالم المنطق البولوني جرينفسكي (Greniewski) (ويتحقق برأيه توفيق أو تركيب جدلي)، فهو يرى أن المنطق، بدون أي نعت، قد واجه وتجاوز الأزمات باستمرار، وذلك عن طريق التبدل والاحتناء حسبما تدعو اليه الحاجة، ومن ثم فإن هذا المنطق بعينه جدلي.

وعدا هذا، فان الحالتين اللتين تطرح فيهما مشكلة وجود تركيبات من نوع : («م») + (لا«م») «ر»، [يعني لزوم التركيب عن اتحاد النقيضين] هي الحالات التي يناقض فيها البناء الجديد الانساق السابقة، وتلك التي تبدو فيها البنية الجديدة وكأنها تتولد ببساطة عن سابقاتها.

اما الحالات من النوع الاول فاعتيادية الوقوع، وهي التي الهمت مثلا كاستون باشلار في دراسته الجميلة المعنونة ب « فلسفة النفي ». فالهندسة الاوقليدية تناقضها الهندسات اللا أوقليدية، ومستقيم أرشميد تناقضه المستقيمات اللا أرشميدية، وأصناف الجبر التبديلية تناقضها أصناف الجبر التبليدية..، ويتجسد التركيب في إقامة بنية تسمح بالمرو من «م» إلى لا «م»، من القضية إلى النقيض بالتحويل المباشر أو الضم أو التركيب الأوسع. وفي هذه الحالات يبدو الطابع الجدلي للنمو جليا تماما.

وبالمقابل ففي الحالة التي يبدو فيها البناء وكأنه يتم بالتعميم البسيط، فالكل يعلم أن هذا التعميم يختلف، بسبب طابعه البنائي، إختلافا واضحا عن التفخيمات الاستقرائية. بيد أن المقارنة مع الحالات السابقة الذكر تؤدي الى ادراك حقيقة كون الاختلاف بين التعميم المنطقي ـــ الرياضي، والاستقراء المفخَّم يجد مصدره في امتداد السيرورة الجدلية بالذات، ومن ثم يمكن أن يكون النقيض (لا «م») عملية عكس، أو تقابل، أو تكامل الخ... وهكذا فان المرور من الاعداد الطبيعية الى الاعداد الصحيحة قد تم بناء على إجراء عكس الجمع وهو الذي تتولد عنه الأعداد السالبة، وكذلك فإن إجراء عكس الضرب هو الذي يؤدي الى بناء الأعداد الحقيقية الخ...

البرهان التكراري، وبينة الفرق، وقانون الثنائية في الشبكات (وهو شكل من التقابل الخ... تعد جميعا عمليات التركيب (أو التشكيل) حيث يقوم قلب الاتجاه أو الاجراء المعكوس أو غير ذلك بدور محرك التجاوزات عن طريق جدلية متعددة الأشكال. وهذه الجدلية لا تنحصر في نطاق لا ونعم، (أو كاذب وصادق بالصيغة التي تظهر منذ أولى التحليلات الصدقية)، [في منطق القضايا] بل تمتد تلك الجدلية إلى حركة الهو، «الغير» كما كان يتكلم أفلاطون. وهذا كله وفق كل درجات التكافؤ وعدم التكافؤ.

وبكلمة واحدة، فإن حقيقة الرياضيات هي تشييدها. وإذا كان هذا البناء المستمر متضامنا مع السمات الأعم للتنظيم الحي حسبما نعتقد وفق خلاصات الباب السابق، فإن الجدلية الداخلية المحركة لهذا البناء تشكل البنية الخلفية أو الباطنية لمقاومة تضاهي تلك التي تتسم بها الأفلاطونية أو القبلية، لكنها تمتاز بدينامية أقرب بكثير من غيرها الى التطابق مع المسلك الفعلي لهذا النوع الأساسي من المعرفة.

(جان بياجي، فصل من « مبحث حول المشاكل الأساسية في علم المعرفة الرياضية»، ضمن مجلد « المنطق والمعرفة المعرفية » سلسلة لابلياد، منشورات كاليمار، ص. 589 الى 596.)

الملحق 2 : خاصية المعرفة المنطقية الرياضية (جان بياجي).

من وجهة النظر التكوينية يبدو الفرق بين المعرفة الاختبارية أو الفيزيائية [معرفة خصائص الأشياء والظواهر الخارجية في ذاتها] والمعرفة الرياضية المنطقية في أن الأولى

تستمد من الأشياء ذاتها، بينما الثانية تستمد من الأفعال التي تمارسها الذات على الموضوعات. وليست هذه أبدا هي تلك. ففيما يخص المعرفة الفيزيائية، سيكتشف الطفل وزن الأشياء مثلا، بواسطة الأفعال التي يمارسها عليها (تحويلها، رفعها الخ...) لكنه سيستمد معرفته بالوزن من الأشياء ذاتها، بمعنى أن عملية الوزن مثلا لا تؤدي إلى إدخال خاصية الثقل في الأشياء وإنما تؤدي إلى إكتشاف تلك الخاصية فيها. وعلى عكس ذلك فإن الطفل، عندما يكتشف أن مجموعة من الأشياء لا يتغير عددها مهما كان النظام الذي يتبعه في إحصائها أو ذكرها، عندما يكتشف بالتالي أن عملية الجمع تبديلية، (وهذه معارف رياضية ــ منطقية) فإنه وإن ظل كما في الحالة السابقة يتمرس بالأشياء، إلا أن أفعاله تضفي على الاشياء في الحالة الثانية سمات أو خصائص جديدة لم تكن تتوفر عليها من قبل. فقد يرتب الطفل تلك الاشياء في صف مستقيم ليعدها من اليمين الى اليسار، ثم من اليسار الى اليمين، وقد يقسم الصف الى إثنين.. (ويعد كلا منهما على حدة)... وفي هذه الحال فرغم أن الطفل لا يمارس الا بواسطة الأشياء [المادية]، (قبل أن يتعلم تداول الرموز وإنجاز الاجراءات عليها)، نجده يستمد معارفه الجديدة [من النوع الثاني] من أفعاله ومن الخصائص التي أضافتها هذه الأفعال إلى الأشياء : فقد نظم الطفل هذه الأشياء، ولم يكن لها نظام من قبل، وقد ضمها في مجموعة واحدة أو مجموعتين فرعيتين الخ... والذي اكتشفه في هذا العمل هو أن حاصل جمع عناصر المجموعة مستقل عن الترتيب، وبالتالي أن نتيجة عملية الجمع والضم، مستقلة عن نتائج عملية التصفيف أو الترتيب. ويرتكز المنطق والرياضيات برمتهما على أفعال من هذا النوع، مع أن تلك الأفعال تزداد تعقيدا. والسبب في أن هذه المعارف قابلة لأن تترجم لاحقا الى رموز ولغة، وهو بالتحديد كونها مستمدة من الأفعال وليس من الأشياء. وبالفعل فإن اللغة لاتعين الأشياء فقط، بل أنها تعين أيضا أفعال الذات وإجراءاتها. وبدون هذه الذات التي تغافلت النزعة المنطقية ــ التجريبية عن وجودها، لا يمكن أن تقوم للمنطق ولا للرياضيات أية قائمة، إذ لن يكون بدونها لنظام الرموز أي معنى ولو في الحدود الوصفية والتجريبية.

إن أصل البنيات المنطقية ــ الرياضية المنطلق من أفعال وعمليات الذات، يؤدي إلى فهم العلاقات بين هذه البنيات واللغة فهما مخالفا تماما للنظرة الاسمية، رغم أن الفرق قد يبدو دقيقا. ففي المنظور الوضعي ــ المنطقي، هناك أولا لغة تصف الأشياء مباشرة، ثم يأتي تداول الرموز المنطوقة والتصرف فيها فيؤسس البنيات المنطقية ــ الرياضية. لكن الحقيقة أن ثمة في المنطلق أفعال الذات، تلك الأفعال التي تتضمن تنسيقاتها أشكالا منطقية. ثم تُستوعَبُ هذه التنسيقات داخليا فتكوِّن العمليات عندما تطبق على الأشياء الممثلة رمزيا. وإن صح أن قواعد تداول الرموز تشكل منطقا فذلك لأن العمليات اللغوية ــ المنطقية تمثل إمتدادا للأفعال التي تمارسها الذات عمليا على الأشياء. فتداول الرموز ليس هو أيضا سوى القيام بإجراءات وعمليات وتحويلات على الأشياء، لكن رمزيا. ولولا الذات القادرة على إجراء هذه العمليات كما تعلمت تنفيذها أول الأمر مباشرة على الأشياء الملموسة، لما كانت اللغة سوى نسخة صوتية فخمة لعالم الظاهرات وحدها.

غير أن التمييز بين المعارف الفيزيائية والمعارف المنطقية ــ الرياضية، وهو التمييز القائم على أساس [الفرق بين] التجريد إنطلاقا من الأشياء ذاتها، والتجريد إنطلاقا من

الأفعال الممارسة على الأشياء، لا يطابق التمييز بين الروابط التركيبية، والروابط التحليلية. وكما أنه لايستلزم أي تعارض جذري بين هذين النوعين من الروابط. ذلك أن هذا التعارض لم يكن بديهيا إلا حين كان من الجائز ربط الجانب التركيبي بالادراك، وربط الجانب

التحليلي باللغة وحدها. وقد بات واضحا أن للحقيقة المنطقية — الرياضية في بدايتها طابع تركيبي، وذلك حتى في المجالات التي تكتسب فيها، بفعل الصياغة الصورية، وفي بعض النقط طابعا تحليليا، كما تبين ذلك من أعمال فريق من الباحثين من خلال بحث تكويني مفصل(*). ذلك الطابع التركيبي الذي تتسم به الحقيقة الرياضية المنطقية في المنطلق، يجد تفسيره في كون العلاقات المنطقية — الرياضية تستمد من التنسيقات العامة للأفعال من خلال تجارب خصوصية ومميزة تقترن بالتجربة إنطلاقا من هذه الأفعال والتنسيقات، وليس من الأشياء ذاتها.

(*) Apostel, Mays, Morf et Piaget: les liaisons analytiques et synthetique dans le comportement du sujet, P.U.F. 1957) (من مبحث حول ''مناهج علم المعرفة ' '، ضمن مجلد ''المنطق والمعرفة العلمية ' '، سلسلة لابلياد، نشر كاليمار، ص 97 الى ص 99)

الملحق 3 — موضوعات حول فيورباخ (كارل ماركس)

صيغت في بروكسيل سنة 1945، إعتمدت الترجمة على النص الملحق بكتاب إنجلز لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية، المنشورات الاجتماعية — 1970)

1 — إن العيب الرئيسي لكل المادية السابقة، — بما في ذلك مادية فيورباخ — هو أنها لا تتناول الموضوع، أو الواقع، أو العالم المحسوس إلا في صورة شيء، أو حدس، وليس كنشاط إنساني ملموس، كممارسة، بصفة غير ذاتية. هكذا نفسر لماذا طورت المثالية الجانب الفاعل، في تعارض مع المادية، لكن تجريديا فقط، فالمثالية لا تعرف بالطبع النشاط الفعلي، الملموس بما هو كذلك. ان فيورباخ يريد أشياء ملموسة، متميزة حقا عن موضوعات الفكر، بيد أنه لا يعتبر النشاط الانساني ذاته كفاعلية موضوعية. لذا لا يعتبر في [كتابه] جوهر المسيحية سوى النشاط النظري، كنشاط إنساني حقا، بينما لا يدرك الممارسة ولا يضبطها ذهنيا إلا في شكلها اليهودي المقيت. وهذا هو السبب في كونه لا يفهم أهمية النشاط «الثوري» النشاط «العملي — النقدي».

2 — ان مسألة البت في قدرة المعرفة البشرية على التوصل إلى حقيقة موضوعية، ليست مسألة نظرية، وإنما مسألة عملية. فعلى الانسان إثبات الحقيقة في التطبيق، عليه إثبات قوة وواقعية فكره وسنده الخلفي، (en-deÇa)، ان النقاش بمعزل عن الممارسة العملية حول واقعية أو لا واقعية الفكر هو محض سفسطة.

3 — إن المذهب المادي القائل إن الناس نتاج الظروف والتربية، وأنه إذا تغير البشر فبفعل ظروف أخرى وتربية أخرى، ينسى أن البشر بالتحديد هم الذين يغيرون الأحوال

وأن المربي نفسه في حاجة لأن يُربّى. هذا هو السبب في أن هذا المذهب يتجه حتما إلى تقسيم المجتمع إلى شطرين يعلو أحدهما على المجتمع (عند روبر اوين مثلا).

إن التطابق بين تغير الظروف وتغير الممارسة الانسانية لا يمكن تناوله وفهمه عقليا إلا من حيث هو ممارسة ثورية.

4 ـ ينطلق فيورباخ من حقيقة أن الدين يجعل الانسان مغتربا عن نفسه، ويقسم العالم إلى شطرين : عالم ديني يشكل موضوع التمثل، وعالم واقعي. ويحدد فيورباخ عمله في حل العالم الديني وإرجاعه إلى قاعدته المادية. ولم ينتبه إلى أنه، بعد إتمام هذا العمل يبقى الأهم مطلوباً إنجازه. ذلك أن حقيقة إنسلاخ القاعدة المادية عن نفسها والتصاقها بالسحاب، مكونة هكذا مملكة مستقلة، لا يمكن أن تجد تفسيرها إلا في تمزق هذه القاعدة المادية وتناقضاتها الداخلية. يلزم إذن في أول الأمر فهم هذه القاعدة بتناقضها الداخلي من أجل تثويرها بعد ذلك بإزالة التناقض. ومن ثم، فبعدما يكتشف مثلا أن العائلة الارضية هي سر العائلة المقدسة يصبح من اللازم عندئذ نقد الاولى نظريا وتثويرها عمليا.

5 ـ إن فيورباخ الذي لا يرضيه الفكر المجرد يستنجد بالحدس الحسي. لكنه لا يعتبر العالم المحسوس من حيث هو نشاط بشري عملي، ملموس.

6 ـ يحل فيورباخ الجوهر الديني في الماهية الانسانية. بيد أن الماهية الانسانية ليست تجريدا يرتبط باطنيا بالفرد المعزول، إنها في حقيقتها العلاقات الاجتماعية بمجملها.

إن فيورباخ الذي لا يقوم بنقد هذا الكائن الواقعي يجد نفسه مضطراً إلى ما يلي :

1) صرف النظر عن مجرى التاريخ، وتحويل الروح الدينية إلى شيء ثابت، غير قابل للتبدل، موجود لذاته، مع إفتراض فرد إنساني مجرد ومعزول.

2)ومن ثم إعتبار الكائن الانساني من حيث هو «نوع» فقط، من حيث هو عمومية باطنية، خرساء، تجمع بصفة طبيعية صرفة تعدد الافراد.

7 ـ هذا هو السبب في أن فيورباخ لا يرى أن «الروح الدينية» هي أيضا نتاج إجتماعي، وأن الفرد المجرد الذي يحلله ينتمي في واقع الامر إلى شكل إجتماعي معين.

8 ـ إن الحياة الاجتماعية عملية جوهريا. وكل الطلاسم التي تنحرف بالنظرية بإتجاه الصوفية تجد حلها المعقول في الممارسة الانسانية وفي فهم هذه الممارسة.

9 ـ ان أعلى نقطة تتوصل إليها المادية الحدسية، أي المادية التي لا تعتبر العالم المادي من حيث هو نشاط عملي، هي النظر الى أفراد «المجتمع البورجوازي» كأفراد معزولين عن بعضهم البعض.

10 ــ إن وجهة نظر المادية القديمة هي المجتمع البورجوازي. أما وجهة نظر المادية الجديدة فهي المجتمع الانساني، أو البشرية التي تم طابعها الاجتماعي.

11 ــ لم يفعل الفلاسفة سوى تأويل العالم بطرق مختلفة. لكن المهم هو تغييره

ملحوظة : إبتعدت الترجمة أعلاه في عدد لا بأس به من الصيغ عن الترجمة العربية الواردة في كتاب «الايديولوجية الالمانية»، نشر «مصادر الاشتراكية العلمية»، دار دمشق، (للمترجم السيد الدكتور فؤاد أيوب). والسبب في ذلك إبتعاد النص العربي المذكور عن مقاصد الموضوعات في أكثر من صياغة، وكذلك إتسامه في بعض المواضيع بالركاكة. يكفي مثلا على ذلك : قوله في آخر الموضوعة الثانية : «إن الجدال بشأن واقعية أو لا واقعية فكر ينعزل عن الممارسة مسألة مدرسية صرفة» مقابل النص الفرنسي الذي تصح ترجمته كما يلي «ان النقاش بمعزل عن الممارسة العملية، حول واقعية أو لا واقعية الفكر هو محض سفسطة».

يبدو أن الدكتور المترجم أغفل دور الفواصل في بنية النصوص، فارجع «منعزل» على الفكر، بينما يرجع في الحقيقة على النقاش، فكانت النتيجة أن ماركس يدعي حسب هذه الترجمة أن من السفسطة البحث في واقعية أولا أو لا واقعية فكر ينعزل عن الممارسة، والحال أن مثل هذا الفكر بالذات هو الذي قد يسهل دحضه بالذات على مستوى الفكر نفسه ما دام أصلا عديم الارتباط بالممارسة. من الواضح أن قصد ماركس هو رفض النقاش المجرد حول إمكانية أو عدم إمكانية التوصل إلى الحقيقة بالفكر، على إعتبار المعيار الحاسم هو الممارسة العملية في كل الأحوال، سواء بالنسبة للفكر الذي يدعي العلو على الممارسة أو بالنسبة للفكر الذي يدعي الالتصاق بها والوفاء الشديد لها.

(*) نقل النص الى العربية : **توفيق السعيدي** (كل الجمل الموضوعة بين معقوفتين هي من وضع المترجم).

هادي العلوي

حدود التعذيب في الاسلام

(بين المبدأ والتطبيق)

في الاصطلاح :

التعذيب اشتقاق حديث تقابله ثلاثة اصطلاحات قديمة : العذاب والبسط والمثلة. وقد استعمل الاولان في العصور الاسلامية بمعنى واحد يشير الى ايلام الاسير او المتهم على سبيل الانتقام أو الحصول منه على الاعتراف بشيء ما. والبسط يتعدى بعبارة (عليه) وهو بهذا المعنى مستعمل في دارجة بغداد ولكن متعديا بنفسه فيقال : بسطه، بمعنى ضربه، والمبسوط هو المضروب، خلافا للمراد منه في اللهجات العربية الاخرى حيث يعني المبسوط المستريح والمسرور، وهو اشتقاق من الانبساط بمعنى الانشراح. اما المُثْلة فهي تشويه الشخص حيا او ميتا..

يرد العذاب في القرآن عند وصف العقاب الاخروي الذي يعم بتعريض اهل النار لصنوف من العقوبات وصفت في القرآن والحديث . وما يعدده القرآن من هذه العقوبات ينطوي اصطلاحا تحت طائلة التعذيب ومنه : التحريق، الشي بانضاج الجلود، التجويع والتعطيش، سقي الصديد وهو القيح وسقي المُهْل اي المعادن المذابة . ولم تتضمن هذه العقوبات شيئا ينفذ بالسلاح . وفي الحديث صنوف اخرى من التعذيب في الآخرة ترد على سبيل التغليظ والكثير منها مشكوك في نسبته، منها تسليط الافاعي على المخالفين لسعاً وتطويقا للاجساد والرقاب، والقذف في وديان نارية غائرة يستغرق الوصول الى قعرها سبعين خريفا، وصب الرصاص في الاذن .. ومن العقوبات الغريْبة ما هدد به المسرفون في البناء حيث قيل من بنى بناء فوق ما يكفيه جاء يوم القيامة يحمله ؛ أي يحمل على رأسه قصره الذي بناه للتوسع والمباهاة ...

اغراض التعذيب وضحاياه :

استخدم التعذيب في العصور الاسلامية المختلفة لاغراض شتى سنقسمها لغرض الدراسة قسمين عريضين :

1 ــ تعذيب لاغراض سياسية

2 ــ تعذيب لاغراض اخرى

التعذيب السياسي

إن التعذيب لغرض سياسي هو الاسبق ظهورا في الدولة. ويرتبط ذلك بظاهرة الصراع الطبقي الذي تتولى الدولة إدارته من خلال دورها الشرقي المباشر في سيرورة الانتاج الاجتماعي، أو من خلال دورها الاورثي في التعبير عن حاجات الطبقة السائدة في المجتمع. واحدى الوسائل الاساسية في ادارة الصراع الطبقي هو القمع بأشكاله المختلفة. ويتوجه القمع أساسا ضد الطبقات المنتجة مستهدفا غرضين: ادامة الانتاج ومنع المنتجين من الوصول الى السلطة. وبوجه عام، تلجأ الى القمع السياسي الحكومات التي لا تملك قاعدة شعبية تكفيها لتثبيت حكمها. واعتماد وسائل التعذيب في هذه الحالة يخطط له كوسيلة معوضة عن عزلة الحكام بقصد توفير الرادع الذي يمنع المقت الشعبي من ان يتحول الى تحرك يهدد سلطة الحاكم. اول تطبيق لهذا النوع من التعذيب يرجع الى خلافة معاوية بن أبي سفيان. وكان معاوية يملك قاعدة شعبية متينة في الشام ساعدته على ان يشتهر بالحلم المأثور عنه، لكن استقلاله بالسلطة بعد تنازل الحسن بن علي أثار في وجهه عدة إشكالات منها:

- موقف جمهور المسلمين الذين اعتادوا حكم الخلفاء المقيد بالشرع والذي تجاوزه معاوية بعد ان أقام سلطته الفردية المطلقة.
- موقف العرب الذين لم يتعودوا الخضوع لسلطة، لاسيما سلطة مستبدة.
- معارضة أهل العراق المتمسكين بالولاء لعلي بن أبي طالب واولاده.

والمواقف الثلاثة متكاملة متداخلة لان الرفض العراقي لمعاوية يرتبط من جهة بالتقاليد البدوية المناوئة للاستبداد ومن جهة اخرى باسلوب الحكم الاسلامي المستند الى مبدأ سيادة الشريعة. ومن هنا كان أهل العراق مركز النشاط المعارض للحكم الأموي الجديد. ورغم أن معاوية اشترى ولاء العديد من الزعامات القبلية في هذا الاقليم الخطر فانه لم يستطع السيطرة على المعارضة التي تحركت احيانا خارج اطار القبيلة. وقد لجأ اول الامر الى المداراة فولى المغيرة بن شعبة، احد دهاة العرب، حكم البلاد. لكن دهاء المغيرة لم يكن ناجحا في تخفيف حدة المعارضة فعزله بوال آخر من طراز جديد، هو زياد بن ابيه. وكان قد نجح في استدراج زياد مستفيدا من عقدة النسب وجمع له ولايتي الكوفة والبصرة اللتين يتألف منهما اقليم العراق آنذاك. وقد اظهر زياد مواهب ارهابية نادرة في صدر الاسلام وصار قدوة لمن بعده من الولاة والحكام المسلمين. وهو مشرع لعدة امور سارت عليها السلطة الاسلامية فيما بعد، منها القتل الكيفي وكان يعرف عندهم بالقتل على التهمة او على الظن، وقتل البريء لاخافة المذنب، وقد طبقه على فلاح خرج ليلا للبحث عن بقرته الضائعة خلافا لقراره بمنع التجول في الليل، وقتل النساء، وهو غير مألوف عند العرب. ويخبرنا الطبري[1] أن وكيل زياد على البصرة وهو الصحابي سَمُرَة بن جُنْدُب أعدم ثمانية آلاف من أهلها تطبيقا لمبدأ زياد في القتل على التهمة. ويروي السمعاني في الانساب أن زياد أمر بقطع لسان رشيد الهَجَري وصلبه لأنه تكلم بالرجعة[2] والحكم بقطع اللسان تطوير مبكر لفن التعذيب يدل على السرعة التي تقدمت بها دولة الاسلام في طريق تكاملها كمؤسسة قمعية.

يروى عن عمر بن عبد العزيز انه قال: تشبه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس. ومناط الشبه هو شدة عمر التي إستوحاها زياد في حكم العراق. ومن المعروف

مع ذلك ان شدة عمر لم تقترن بحالات قتل كيفي، او تعذيب، وأنما كانت درجة من الحزم والضبط جعلته مهيبا في عيون الناس. ومناط الافراط هو أن شدة عمر تحولت عند زياد الى إرهاب دموي إستوحاه الحجاج ومضى فيه الى مداه الابعد. والحجاج نسخة منطرفة من زياد وعلى يده أصبح الارهاب حالة يومية شاملة يعيشها الناس على إختلاف فئاتهم ولمختلف الاسباب من سياسية واعتيادية. وقد انشأ سجن الديماس المشهور وكان عدد من فيه عند وفاته، حسب رواية للمسعودي في « مروج الذهب » خمسين الف رجل وعدة ألوف من النساء. وكان التعذيب يطبق على الاسرى والمعتقلين تبعا لحالاتهم ضمن سياسة الارهاب التي أتبعها الحجاج لقمع المعارضة ضد الخليفة الاموي. لكن الشكل السائد لارهاب الحجاج كان القتل الكيفي بوسيلته الشائعة وهو قطع الرأس بالسيف. وقد أضاف الحجاج الصلب بعد القتل للاشخاص الذين لهم وزن خاص في حركة المعارضة، وكان من ضحايا هذا الاجراء ميثم التمار، من اصحاب علي بن أبي طالب المقربين.

استمرت سياسة التعذيب لاجل الارهاب بعد استراحة قصيرة في خلافة عمر بن عبد العزيز، لتأخذ مدى جديدا على يد هشام بن عبد الملك في الشام وولاته على الاقاليم. وقد طبق هشام بنفسه طريقة القتل بقطع الايدي والارجل في بعض الحالات المشددة ومنها إعدام غيلان بن مسلم الدمشقي بتهمة القول بالقدر. وبنفس التهمة أعدم خالد القَسْري عامله على العراق الجعد بن درهم. وقد نفذ الاعدام ذبحا. ولاعدام هذين الرجلين ملابسات سياسية معروفة في تاريخ القدرية والمعتزلة(). وكان خالد القَسْري قبل ولايه العراق واليا على الحجاز وأصدر حينذاك تحذيرا لمن يطعن بالخليفة أن يصلبه في الحرم، أي في داخل البيت الحرام. ومن المعروف أن الشريعة حرمت قتل الحيوان في هذا المسجد واختلف الفقهاء فيما اذا كان يجوز قتل الافاعي والعقارب فيه..

وطبق شقيقه اسد حاكم خراسان طريقة قطع الايدي والارجل والصلب على اتباع الحارث بن سريج الثائر على الامويين في المشرق[4]. ولدينا رواية في الطبري تفيد ان الاحراق استخدم في خلافة هشام لاعدام داعية من غلاة الشيعة هو المغيرة بن سعيد العجلي، وكان قد خرج على الدولة في ظاهر الكوفة أيام ولاية خالد القسري.

كانت خلافة هشام صحوة الموت للامويين، وقد ورثه خلفاء قصار العمر وسط اضطرابات متلاحقة انتهت بالثورة العباسية التي قضت على مروان بن محمد اخر خلفائهم، وبويع للسفاح كاول خليفة عباسي(*). وقد واصل العباسيون تراث أسلافهم الامويين واضافوا اليه. ويذكر الطبري[5] ان عدد من أعدمهم ابو مسلم الخرساني في المشرق بلغ ستمائة الف بين رجل وامراة وغلام. وكان ابراهيم الامام، زعيم الدعوة، قد كتب اليه يأمره بقتل أي غلام يبلغ خمسة أشبار إذا شك في ولائه[6].

وقد واجه العباسيون، بدءاً من خليفتهم الثاني ابو جعفر المنصور، معارضة متنامية من

( )يبدي الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (الامام زيد وعصره) رأي ظريف يعلق فيه [illegible] على الثائر على هشام [illegible] فيقول أنها كانت مشيئة الله ان لا ينتهي حكم الامويين بأيدي رحيمة فلا يعوقهم فسقطهم من العقاب على ما اقترفوه من [illegible] ثم فسقطوا بأيدي الناس من طرازهما وبصرف النظر عن غائية الشيخ أبو زهرة فإن فكرة الخواء في التاريخ قد مرت على [illegible] فيلسوف العصر كارل ماركس. انظر تعليقه على تمرد الهنود ضد الانكليز المنشور في مجموعة « في الاستعمار » ترجمة فؤاد ايوب ـــ دار دمشق ص 176

نفس الجماعات التي عارضت الامويين: الشيعة والخوارج والمعتزلة، ومن فرق اخرى فيما بعد ضمت الاسماعيلية بلواحقها وفروعها المختلفة، والخُرّمية والزنج، فضلا عن المنافسين للخلفاء والخارجين عليهم طمعا في السلطان، واتبعوا لقمعها نفس الاساليب ولكن بعد تطويرها لمضاهاة التصاعد في اشكال المعارضة المسلحة. ولدينا روايات في « مقاتل الطالب » تفيد أن المنصور قتل بعض العلويين بدفنهم أحياء في اساسات المباني[7]. وتطور القتل بالتقطيع الى زيادة في عدد الاوصال المقطعة، فبعد أن كانت الايدي والارجل تقطع دفعة واحدة صارت تقطع الى عدة أوصال ويضم اليها اجزاء أخرى من الجسم. وقد أبلغها الرشيد الى أربع عشرة قطعة، مع تطوير في الوسيلة تضمنت استعمال مدية غير حادة بدلا من السيف[8]. وبلغ القتل تحت التعذيب اشنع حالاته بعد الحقبة العباسية الاولى. ويرتبط ذلك بتعقد الوضع الطبقي للمجتمع العربي الذي عانى مع ظهور الاسلام مخاضات التدرج من البداوة الى الحضارة واستكملها في غضون القرن الاول للحكم العباسي حيث اقترن تبلور الدولة بانطلاق البائن مع بقايا المثل البدوية. وهكذا جاءت ذروة النمو الطبقي متوازية مع حالة القمع المتفلت من الضوابط، وهو ما يفسر تبعا لنفس المعيار حدية الثورة الاجتماعية لدى القرامطة، الذين ظهروا في هذه الحقبة، بالقياس الى فرق المعارضة التي سبقتها.

وقد سارت الدويلات المنشقة على نهج الخلافة العباسية لوجودها في نفس المرحلة. وكان الامراء المتغلبون في المشرق نماذج مصغرة للخليفة العباسي في التعامل مع خصومهم السياسيين. وهو ما نجده ايضاً في الاندلس، لاسيما في ابان الصراع بين ملوك الطوائف. ومن الجدير بالذكر هنا ان التعذيب السياسي ظل مقتصرا على الصراع الداخلي دون العلاقات الخارجية الا في النادر. وكان هناك تمييز ملحوظ في المعاملة بين أسرى الحرب من الكفار وأسرى الحرب من المسلمين. وكان الاسير الكافر يسترق او يفادى او يقتل بالوسائل الاعتيادية تبعا لاحكام الشريعة في اسرى الحرب ولم تجر العادة على قتله تحت التعذيب.

التعذيب لاغراض اخرى

قلنا ان التعذيب السياسي هو أسبق ظهورا في الدولة وانه موجه في الاساس ضد الطبقات المنتجة لصالح الطبقة، او الطبقات السائدة. على ان الصراع الطبقي لا يتحدد في الواقع بهاتين الجبهتين العريضتين وانما يسلك طريقه ايضا الى داخل الطبقة السائدة آخذا شكل الصراع على الاستئثار بثمار عمل المنتجين. ومع نشوء حافز السلطة كقيمة مستقلة نسبيا عن وظيفة الدولة الاجتماعية يظهر صراع آخر يتمثل في التنافس على الاستئثار بالمزايا التي توفرها قيادة الدولة. وتختلف هذه المزايا عن المزايا الطبقية في كونها ناشئة عن السلطة كمؤسسة لها خصوصيتها ضمن المجتمع الطبقي وهي خصوصية ناشئة بدورها عن امتلاك اداة للقمع والتمتع بالقدرة على توجيه الآخرين وبتسيير المجتمع في اطاره التاريخي المحدد. وبناء على تعدد جبهات الصراع، تتعدد حوافز القمع فتخرج به عن محض الغرض السياسي ليصبح جزءا من السلوك اليومي للحاكم، اي « نزوعا » يتعامل به مع سائر فئات المجتمع على اختلاف مواقعها من الخارطة السياسية للدولة. ويحدث احياناً ان تتظاهر هذه النزعة في شكل من العصاب الذي اشتهر به الامبراطور الروماني نيرون، وظهر في العصر الحديث لدى هتلر وبعض الحكام العرب. وسنجد في تاريخنا الاسلامي اصابات من هذا القبيل يتفق ظهورها مع

استشراء القمع السياسي. وقد وجدت حالات تعذيب في وقت مبكر يتصل بصدر الاسلام استهدفت امورا غير سياسية لكنها بقيت ممارسات معزولة حتى نهاية الامويين حيث تفاقمت النزعة مع تفاقم التعذيب السياسي على يد العباسيين الاوائل منتهية الى نشوء التعذيب غير السياسي كاتجاه سائد. ويشمل التعذيب في هذا المنحى:

ــ التعذيب للاعتراف

ــ التعذيب للجباية

ــ التعذيب للعقوبة

ــ تعذيب المقابلة بالمثل

التعذيب للاعتراف، يستهدف انتزاع الاعترافات من المتهم في القضايا العادية كالقتل الشخصي والسرقة. وقد تطرق اليه ابو يوسف في كتاب الخراج وتشكى منه بمرارة مما يدل على انتشاره خلال الحقبة العباسية الاولى. والشكل المعتاد لذلك هوضرب المتهم باليد او بالهراوة او السوط. وبالنظر لعدم مساس هذه الجرائم بأمن الدولة والمصالح المباشرة للطبقة الحاكمة، لم تستخدم فيها اساليب خارقة للعادة كالتي استعملت في التعذيب السياسي، رغم انها عكست في ظهورها كحالة متكررة قوة النزعة وشمولها. ولعل مما خفف الاندفاع فيه اختصاص القضاة بالنظر في هذه الجرائم بشيء من الاستقلال عن الدولة. ومن شأن القضاة التحرج ــ كفقهاء ــ عن مخالفة الشريعة مالم يتعرضوا لضغوط من ارباب السلطة او يخضعوا لاعتبارات شخصية معينة.

التعذيب للجناية، وُجّهَ لاستحصال الخراج او الجزية من الفلاحين واهل الذمة. وتشير رواية لهشام بن حكم بن حِزام سنفصلها فيما بعد الى ظهور هذه الممارسة ايام الصحابة، لان هشام صحابي ولكن دون تعيين ما إذا كانت قد حصلت في زمن خليفة راشد او اموى. على أية حال فان تعذيب الخاضعين للضريبة قد تفاقم على يد الامويين بتاثير قوة الداعي اليه وهو الحصول على المال مع شيوع الامتناع عن الدفع بنتيجة سياسية الافقار التي أتبعها الامويون ضد مجمل السكان. وترجع الكثير من وقائع التعذيب لهذا الغرض الى زمن الحجاج، الذي ربطت بعض الروايات بين شدة بطشه وتضاؤل حصيلة الخراج في ايامه[9]. وهناك مايدل على ان التعذيب اصبح قاعدة متبعة في الجباية، وهو ماكان يعنيه ابو حمزة الخارجي في خطبة القاها بالمدينة اثر احتلال قصير الامد لها عام 128 حين قال مشيرا الى الخليفة الاموي[10]:

« لبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على اهلهما بالف دينار، قد اخذت ــ اي الدنانير ــ من غير حلها وصرفت في غير وجهها بعد ان ضربت فيها الابشار وحلقت فيها الاشعار ». الابشار ــ الجلود.

يقصد ابو حمزة جلد الخاضعين للجزية والخراج وحلق شعرهم لارغامهم على الدفع. وقد اصدر عمر بن عبد العزيز عند استخلافه تعليمات مشددة لعلاج هذا الوضع تضمنت النهي عن كل صنوف التعذيب ولأي غرض. ويبدو انه حقق بعض النجاح في وقف موجة التعذيب لكن رحيله العاجل بعد اقل من ثلاث سنوات اعاد الامور الى نصابها السابق.

وتدلنا رواية لليعقوبي على استمرار هذه الاساليب حتى عهد الرشيد حيث ذكر ان الفُضيل بن عياض، المحدث الزاهد، رأى اناسا يعذبون في الخراج فاستنكره بالاستناد الى حديث نبوي في النهي عن التعذيب. وتذكر الرواية ان الرشيد لما بلغه ذلك امر برفع العذاب عن الناس. وارتفع العذاب من تلك السنة[11]. والعذاب الذي رفعه الرشيد هو عذاب الجباية وليس غيره، وقد مر بنا انه مارس التعذيب السياسي، ولاشك في انه استؤنف بعد الرشيد، مع افتراض التقيد بالمنع في حياته.

من قبيل تعذيب الجباية تعذيب عمال الخراج الذين يتهمون بالاختلاس وهو أمر مألوف في الوظائف المالية، وكان المتورطون فيه من كافة المراتب: الوزير فرئيس الديوان فالموظفين. وكان من الشائع ان يسطو الوزير او رئيس الديوان على قدر من الاموال التي تحت يديه بعلم خليفته او سلطانه، لكن حسابه يؤجل الى ما بعد العزل، الذي غالبا ما يقترن باستجواب لاجل المصادرة يتضمن التعذيب في حالة الانكار. اما الموظفون فهم عرضة للاستجواب في كل وقت. وتشتد وقائع الاختلاس، وما يتبعه من التعذيب، حين تكون الدولة في حالة انحلال او فساد عام وهذا هو السبب في استشرائه بعد الحقبة العباسية الاولى حيث سيطر المتغلبون على الخلافة منذ مقتل المتوكل وتجزأت الدولة الى دويلات. وقد استخدمت لتعذيب المختلسين وسائل واساليب يحتمل ان تكون مكرسة لهذا الغرض منها التنور الذي ابتكره وزير الواثق محمد بن عبد المالك الزيات، وسنصفه لاحقا. وقد استمر التعذيب دون ان يتوقف الاختلاس، فكان هناك على الدوام مختلسون من مختلف المراتب ومعذبون بتهمة الاختلاس، حتى نهاية العصر العباسي.

التعذيب على سبيل العقوبة تتضمنه بعض مواد العقوبات المنصوص عليها في الشريعة، وهي الجلد للسكران والزاني غير المحصن والمحكوم بالقذف، والرجم للزاني المحصن، وقطع يد السارق، وقطع ايدي وارجل قطاع الطرق وصلبهم. ويصح على هذه العقوبات اسم التعذيب من جهة كونها وسائل لايلام المحكوم سواء كانت خفيفة نسبياً كالجلد او شديدة كالرجم وقطع الاوصال، وهو مايميزها عن العقوبة الاعتيادية بالسجن الذي تفترض القوانين الحديثة عدم اقترانه بايلام السجين الا في الجرائم المعاقب عليها بالاشغال الشاقة. ومن الناحية العملية، لم يستخدم الرجم الا نادرا، بخلاف الجلد والقطع والصلب التي استمرت في مختلف الازمان. على ان عقوبات التعذيب لم تتحدد بالشرع وانما امتدت الى جرائم عادية اخرى رغم التشديد في النهي عن تجاوز الحدود المقررة. وتتصل بعض هذه الخروقات بايام النبي محمد نفسه حيث اعدمت امرأة بأمر زيد بن حارثة بربطها الى فرسين جريا بها لأنها كانت تهجو النبي[12] ولم تذكر المصادر ما إذا كان ذلك قد تم بعلمه. وقد مد الحكام المسلمون هذه العقوبات إلى مخالفات أخرى كجرائم الفكر والسرقة، كما استخدموها للتأديب والانتقام الشخصي. وشملت عقوبة التعذيب كذلك حالات القصاص، وهو بحسب الشرع، الاعدام بقطع الرأس في قتل العمد، لكنه تجاوز هذا الحد في القصاص السياسي، ومن امثلته تعذيب عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب، وتعذيب الخادم الذي قتل أبو سعيد الجنّابي مؤسس الحكم القرمطي في شرقي الجزيرة العربية .

تعذيب المقابلة بالمثل ورد عن النبي محمد في حادث العرنيين وكان هؤلاء قد استولوا

على ابل للنبي وقتلوا راعيها النوبي، قطعوا يديه ورجليه وغرزوا الشوك في عينيه ولسانه حتى مات. فارسل النبي في طلبهم فادركوا فقطع ايديهم وارجلهم وسمل اعينهم والقاهم في الشمس حتى ماتوا[13]. وتقر الشريعة هذا الشكل من العقوبة في القصاص، وهو مبدأ مستمد عبر التوراة من قانون حمورابي. ويوفر مبدأ المقابلة بالمثل عذرا شرعيا للتعذيب ولذلك فهو يفترض سلطة مقيدة بالقانون. وهذا هو السبب في اننا لانجد له اثرا في سلوك الحكام المسلمين، الذين لم يكونوا في حاجة الى الاعتذار عن سياستهم باقامتها على اساس الشريعة.

ظهر التعذيب ايضا في معاقبة الهاربين من الجيش منذ الفتوحات الاولى. وكانت العقوبة ايام الراشدين هي التعزير وتتم باقامة الهارب حاسرا في مكان عام للتشهير به. وقد اضاف مصعب بن الزبير، في العراق، الى نزع العمامة حلق الرأس واللحية. وفي ولاية بشرين مروان — شقيق عبد الملك — للعراق فرض التعذيب الجسدي فكان الهارب يرفع عن القاع ويسمر في يديه مسماران في حائط — على طريقة صلب المسيح — ويترك لشأنه، فربما بقي معلقا حتى يموت وربما خرق المسمار كفه فسلم[14].

ان مصدر التعذيب في الحالات الموصوفة آنفا هو الدولة وضحاياه هم عامة الناس. وهو امر مفهوم ما دام القادر على التعذيب هو المالك لاجهزة الدولة. ولدينا مع ذلك استثناء هام كان فيه ضحايا التعذيب هم الحكام انفسهم. جرى ذلك في اوان التغلب الذي فرضه العسكريون الاتراك على الخلفاء العباسيين بعد المتوكل، وقد ظهرت حينذاك طريقة سمل العيون لارغام الخليفة غير المرغوب فيه على التنازل. ويهدف السمل الى حرمان الخليفة من احد شروط الاستخلاف وهو سلامة الجسد حيث يصبح بعد ان يفقد احدى عينيه او كلتيهما في حكم المنخلع. وكان ذلك يتم بهجوم مباغت يدبره المتغلب ضد الخليفة يقوم المهاجمون خلاله بسمل عينيه او احديهما. وقد يكون التدبير خفيا بحيث يسجل الهجوم على ملاك الاعتداء من عناصر غير منضبطة، او مباشر بحكم السلطة الفعلية التي يتمتع بها المتغلب. وفي كلتا الحالتين يسقط اسم الخلافة عن الخليفة القائم ويستبدل به غيره. وكان السبب في ذلك عدم قدرة المتغلبين على خلع الخليفة دون مبرر شرعي لانه قد يثير مقاومة الخليفة ويظهرهم للناس مستهترين اكثر مما ينبغي.

فنون التعذيب وابطاله

لم يكن التعذيب مألوفا في الجاهلية بالنظر لقيم البداوة المناهضة للتنكيل. وقد ظهرت منه بوادر في المدن التجارية وجهت رئيسياً ضد العبيد. وفي بداية الدعوة الاسلامية بمكة وجد تجار قريش حاجة لارهاب عبيدهم ومواليهم الذين اسلموا فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام. وكانت وسيلتهم في ذلك هي التشميس الذي يعتمد على شمس الجزيرة الحارقة. فكانوا يكتفون الضحية ويلقونه في الشمس بعد الباسه ادراع الحديد او وضع جندلة على ظهره او صدره ويترك على هذا الحال ساعات غير محدودة قد تستمر ما دامت شمس النهار في عنفوانها. وقد ظهر التشميس ايضا في صدر الاسلام لتعذيب الممتنعين عن دفع الخراج. ويتفاوت مفعول هذه الوسيلة تبعا لشدة حرارة الشمس، فهي في العراق والجزيرة اوجع للضحية، وفي بلاد الشام أقل ايلاما.

إن التشميس هو أقدم وسائل التعذيب وهو وسيلة مشتركة بين الجاهلية والاسلام. ونبدأ الآن بعرض مفصل للوسائل التي ظهرت في الاسلام.

حمل الرؤوس المقطوعة :

وتدخل في باب المثلة بالميت. وقد بدأها الامويين في زمان معاوية . ويقال ان اول رأس حمل في الاسلام هو رأس عمر بن الحَمِق، احد اتباع علي ابن ابي طالب، وقد قتله زياد ابن ابيه. ومن الحوادث المشهورة في هذا الباب حمل رؤوس الحسين واصحابه بعد معركة كربلاء. وقد نبتت الرؤوس على الرماح وسير بها من كربلاء الى الكوفة حيث قدمت لحاكمها عبيد الله بن زياد. ثم استأنفوا السير بها الى دمشق لتقديمها الى الخليفة الاموي. ولم تتكرر هذه المثلة بكثرة ايام العباسيين، الا انها انتشرت في الاندلس ايام ملوك الطوائف، ومن المبرزين فيها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية الذي اقام في قصره حديقة لزرع الرؤوس المقطوعة. وكان المعتمد شاعرا.

الضرب والجلد :

باليد او السوط او الهراوة او المقرعة. وهو الشكل المعتاد في تعذيب الاعتراف، كما استعمل في التأديب والانتقام السياسي. والضرب باليد غالبا مايكون صفعا على القفا والوجنتين ولم يكن الغرض منه الايلام بقدر الاهانة. ويضرب بالهراوة على الكتفين والظهر والارداف. اما المقرعة فللرأس وهي اشد ايلاما من اليد والهراوة. ويمكن اعتبار المقرعة تطويرا للدرة ، وهي عصا خفيفة كان عمر بن الخطاب يحملها في تطوافه بالاسواق والدروب ويقرع بها المخالفين لتعليماته. وقد استبدل بها عثمان السوط، او العصا بحسب الروايات، وكان ذلك من اسباب الثورة عليه كما قيل.

اما الضرب بالسوط فهو الجلد، وينفذ في المضروب واقفا او مبطوحا، وقد يقنطر ويضرب، وهو ما اختاره والي المدينة لجلد مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي وكان قد افتى، كما في رواية لابن عبد البر في « الانتقاء »، بعدم شرعية البيعة للمنصور لانها اخذت بالاكراه، فامر الوالي بتأديبه، وتم ذلك برفعه من يديه ورجليه بعد ان قلبوه على وجهه وأخذوا بجلده على الظهر. وليس للاسواط مقدار معلوم الا في العقوبات الشرعية التي تضمنت حدا اعلى هو مئة جلدة لجريمة الزنا. لكن التحديد الشرعي لم يعمل به. وكان المقدار يتحدد تبعا لرغبة الآمر وربما استمر حتى الموت كما حدث لبشار بن برد الذي جلد بامر المهدي بعد ان هجاه. وغالبا ما يتم الجلد دفعة واحدة ولكن يحدث ان يقسط على دفعات، ومن امثلته جلد ابو حنيفة، مؤسس المذهب الحنفي، مئة سوط بامر حاكم العراق الاموي ــ عمر بن هُبيرة ــ لرفضه عرضا بالعمل في ادارته. وقد نفذ الحكم بالتقسيط وكل يوم عشرة اسواط. وكان الهدف من التقسيط اعطاءه فرصة للتراجع وقبول المنصب الذي عرض عليه[15].

تقطيع الاوصال :

ويشمل قطع اليدين والرجلين واللسان وصلم الاذن وجدع الانف وجَبُّ المذاكير (الاعضاء التناسلية للرجل). وقطع اليد الواحدة منصوص عليه في الشريعة عقوبة للسارق وكذلك قطع اليدين والرجلين وهو لقطاع الطرق. وقد توسع الحكام المسلمون بعد الراشدين في هذه الوسيلة دون التقيد بالجرائم المنصوص عليها وطبقت، رئيسيا، على الجرائم السياسية. وكان المقطوع يترك حتى يموت من تلقائه فإذا لم يمت قطعوا رأسه. واقدم مثال لهذه الطريقة هو قتل عبد الرحمن بن ملجم، قاتل علي بن ابي طالب، وقد اعدم ببتر يديه ورجليه و لسانه وسمل عينيه. ثم قطع رأسه[16]. والبتر هو الغالب من هذه الحالات، أما الصلم والجدع فنادرا ما يحصل. ولكن جب المذاكير كان في بعض الاحيان عقوبة يفرضها السيد على عبده اذا صدر منه فعل جنسي لا يرضاه السيد.

سلخ الجلود :

في رواية لابن الأثير[17] ان قائدا من الخوارج يدعى محمد بن عبادة اسر في أيام المعتضد بالله فسلخ جلده كما تسلخ الشاة. ونقل ابن الاثير حادثا اخر كان ضحيته احمد بن عبد المالك بن عطاش صاحب قلعة اصفهان الاسماعيلية. وكان السلاجقة قد حاصروا القلعة بقيادة السلطان محمد بن ملكشاه ثم افتتحوها واسروا صاحبها ابن العطاش. يقول ابن الاثير: فسلخ جلده فتجلد حتى مات، وحشي جلده[18]. والغرض من حشوه تبنا عرضه بعد ذلك للتشهير والتخويف. والسلخ من اشنع صنوف التعذيب ويستدعي الاقدام عليه نزعة سادية في غاية الافراط، ولذلك لم يتكرر كثيرا وانما اقتصر على المعتضد من العباسيين وبعض السلاطين الاتراك.

الاعدام حرقا :

فرضه ابو بكر على رجل مأبون يدعى الفُجاءة السُّلَمي. وكان قد نقل اليه انه « يؤتى من دبره كما تؤتى النساء » وهو من الأمور التي لم يتعودها عرب الجاهلية وصدر الاسلام. وورد في اخبار حروب الردة مايدل على أن ابا بكر ضمن تعليماته لقادة الجيوش التي ارسلها لمحاربة المرتدين اوامر بالاحراق. وقد روى الطبرى كتابين له في هذا المعنى كما نقل وقائع نفذت فيها اوامر ابوبكر[19]. ويخبرنا البلاذرى في « فتوح البلدان » ان خالد بن الوليد احرق بعض المرتدين بعد أسرهم وان اعتراضا من الصحابة قدم لابي بكر ضد هذا الاجراء، فردهم ابو بكر قائلا : لا أشيم سيفا سله الله على الكفار. يقصد خالد.

واستعمل بعض ولاة الامويين هذه العقوبة ضد الثائرين عليهم. وقد ذكرت آنفاً احراق المغيرة بن سعيد العِجْلي حيا بامر خالد القسرى حاكم العراق. وفي اوائل العباسيين اعدم الكاتب عبد الله بن المقفع حرقا بامر سفيان بن معاوية، احد ولاة المنصور[20]. وقد طور العباسيون في وقت لاحق هذا الفن الى شي الضحايا فوق نار هادئة. وهو ما فعله المعتضد بحق محمد بن الحسن المعروف بشَيْلَمة احد قادة الزنج في البصرة. وكان المعتضد قد أعطاه الامان ثم اكتشف أنه يواصل نشاطه السياسي سرا فأمر بنار فأوقدت ثم شد على خشبة من

خشب الخيم وادير على النار كما يدار الشواء حتى تقطع جلده ثم ضربت عنقه[21].

تعذيب متعدد الوسائل

تجمع هذه الطريقة عدة أشكال من التعذيب ضد شخص واحد. وقد استخدمت ضد أسرى القرامطة في بغداد، ومن امثلتها تعذيب ابن ابي الفوارس من قادة القرامطة في سواد الكوفة، بامر المعتضد وتفصيله كما اورده الطبري[22] :

قلعت اضراسه اولا. ثم خلعت احدى يديه بشدها الى بكرة متحركة. وعلقت بالاخرى جندلة وترك على حاله تلك من نصف النهار الى المغرب. ثم قطعت يداه ورجلاه في الصباح وقطع رأسه وصلب في الجانب الشرقي ــ من بغداد ــ وحملت جثته بعد ايام الى محلة تدعى الياسرية كانت تعلق فيها جثث القرامطة ليصلب معهم.

مثال اخر وصفه الطبري ايضا وهو لصاحب الشامة الحسين بن زكرويه قائد القرامطة في السواد وقد اسر مع عدد من اصحابه وجيء بهم الى بغداد ليعدموا :

بنيت دكة في مكان عام ونودي على الناس لحضور حفلة الاعدام. وبدأوا يقتادون الاسرى واحدا واحدا فكان الرجل يؤخذ ويبطح فتقطع يمنى يديه ويحلق بها الى اسفل ليراها الناس، ثم تقطع رجله اليسرى ويحلق بها لنفس الغرض. ثم يسرى يديه فيمنى رجليه ويرمى بكل ما يقطع الى اسفل، ثم يقعد فيقطع رأسه ويرمى به مع جثته الى اسفل.

وقدم الحسين بن زكرويه فضرب مئة سوط، وقطعت يداه ورجلاه. وكوي بالنار فغشي عليه فاخذ خشب فاضرمت فيه نار ووضع في خواصره وبطنه فجعل يفتح عينيه ثم يغمضهما. فلما خافوا ان يموت ضربوا عنقه. ورفع رأسه على خشبة فكبر الجلادون من فوق الدكة وتبعهم سائر الناس بالتكبير[23]. ولم تجر العادة بالتكبير في مثل هذه الاحوال الا حين يكون الرأس المقطوع لعدو خطر. وهو ما فعله الامويون عند قطع رأس الحسين بن علي في كربلاء.

تنور الزيات :

ابتكره محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق لتعذيب عمال الخراج المختلسين. وكان يصنع من خشب تخرج منه مسامير حادة وفي وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب. وقد عذب فيه صانعه بعد عزله زمن المتوكل بسبب اهانة كان قد وجهها اليه قبل ان يستخلف، ووصف الطبري تعذيبه على الوجه التالي[24].

حبس اولا. ثم سوهر(منع من النوم) فوكل به سجان ينخسه بمسلة كلما اراد ان يغفوا. ثم ترك اياما فنام وانتبه فاشتهى فاكهة وعنبا فقدمت له فاكل. ثم اعيد الى المساهرة اياما نقل بعدها الى التنور حيث مكث اياما كلما اراد ان يغفو سقط على مسمار فانتبه، فكان يضطر الى البقاء فوق الخشبة المعترضة ومقاومة النوم. وهي الفكرة التي تكمن وراء صنع التنور بهذا الشكل. اى ان المعذب يجد امامه احد خيارين، إما النوم على المسامير او السهر طيلة اقامته في التنور.

اشكال مفردة :

تدخل هذه الاشكال في عداد المبادرات الآنية ولذلك لا تجري على نسق واحد أو تصميم متبع. وفيما يلي وصف لبعض نوقائع :

التعذيب بالمقدحة :

وردت مصادر السيرة[25] ان النبي محمد دفع كنانة بن الربيع، من زعماء بني النضير، الى الزبير قائلا: عذبه حتى تستأصل ما عنده. وكان تحت يده كنز من اموال بني النضير.. وعذبه الزبير بالمقدحة فكان يقدح في صدره حتى اشرف على الموت. ثم سلمه النبي الى محمد بن مسلمة ليقتله ثأرا لأخيه الذي قتله بنو النضير.

الموت بالنورة :

من الوسائل التي قيل ان ابراهيم الامام، زعيم الدعوة العباسية ، قتل بها على يد مروان بن محمد اخر خلفاء الامويين وضع رأسه في جراب مليء بالنورة وشده عنيه باحكام. وقد ترك على هذه الحالة الى ان مات مختنقا[26].

النفخ بالنمل :

سعيد بن عمر الحرشي كان واليا على خراسان لعمر بن هبيرة حاكم العراق (كان المشرق يدار من العراق ايام الامويين) وكان يستخف باوامره، فارسل اليه رجلا يستطلع حاله وعاد الرجل فأيد ما ذكرما عنه. وكان سعيد بعد ان علم بالرجل وضع له سما في بطيخة لكنه لم يمت ورجع الى العراق فعولج حتى برىء. وعزل عمر بن هبيرة سعيدا وعذبه بان نفخ في بطنه النمل[27]. ولم تذكر الرواية ان كان قد مات أم لا.

التبريد :

خطب عبد الملك بن مروان ابنة الفقيه سعيد بن المسيب لابنه الوليد فرفض سعيد لورعه ومعارضته الأمويين فأمر عبد الملك بتأديبه فضرب مئة سوط في يوم بارد والبس جبة صوف ثم صبت عليه جرة ماء بارد (اورده الغزالي في احياء علوم الدين)

التكسير بالعيدان :

مر بنا ذكر خالد القسري الذي كان واليا على الحجاز ثم على العراق لهشام بن عبد الملك. وقد عزل خالد بيوسف بن عمر الثقفي ثم قتل بسبب مخالفات صدرت منه ضد الخليفة. وكان قتله على الشكل التالي[28].

وضع عود غليظ على قدميه وقام عليها عدد من الجلادين فكسرت قدماه. ثم وضع العود على ساقيه فكسرتا بنفس الطريقة. ثم نقل الى فخذيه ومنهما الى حقوية وانتهى العود الى صدره فكسر، وعندها مات. وكان خلال ذلك كله ساكتا لا يتأوه..

قرض اللحم :

استخدمه قرامطة شرقي الجزيرة. وكان مؤسس الدولة القرمطية ابو سعيد الجنابي قد اغتيل بيد خادمه بعد ان دخل الحمام، وقام الخادم بعده بقتل عدد من القادة استدرجهم الى الحمام. وقد قبضوا على الخادم بعد اكتشاف امره فشدوه بالحبال ثم اخذوا يقرضون لحمه بالمقاريض حتى مات[29].

اخراج الروح من طريق آخر :

عقيدة خروج الروح من الفم عند الموت اوحت للمعتضد باشكال من القتل اراد بها اخراج روح المقتول من غير طريق الفم. قال المسعودي في « مروج الذهب » إن المعتضد كان شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله وذكر من وسائل ذلك :

1 ــ اذا غضب على القائد النبيل او الذي يختصه من غلمانه امر ان تحفر له حفيرة ثم يدلى رأسه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الاسفل ظاهرا فوق التراب. ثم يداس التراب بالارجل حتى تخرج روحه من دبره بعد أن تكون سدت كل المنافذ التي يمكن ان تخرج بواسطتها من فمه.

2 ــ يؤخذ الرجل فيكتف ويؤخذ القطن فيحشى في أذنيه وخيشومه وفمه. ثم توضع منافخ في دبره حتى ينتفخ ويتضخم جسده. ثم يسد الدبر بشيء من القطن. وبعدها يفصد من العرقين اللذين فوق حاجبيه حتى تخرج الروح من ذلك الموضع.

التعذيب بالقصب :

فيروز بن حصين من قادة انتفاضة ابن الأشعث ضد الحجاج في العراق، اسر بعد فشل الانتفاضة، وكان تحت يديه اموال طائلة يعود بعضها للحركة. ولاستحصال الاموال منه امر الحجاج بتعذيبه، فعري من ملابسه وشدوا على جسده قصباً مشقوقا ثم اخذوا يجرونه فوق الجسد. ولزيادة ايلامه كانوا ينثرون الملح ويصبون الخل على الجروح التي يسببها القصب. وبعد ان يئس الحجاج من اعترافه بالاموال قطع رأسه.

تعذيب أدبي :

وهو التعزير وقد اقرته الشريعة في المخالفات التي لا توجب الحد، ويتضمن عددا من الجلدات لا تزيد على خمس عشرة، أو التشهير. واستخدم الحكام المسلمون التعذيب الأدبي لأغراضهم الى جانب الفنون الأخرى، وكان من وسائله حلق اللحي ــ واحيانا نتفها ــ وحلق الرؤوس وقد طبق على الشطار والزنادقة. ومنها ايضا اركاب الشخص على حمار والطواف به في المدينة مع المناداة بجريمته. وقد أورد الجاحظ في « مفاخرة الجواري والغلمان » تشهيرا بهذه الوسيلة لجارية ماجنة في بغداد قبض عليها وهي تجامع مخنثا بكنديج (قضيب اصطناعي)

ابطال التعذيب :

تفاقم التعذيب على يد الامويين، متلازما مع تحول دولة المدينة البسيطة الى امبراطورية

يحكمها خليفة مطلق السلطة. لكن ذلك لايعني ان التعذيب لم يمارس من قبل. وقد اشرنا آنفاً الى اوامر ابي بكر بحرق المرتدين ودفاعه عن افعال من هذا القبيل صدرت عن خالد بن الوليد في حروب الردة. ويمكن اعتبار خلافة عثمان نقطة تحول اولية في القمع الاسلامي فهو مؤسس جهاز الشرطة في الاسلام، وقد ذكر ابن حبيب في « المحبر » اسم مدير الشرطة الذي عينه وهو عبد الله بن منقذ التيمي — من قريش — ونوه بما يدل على بساطة جهازه، كمؤشر على سلطة قمعية في طور النشوء.[30] وانتهج ولاة عثمان نهجا قمعيا، محدوداً في دار الاسلام منفلتا في دار الحرب (جبهة الفتوحات).. ولم يرد عن عمر بن الخطاب شيء من ذلك؛ اما علي فهناك رواية تقول انه احرق مرتدين. وقد اخرجها البلاذري في « انساب الاشراف » على وجهين يرد في احداهما انه احرقهم احياء وفي الاخر انه احرقهم بعد قتلهم بالسيف[31]. وتربط بعض المصادر هذا الحدث باتباع عبد الله بن سبأالذين قيل انهم ألّهوا عليا فأحرقهم. وتورد هذه الروايات رجزا قيل أن علي انشده عند او بعد احراقهم. وعبد الله بن سبأ مشكوك في تاريخيته، كما ان الغلو لم يكن قد ظهر في زمان علي. لكن رواية البلاذري عن حرق المرتدين ممكنة بالنظر لوجود مثل هذه الحالات في ذلك الوقت. ومن المستبعد مع ذلك ان يكون علي قد احرقهم احياء لما نعرفه عنه من تشدد في مراعاة احكام الشريعة. والوجه الثاني لرواية البلاذري احرى عندي بالقبول، مع التنبيه الى ان الرجز الذي نسب الى علي في هذا الحادث ركيك لا يحتمل صدوره عنه، وهو من عناصر الضعف في الرواية، مالم يكن قد اضيف اليها فيما بعد. ويستثنى من خلفاء الامويين عمر بن عبد العزيز، أما الباقون فكانوا قمعيين بدرجات متفاوتة. وقد ظهرت ملامح نزعة سادية لدى بعض الولاة والقواد منهم : زياد بن ابيه وابنه عبيد الله ومسلم بن عُقبة المُرّى والحجاج وقرة بن شريك وبشر بن مروان ويزيد بن المهلب وخالد القسري واخوه اسد. وقد اشتهر الحجاج من بين هؤلاء رغم ان فيهم من لا يقصر عن شأوه. وتقول رواية شعبية انه كان اذا اعدم احدا يستمني على نفسه.. ويكرس هذا الجنوح في الخيال حالة الاقتران السيكولوجية بين الجنس والعنف مما عسى ان يكون الحدس الشعبي قد لمسه من خلال نموذج سادي تصدر قصص الارهاب في تاريخنا. وينتظم الخلفاء العباسيون في نفس السلك، مع استثناءات من النزعة السادية يمكن ان تشمل المنصور والمأمون والمكتفي والمهتدي والظاهر والمستعصم، فضلا عن الخلفاء الذين وقعوا تحت طائلة البويهيين والسلاجقة ففقدوا سلطتهم الفعلية. وعرف بالدموية من ولاتهم وقوادهم ابو مسلم الخراساني وعبد الله بن علي ومعن بن زائدة ويزيد بن مزيد وعُقبة بن أسلم ومن الوزراء الفضل بن مروان ومحمد بن عبد الملك الزيات واحمد بن ابي دُواد وحامد بن العباس. وبلغت السادية ذروتها في المعتضد، وقد وصفنا بعض تعذيباته وهي تعبر عن وضع مرضي خارج عن حالة القمع المعتاد الذي تلجأ اليه السلطة للدفاع عن مواقعها. وفي الاندلس تميز المعتمد بن عباد بميله الى التلذذ بمشهد الرؤوس التي كان يامر بقطعها. وقد مر بنا انه كان يشتلها في حديقة داره. واشتهر بالقسوة فيما عداه معظم ملوك الطوائف وكذا المرابطون والموحدون. ومن الخلفاء الفاطميين عرف الحاكم بحالته المرضية التي تختلط فيها اعراض البطش وتقلب المزاج وحدته.

موقف الفقهاء :

اشتملت مصادر الحديث على روايات في النهي عن المثلة، اي تعذيب الحي وتشويه

الميت، حدد الفقهاء على اساسها مواقفهم من التعذيب نعرضها فيما يلي...

ــ حديث عمران بن حصين ــ اخرجه احمد في المسند، والدارمي في السنن ونصه[32].

ما قام فينا رسول الله خطيبا الا امرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة وقد اورده من عدة طرق.

ــ حديث عبد الله الخطمي ــ اخرجه احمد ونصه[33].

نهى رسول الله عن النهبة والمثلة. النهبة، بالضم، اخذ اموال المشركين من غير حرب.

ــ حديث المغيرة بن شعبة ــ اخرجه احمد ونصه[34].

نهانا رسول الله عن المثلة.

ــ حديث سَمُرة بن جُندب ــ اخرجه احمد وابن هشام في السيرة ونصه مماثل لنص عمران بن حصين[35].

ــ حديث هشام بن حكيم بن حزام ــ اخرجه ابو داود في السنن ومسلم في الصحيح ونصه[36].

مر هشام بن حكيم على أناس من الانباط بالشام قد اقيموا في الشمس. فقال. ما شانهم ؟ قالوا. حبسوا في الجزية. فقال هشام : اشهد لسمعت رسول الله يقول : ان الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا. ودخل على حاكم فلسطين فحدثه فامر بهم فخلوا.

وصية الى سراياه اخرجها ابن هشام في السيرة والتِرْمِذى في الصحيح ونصها[37].

في السيرة ــ لا تغلوا ولا تمثلوا.

في الترمذى ــ لا تغدروا ولا تمثلوا...

ــ حديث هبّار بن الاسود ــ اخرجه ابن عبد البَر في الاستيعاب وابن هشام في السيرة والطبرى في ذيل المذيل وابو داود في السنن بصيغ تختلف قليلا خلاصتها انه اوصى سرية، او عدة سرايا اذا ظفروا بهبار بن الاسود ان يحرقوه. ثم استأنف قائلا : لا يعذب بالنار الا الله. وامرهم بقطع يديه ورجليه ورأسه بدلا من ذلك[38].

وكان هبار من اشقياء قريش وللنبي ثأر شخصي معه لانه لاحق ابنته زينب حين هاجرت من مكة وضربها فسقطت من اعلى بعيرها واجهضت. وكانت حاملا من زوجها ابو العاص بن الربيع. ويخص هذا الحديث النهي عن الاعدام حرقا.

احاديث وردت عن طريق الشيعة ــ منها رواية لليعقوبي تؤكد النهي عن التعذيب لاى سبب كان، وحديث في نهج البلاغة بالنهي عن المثلة. واخر عن ائمة أهل البيت حول عقوبة السجن المؤبد وكونها تشمل من يرتكب المثلة[39].

وتتصل بهذه الفئة من الاحاديث فئة اخرى حرمت ضرب العبيد وتعذيبهم منها :

ــ حديث لليعقوبي[40] :

الا اخبركم بشرار الناس ؟ من أكل وحده ومنع رفده وجلد عبده. (الرفد : العطاء)

ــ حديث عمر بن شعيب، اخرجه ابن ماجه[41].

جاء رجل الى النبي صارخا. فقال له رسول الله : مالك ؟ قال: سيدي رآني أقبل

جارية له فجب مذاكيري. فقال النبي : علي بالرجل. فطلب فلم يقدر عليه. فقال رسول الله للعبد اذهب فانت حر.

ــ حديث هلال ابن عسّاف، اخرجه ابن عبد البر ومسلم[42].

كنا نبيع البر في دار سُويد بن مُقرن فخرجت جارية وقالت لرجل منا كلمة فلطمها. فغضب سويد وقال : لطمت وجهها ؟ لقد رأيتني سابع سبعة من اخواني مع رسول الله مالنا الا خادم واحدة فلطمها احدنا فامرنا رسول الله فاعتقناها. البر، بضم الباء، القمح.

ــ حديث اخرجه ابو داود في السنن[43].

من لطم مملوكه فكفارته ان يعتقه.

ــ حديث مقارب اخرجه الخطيب في تاريخ بغداد[44].

من ضرب عبده في غير حد حتى يسيل دمه فكفارته عتقه

وهناك جملة اخرى من الاحاديث بشأن تعذيب الحيوان. منها :

ــ حديث سعيد بن جبير اخرجه الدارمي في السنن[45]:

خرجت مع ابن عمر في طريق المدينة فاذا غِلمة يرمون دجاجة. فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ فتفرقوا.. فقال : ان رسول الله لعن من مثل بالحيوان

ــ حديث ابو ايوب الانصاري اخرجه الدارمي وابو داود[46].

سمعت رسول الله ينهي عن قتل الصبر فوالذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبّرتها. قتل الصبر في الاصل هو الاعدام وهنا يعني القتل البطيء بجعل الانسان او الحيوان هدفا للسهام وغيرها وهو المقصود بالتحريم.

ولهذا الحديث صيغة اخرى في صحيح مسلم تفيد ان رسول الله نهى ان تُصبّر البهائم، وثالثة في سنن الدرامي عن ابن عباس تفيد أن رسول الله نهى عن المجثّمة اي المصبورة[47].

ان هذه الاحاديث تحظى بتوثيق علماء الجرح والتعديل من حيث السند، ولم يرد بشأنها ما يثير الشك في المصادر التي تناولت الاحاديث الموضوعة او الضعيفة. لكن توثيق السند، رغم اهميته، ليس حاسما في تصويب الرواية. ونحن نضع في حسابنا :(1) اتجاهات الفرق المعارضة واهل الورع الذين وقفوا ضد الارهاب وما يحتمل ان تثيره من الحاجة الى مبادىء شرعية تدعم موقفهم. وفي تاريخ الحديث امثلة كثيرة على ذلك. (2) وقائع المثلة في السيرة. وهي تعارض منطوق الاحاديث المذكورة. وقد جرى المستشرقون على الاستفادة من مثل هذا التعارض للتشكيك بالاحاديث. وثمة مع ذلك حاجة مماثلة لدى الطرف الرسمي الى شرعنة سياساته يمكن ان تقف وراء رواية هذه الوقائع وتخضعها لنفس القدر من التشكيك. وربما انتهينا في ضوء هذا المعيار الى احتمالات متقابلة يصعب الترجيح بينها. على اني لا ارى مسوغا لتصميم احادى يمكن ان تغرى به الرغبة في تجاوز أي من هذه الروايات، التي نقلت الينا في مصادر معتمدة لا يصح اخضاعها للتشكيك الاعتباطي. وتعارض التوجيه والممارسة لا يكفي هنا للترجيح بالنظر لاختلاف الدوافع والظروف التي تحكم كلا منهما، ولان منحى الانفصام بين الفكر والسلوك، كخط سائد في تاريخ الوعي البشري، يمنع من المعايرة بينهما. ومهما يكن من شيء، فقد تقبل الفقهاء هذه الاحاديث واعتبروها نصا في تحريم المثلة. وبنيت

على ذلك جملة من الاحكام الفقهية تناولت قضايا التحقيق والعقوبات وقوانين الحرب سنلم بها في السطور التالية..

وسائل الاعدام :

لم يتطلع الفقهاء المسلمون الى يوم تلغى فيه عقوبة الاعدام، مفترضين الضرورة الابدية للعقوبة ما دام الانسان مزيجا من الخير والشر، وانما تداولوا حديثا نبويا يقول **اعف الناس قتلة اهل الايمان**. اي ان المؤمن اذا اضطر الى القتل نفذه بأقل الوسائل ايلاما للقتيل. وقد استنتج منه ابن تيمية ان القتل المشروع هو ضرب الرقبة بالسيف ونحوه لأن ذلك اوحى أنواع القتل ــ يقصد اسرع بحيث لا يعذب المحكوم بالقتل[48]. وينبني على ذلك ان الاعدام يجب ان ينفذ بالسيف ما دام الوسيلة الاقل ايلاما، فاذا وجدت وسيلة اخرى حلت محله (×) وهو ما يستفاد من الحديث. ولم يلتفت الفقهاء الى تعارض هذا الحكم مع حكمين بالقتل يقترنان بالتعذيب اولهما حكم قطاع الطرق المنصوص عليه في القرآن بقطع اليدين والرجلين والصلب. وهو يقتضي قتلهم بهذه الطريقة، الا ان جمهور الفقهاء جعلوا الصلب بعد القتل وقد أوله ابن تيمية برفعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشتهر امرهم[49]. الحكم الثاني هو رجم الزاني المحصن ــ اي المتزوج ــ وينص هذا الحكم على الرجم حتى الموت. وهو مأخوذ من الشرع اليهودي. وقد اثار حكم الرجم التباسات ناشئة عن شناعته من جهة، وعدم النص عليه في القرآن من جهة اخرى فانكره فريق من المسلمين بينهم الخوارج وتساهل اخرون في تنفيذه. ويبدو ان القائلين به شعروا بالحاجة امام الانكار الى توكيده ورده في الكتاب والسنة فاعتبروا حكم الرجم منصوصا عليه في آية منسوخة التلاوة باقية الحكم. ونص الاية كما ترد في مصادر التفسير منسوبة الى عمر بن الخطاب :

والشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم.

وقد نسخت تلاوة الآية برفعها من القرآن مع بقاء حكمها. ولا سبيل الى البث في صحة هذه الرواية لان اسلوب الآية المدّعاة من الركاكة بحيث يصعب القول انها صدرت عن نفس مصدر القرآن. اما في السنة فان مصادر الحديث والسيرة اشتملت على وقائع نفذ فيها الحكم على يد النبي، وبعض الاحاديث التي تصرح به، ممايعزز الاعتقاد بوروده كحكم شرعي منصوص عليه في الاصول. ونظرا لتحريم الاجتهاد في موضع النص، لم يكن ميسوراً اعلان رأي ما بشأن هاتين العقوبتين . ولعل الفقهاء، قد وصفوهما على ملاك الاستثناء من حكم الحديث، وهو عام في سائر احكام الاعدام التي قال الفقهاء بوجوب تنفيذها بالسيف. ويبدو التمسك بهذا الحديث موجها ضد وسائل الاعدام التي شاعت بعد الراشدين، وهي الاعدام بالتعذيب. وبناء على نفس الاعتبارات حرم الفقهاء الاعدام بالنار. وقد استندوا الى حديث هبار بن الاسود، ولم يجعلوا قرارات ابي بكر سابقة وانما اعتذروا له باحتمال عدم سماعه بالحديث. كذلك لم يعتدّوا برواية البلاذري عن علي بن ابي طالب بشأن المرتدين لا سيما وان هناك روايات تفيد ان كلا من ابو بكر وعلي نهى عن المثلة وشدد

(×) بناء على هذا المبدأ تنفذ عقوبة الاعدام في ايران الاسلامية رميا بالرصاص بدلا من السيف او المشنقة. اقول ذلك مع الاحتفاظ برأيي في هذه العقوبات.

فيها[51].

التعذيب مقابلة بالمثل :

اخرج الترمذي في باب الديات من صحيحه ان يهوديا قبض على جارية محلاة فرضخ رأسها بحجر واخذ ما عليها من الحلي. وقد ماتت الجارية. وقبض على اليهودي فامر النبي فقتل بنفس الطريقة، رضخ رأسه بين حجرين. وعقب الترمذي على الخبر :

حديث حسن صحيح[52]. والعمل على هذا عند بعض اهل العلم، وهو قول احمد واسحق، وقال بعض اهل العلم لاقود ـــ قصاص ـــ الا بالسيف.

يبدو من هذا الحادث، وخبر العَرَنيين، جواز القتل تعذيبا على سبيل المقابلة بالمثل. وقد صرح ابن تيمية بذلك لكنه قال ان الترك افضل[53]. وينقل عن ابي بكر عدم جواز المقابلة بالمثل في العلاقات الخارجية وقد اورد الأقسَراني عن عقبة بن عامر الجُهَني انه قدم على ابي بكر برأس لاحد بطارقة الروم فانكر ذلك. فقال له انهم يفعلون ذلك بنا. فأجاب : فلا استنان بفارس والروم[54]. وقال الاقسراني في معرض ذلك انهم حرموا حمل رؤوس الكفار لانه امثلة. كذلك يتفق الفقهاء على عدم جواز المقابلة بالمثل في مسألة الرهائن، وهي ان يكون لدى المسلمين وعدوهم رهائن متقابلة، فاذا قتل العدو رهائن المسلمين لم يجز قتل رهائن الكفار وانما يحبسون حتى يسْلموا أو يصيروا ذمة ـــ أي يقبلوا رعوية الدولة الاسلامية ـــ وعندئذ يُخلى عنهم. [55] ومرد الجواز هو المسؤولية الفردية عن الفعل الجنائي مما يدخله في باب القصاص، وهي حالة اليهودي الذي رضخ رأس الجارية. اما حمل الرؤوس وقتل الرهائن فداخلة في القصاص الجماعي، وهو ممنوع في الشريعة بنص القران :

ولا تزر وازرة وزر اخرى...

مالم يثبت ارتكاب الرهائن جرائم توجب العقوبة وعندئذ يعاقبون قصاصا على فعل صدر منهم.

التعذيب دون القتل :

حرمه الفقهاء بجميع اشكاله استنادا الى النهي العام عن المثلة ويشمل ذلك تعذيب الاعتراف والعقوبة وتعذيب العبيد. وفيما يتعلق بالاول ابو يوسف ان الاعتراف الناشيء عن ضرب المتهم وتعذيبه لا يعتد به[56]. وهو ما قاله المحقق الحلي في باب الحدود من المختصر النافع بشأن السارق اذا اقر بالسرقة تحت الضرب فانه لا يقطع. وفرق بعض الفقهاء بين ضرب المتهم وتعذيبه بالوسائل الاخرى، فحرموا الاخيرة اطلاقا وتسامحوا في الاول. فقد اجاز ابن تيمية ضرب اللصوص لاستخراج الاموال منهم[57] ووضع الماوردي قاعدة عامة بشأن الضرب تضمنت جوازه مع قوة التهمة، اي ان تكون هناك دلائل ترجح صدور الفعل عن المتهم. على ان يكون ضرب تعزير لا ضرب حد، اي دون القدر الادنى للعقوبات الشرعية وهو اربعون سوطا. ووضع للضرب هدفين : أن يضرب ليصدق عن حاله وان يضرب ليقر. والاول هو ان يقدم اجابات صحيحة عن امور اخرى يحتاج المحقق الى معرفتها في مجرى التحقيق. فاذا ضرب هذا الغرض اخذت افادته بنظر الاعتبار، اما اذا ضرب ليقر فان اقراره لا يصح. لكن الماوردي يفترض حالة ثالثة وهي ان يضرب ليصدق عن حالة فيتجاوز ذلك الى الاقرار دون ان يكون

هو المقصود من الضرب. وعندئذ يقطع ضربه ويستعاد اقراره. فاذا بقي على الاقرار أخذ به، واذا انكر جاز للمحقق ان يعمل بالاقرار الاول ولكن مع الكراهية[58]. وهنا يتسامح الماوردي فيعطي المحقق فرصة للاستفادة من الاقرار بالضرب على ان يكون الغرض من الضرب هو الاخبار عن اموره العامة وليس الاقرار بالتهمة.

التعذيب للعقوبة غير مسموح به خارج العقوبات المنصوص عليها. وقد اعتبر الفقهاء ما صدر عن الحكام المسلمين بعد الراشدين مخالفا للشرع، لاسيما في الجرائم السياسية والمخالفات التي تمس شخص الحاكم. وقد عني الفقهاء بهذه المعضلة اكثر من غيرهم من فئات المثقفين المسلمين، لعله بحكم اختصاصهم القانوني، وتحتوي مصادر الفقه والحديث مادة وفيرة مضادة للتعذيب، ربما ستكون اكثر اشراقا لو ان الفقهاء تجرءوا على اعادة النظر في بعض العقوبات الشرعية كالرجم والقطع لما فيها من عناصر المثلة. وقد مر بنا مع ذلك انهم اختلفوا حول الرجم حيث انكره فقهاء الخوارج، ووضع غيرهم لتنفيذه شروطا تؤدي مراعاتها الى تقليص مداه فقد اشترطوا لثبوت الزنا اربعة شهود، وهو شرط اصلي في الشريعة لكن معظم الفقهاء ذهب الى اثقاله بشرط اضافي، وهو ان يكون الشاهد قد رأى فعل الزنا عيانا، اي « ان يرى الميل في المكحلة » كما عبروا عنه، دون الوقوف عند الهيئة الظاهرة للجماع. ومن المؤكد ان ذلك لا يمكن ان يتهيأ للمشاهد حتى في حدائق اوربا العامة، ناهيك عن ان يكون في المجتمع الاسلامي ! وعقوبة الرجم هي للزاني المحصن، المتزوج، اما العزاب فيعاقبون بالجلد مئة سوط. وقد وضعت للجلد شروط تخفف من اضراره هي[59] :

1 ـــ ان يجلد بسوط خفيف بين الشدة واللين ولا يجوز ان يكون جديدا
2 ـــ ان لا يجرد من ثيابه الا ماكان منها سميكا كالفرو
3 ـــ لا يقام في الحر الشديد والبرد الشديد وانما عند اعتدال الاهواء
4 ـــ تجنب المواضع المهلكة كالوجه والبطن
5 ـــ ان يضرب قاعدا مع عدم المد والغل والقيد
6 ـــ يجوز تقسيط الجلدات الى خمسة ايام.

مع هذه الشروط لا يبقى للجلد من مفعول سوى دلالته الادبية المتعارضة مع كرامة الانسان وهو ما ادّى بالقوانين الحديثة الى الغائه في معظم المجتمعات.

وللفقهاء تحديدات اضافية هذه العقوبات، فقد قال ابوحنيفة ان السكران لا يجلد الا اذا بلغ في سكره حداً لايفرق بين زوجته وامه او بين السماء والارض ومن النادر ان تشهد سكرانا من هذا الطراز. وقال الفقهاء ان السارق لا يقطع الا اذا سرق من مال محرز، والحرز ان يكون مقفلا او مدفونا ولذلك لايقطع من سرق الكعبة مثلا لعدم توفر شرط الاحراز، كما لايقطع سارق البساتين والزروع وكذلك من سرق من حرز هتكه غيره، والسارق من الجيوب(النشال او الطرار)[60]. ولا يستفاد من ذلك اباحة السرقة في هذه الامور فالمقصود هو القطع فاذا لم تتوفر شروطه عوقب السارق بعقوبات أخف كالسجن او التعزير. ويروي امام الحرمين في « مغيث الخلق » عن ابي حنيفة انه قال من استاجر امراة ليزني بها لا يحد لان العقد يصير شبهة[61]. ومناط الحكم هنا هو ان عقد الاستئجار يصبح كعقد الزواج لانه يتضمن ركنين هما المهر الذي يدفع للمرأة في شكل أجرة، والتراضي بينهم على ذلك. واحد

الاجرة دليل مادي على رضا المرأة. واذا صح هذا الرأي عن ابي حنيفة فهو يعني اباحة البغاء..ويجب مع ذلك ان يفهم في ضوء الاتجاه الى تقليص حالات تطبيق العقوبة على الزنا..

وشدد الفقهاء على تعذيب العبيد، وقد استعرضنا بعض الاحاديث المتعلقة بذلك. وهناك اتفاق عام على تحريم الخصاء لانه مثلة ويعتبر العبد منعتقا، تلقائيا، اذا خصاه مولاه. كما ينعتق تلقائيا اذا عذبه مولاه على رأي فقهاء الشيعة. وحرموا الضرب واللطم للعبيد ولكن دون ان يرتبوا عليهما الانعتاق مالم يبلغا حد التنكيل، وهو المبالغة في الايلام. كما خففت عقوبة الجلد الشرعية على العبد الى نصف مقدارها على الحر في الجرائم التي تستوجبها. لكن الفقهاء لم يحددوا عقوبات معينة للسيد الذي يعذب عبده سوى العتق الذي هو بمثابة غرامة على السيد وتعويض للعبد. وقد اخرج النسائي حديثا يقول : من قتل عبده قتلناه ومن جعده جعدناه ومن اخصاه اخصيناه[62] غير انهم لم يعتبروه نصا في العقوبة وانما فسروه على سبيل الزجر والتغليظ في النهي. ومن هنا اختلفوا في الاقتصاص من قاتل عبده عمدا فأوجبه البخاري وابراهيم النخعي وسفيان الثوري. وقال الاخرون يعاقب بما دون القتل.

في سياق المعارضة الفقهية للتعذيب، دعا المؤرخ السخاوي الى تجنب رواية اخباره، الا ما يضطر المؤرخ الى ايراده منها، بشرط «الاشعار بما يقتضي الانكار اذا امكن حتى لا يكون تطرقا لمن يروم فعل مثله وحجة يحتج بها». واورد في هذا المعنى خبرا يفيد ان الحجاج قال لانس بن مالك : حدثني باشد عقوبة عاقب فيها النبي. فحدثه بها. فلما بلغ الحسن البصري ذلك قال : وددت انه لم يحدثه[63]. وانكار الحسن البصري لحديث انس مرجعه الى الخوف من أن يستغل الحجاج تلك العقوبة لتعزيز وسائله الارهابية، أو الاندفاع أكثر في هذا الاتجاه. واعرب ابن الاثير عن الامتعاض من هذه الأفعال لكنه أدلى برأي مغاير لرأي الحسن إذ دعا إلى تدوين أخبار الظالمين حتى يعلموا. إن إخبارهم تنقل وتبقى على وجه الدهر فربما تركوا الظلم لهذا ان لم يتركوه لله..[64] وهنا خلاف في المقصود بالرواية بين الحسن وابن الأثير لم يلحظه السخاوي، فابن الأثير يتحدث عن أفعال الحكام المسلمين والحسن البصري يقصد الرواية عن النبي، وما أورده من إشكال في هذا الخصوص يتعلق بمسألة القدوة، فالحديث الذي رواه أنس للحجاج يمكن أن يوفر له عذراً في التمادي مستمدا من السنة، في حين قد يكون تصرف النبي المروى عنه مأخوذا في خصوصياته التي لا تعتبر في عداد السنة. وهناك فرق بين أن تروي خبرا عن حكم عرف بالظلم فتفضحه وخبرا عن نبي مشرع فتضيف مادة الى الشريعة. ويبدو السخاوي مع هذا حذرا من أن يستفيد الحكام من رواية وسائل التعذيب فيطبقوها وهو المستفاد من قوله « حتى لا يكون ذلك تطرقا لمن يروم فعل مثله ». وينسحب هذا الحذر على دراستنا هذه لولا أنني مطمئن الى أن فن التعذيب الحديث الذي صدره الينا الغربيون يغني حكامنا عن الرجوع الى التراث..

....

إضافة للمقارنــة :

من أجل تكوين فكرة تقريبية عن مستوى التعذيب في الاسلام نورد أمثلة من التعذيب لدى بعض الأمم الأخرى.

1 ــ الخوزقة والتقطيع :

عرف به الأشوريون، الذين تميزوا بوحشية استثنائية من بين الشعوب السامية الأخرى. وكانوا يقتلون أسراهم باجلاس الأسير على خازوق وقطع يديه ورجليه. ولم تعرف الخوزقة في العصور الاسلامية وإنما أدخلها العثمانيون واتخذوها وسيلة رسمية لتنفيذ حكم الإعدام.

2 ــ الإعدام حرقــاً :

انتشر في عصور أوربا الوسطى. وقد أعدمت بهذه الطريقة جان دارك على يد الانكليز. وأعدم بها بعض الفلاسفة بأمر الكنيسة في العصور الوسطى وعصر النهضة. كما فرض الاعدام حرقا على السحرة، ويذكر ول ديورانت أن كالفن أعدم بالنار في عام واحد 14 امرأة اتهمهن مجمع كرادلة جنيف بتحريض الشيطان على جلب الطاعون للمدينة[65].

3 ــ الاعدام شيــا :

ذكر فردريك انجلز في « حرب الفلاحين » ان دوشا قائد فلاحي هنغاريا عام 1514 اسر بعد القضاء على ثورته فشوي على مقعد مسجور. وبعد ان تم شيه خير اتباعه من الأسرى بين الأكل من لحمه أو شويهم على طريقته. وقد استجاب بعضهم للأكل خلاصا من الشي[66]. وفي المانيا ربط القائد الفلاحي جاكلين روورباخ الى عمود واحيط بنار هادئة حتى مات مشويا[67]. وهذه الطريقة يستعملها العراقيون في الوقت الحاضر لشي السمك المعروف عندهم بالمسقوف. وبالطبع فان السمك المسقوف لا يشوى حيا ويحرص العراقيون على التأكد من موت السمكة قبل وضعها أمام النار متأثرين في ذلك بالتعاليم الاسلامية التي تشدد على عدم ايلام الحيوان.

4 ــ سلخ الجلــود :

انتشر في التبت على نطاق واسع ضد الاقنان واستمر حتى تحرير التبت عام 1956. وقد رأيت بنفسي نماذج من الجلود المسلوخة حديثا حفظت في متحف معهد القوميات بمدينة بكين عام 1977.

5 ــ الصلم والجدع والسمل...

استعملها الاقطاعيون الأوربيون ضد فلاحيهم. وذكر انجلز في كتابه الآنف انها كانت متداولة بكثرة في الاقطاعيات الى جانب وسائل أخرى كالتربيع أي تقطيع الجسم الى أربعة أجزاء وانفاذ الأسياخ المحماة في الجسد[68].

6 ــ قنطــرة النــار ..

فكرة صينية قديمة ترجع الى العصور القبميلادية. وتتم بحفر حفرة واسعة تملأ بالجمر وتمد عليها قنطرة من نحاس تلامس الجمر حتى تسخن. ويؤتى بالضحية فيؤمر بالعبور على

القنطرة حافيا ؛ فربما تحملت قدماه النحاس المحترق فاجتاز القنطرة، وربما عجز فالقى بنفسه في الحفرة ليموت مشويا.

7 ـــ وسيلة لتعذيب النساء :

التعذيب للجباية استخدمه الانكليز في الهند ضد الممتنعين عن دفع الضرائب من الفلاحين. وكانوا يشركون النساء في التعذيب بأن يحشروا قططا صغاراً في صدورهن. والتعذيب للجباية لا يتطلب وسائل استثنائية تزيد على ذلك. اما التعذيب للأغراض الأخرى فلم يخضع لقيود معينة في المستعمرات، والى القارىء هذا النص من رسالة كتبها انجلز الى ماركس في 1 كانون الأول (ديسمبر) 1865 حول أعمال الانكليز في جامايكا[69] :

إن كل بريد جديد يحمل أخبارا أبعث على الذهول عن الأفعال الدنيئة المقترفة في جامايكا.. ورسائل الضباط الانكليز عن مآثرهم البطولية ضد العبيد العزل لا تقدر بثمن. ان روح الجيش البريطاني قد ظهرت أخيرا في كل عريها دون حياء البتة...» وأشار انجلز الى أن الجنود الانكليز كانوا يتخذون من التعذيب وسيلة للتمتع.

ومن المفيد ان نختم هذه الاضافة بتعليق من وليم هويت اقتبسه ماركس في رأس المال[70]: « ان الارهاب الفظيع والأعمال البربرية التي يرتكبها ما يدعي بالجنس المسيحي في كل بقعة من الدنيا وبحق كل شعب تمكن من اخضاعه لا تدانيها فظاعات أي جنس آخر مهما بلغت فظاظته ومهما بلغ جهله ومهما كان من الاستخفاف بالرحمة والحياء في أي عصر من عصور الأرض..»

*

هوامش

1) التاريخ ـــ 176/4 القاهرة 1929.
2) اللباب في تهذيب الانسان لابن الأثير. القاهرة 1257، 85/2.

يجب عدم قبول رأي السمعاني في سبب العقوبة لان رشيد الهجري من أصحاب علي بن أبي طالب وقد قتل لنشاطه الممالىء للمعارضة الشيعية. ولم يكن القول بالرجعة قد ظهر في ذلك الوقت. والسمعاني يصدر في هذا الاتهام عن منهج المؤرخين السنة الذين جروا علي تغطية القتل السياسي بتهم المروق والزندقة.

3) كان القول بالقدر موجها ضد جبرية الأمويين، وكان لغيلان نفسه موقف سياسي ضمن المعارضة الاسلامية للحكم الأموي، وقد انضم الى عمر بن عبد العزيز فعينه لبيع الأموال المصادرة من الأمويين. وكان غيلان ينادي عليها متشفيا : تعالوا الى متاع الظلمة ! تعالوا الى متاع الخونة ! وقد اختفى بعد وفاة عمر الى أن قبض عليه في خلافة هشام وأعدم.

4) 442/5

5) 127/6

عند اليعقوبي انه قتل مئة ألف. وهو أقرب الى المعقول. انظر 86/2

6) نفسه ـــ 14/6

7) انظر الفصل المتعلق بمقتل عبد الله بن الحسن وأولاده.
8) الطبري 526/6. والضحية هو بشير بن الليث احد الخارجين على الرشيد.
9) أورد الابشيهي في المستطرف احصائية بخراج السواد في أيام عمر بن الخطاب والحجاج وعمر بن عبد العزيز توخى بها تسجيل اثر العدل والجور في ذلك. وهي :

عمر بن الخطاب	137 مليون درهم (عند الماوردي 127 مليون)
الحجاج	18 مليون درهم.
عمر بن عبد العزيز	السنة الأولى 20 مليون.
	السنة الثانية 60 مليون.

وفسر الهبوط في زمن الحجاج بغشمه وظلمه. انظر ج101/1.
وقال المسعودي في « التنبيه والاشراف » ان الحجاج تولى العراق وخراجها مئة ألف ألف درهم فلم يزل بعنته وسوء سياسته حتى صار خراجها خمسة وعشرين ألف ألف. ص. 274. وهو نفس الرقم الذي اثبته اليعقوبي في تاريخه. ج106/2.
10) الأغاني طبعة لجنة النشر 242/24.
11) تاريخ اليعقوبي 122/2.
12) السهيلي ــ الروض الأنف 361/2.
13) ابن عبد البر . الاستيعاب 633/2.
14) ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ . ج/4. وقد ورد فيه لجند عاشق كتب الى حبيبته:

لولا مخافة بشر أو عقوبته   وان ينوّط في كفّيّ مسمار
اذن لعطلت ثغري ثم زرتكم   ان المحب لمن يهواه زوار

عطلت ثغري : كناية عن الهرب من جبهة القتال. والثغور هي خطوط التماس مع دار الحرب وكانت بمثابة الحدود الرسمية للدولة الاسلامية.
15) هذا هو المروي في المصادر التي ترجمت للنعمان. وقد نسب ابن حَجَر في « الخيرات الحسان » هذا الاجراء الى المنصور وقال انه مات بعد الجلد بخمسة أيام. ومن المعروف ان المنصور سجنه ولم يجلده وأنه مات في السجن مسموماً كما ترجحه رواية أخرى لابن حجر.
16) الدينَوَري ــ الاخبار الطوال ص. 217.
ابن طاووس ــ فرحة الغري بايران (حجر) 1311 ص. 5. نقلا عن « مقتل امير المؤمنين » للثقفي.
قال : نقلته عن نسخة عتيقة تاريخها 355هـ. وابن طاووس من رجال القرن السابع.
ابن الأثير ــ أسْد الغابة طهران 1322هـ. 385/4.
17) الكامل في التاريخ 151/7
18) نفسه 151/10.
19) تاريخ الطبري 488/2، 490، 491.
20) ابن النديم ــ الفهرست ط. فلوجل 178.
قال ابن النديم : طل المنصور دمه لما فعله في شرط عبد الله بن علي. وكان ابن المقفع قد حرر الامان الذي اعطاه المنصور لعمه عبد الله وضمنه شروطا باهظة تقطع عليه سبيل نقضه.
21) الطبري 165/8
انظر كذلك : ابن النديم ص. 190.
22) الطبري 207/8.
23) نفسه 230/8.
24) نفسه 340/7.
25) ابن هشام ــ السيرة ط. محمد صبيح 229/2.
ابن كثير ــ البداية والنهاية ط. القاهرة، 1932 ج. 197/4.
26) تاريخ الدولة العباسية لمجهول. ط. دار الطليعة ببروت. فصل : ابراهيم الامام.

27) الطبري 369/5.
28) نفسة 563/5.
29) المقريزي ــ اتعاظ الحنفاء ــ القاهرة 1947 ص. 221.
30) المحبَّر ــ مخطوطة المتحف البريطاني رقم 2856. or
ذكر ابن حبيب انه كان لايسار بين يديه بحربة ولا جماعة للشُرط. وهو ما صار اليه مدراء الشرطة فيما بعد.
31) انساب الاشراف 188/5.
ويرد في اللباب لابن الأثير ان عقوبة ابن سبأ لم تكن الاحراق بل النفي الى المدائن 527/1.
32) المسند 329/4، 432، 436، 439، 440، 445.
سنن الدارمي في ط. كانفور بالهند 1293 هـ. ص. 302.
33) المسند 307/4.
34) نفسه 346/4.
35) نفسه 428/4.
السيرة 87/2.
36) صحيح مسلم 32/8.
سنن ابو داود ــ باب الجهاد. II.
37) السيرة 409/2.
الترمذي ــ باب في النهي عن المثلة. قال عن الحديث : حسن صحيح.
38) الاستيعاب 616/2.
ابن هشام 649/2.
ذيل المذيل (المنتخب) ملحق بالجزء الثاني من تاريخ الطبري.
أبو داود ــ 79/2. لم يذكر هبارا باسمه.
39) تاريخ اليعقوبي 111/2.
نهج البلاغة (محمد عبده) 87/2.
مفتاح الكتب الأربعة 224/5 عن الكافي
40) تاريخ اليعقوبي 64/2.
41) سنن ابن ماجة ص. 894.
42) الاستيعاب 594/2.
صحيح مسلم 91/5.
وأخرج أبو داود حديثا في نفس المعنى.
43) سنن أبو داود ــ باب الحدود.
44) تاريخ بغداد ــ 162/8.
45) سنن الدارمي 253.
46) نفسه 253.
سنن أبو داود ــ باب الجهاد.
47) صحيح مسلم 72/6، 73.
الدارمي 253.
48) السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ص. 77 ــ 78.
49) نفسه 78.
قال ابن تيمية ان بعض الفقهاء قالوا بالقتل أثناء الصلب خلافا لقول جمهورهم.
50) المختصر النافع في فقه الامامية ص. 32.
51) أورد الطبري كتابين من أبي بكر الى المهاجر بن أمية قائد الجيش المبعوث لليمن في حروب الردة وقد

بلغه أنه عذب مغنيتين غنت احداهما بهجاء النبي والأخرى بهجاء المسلمين. في الكتاب الأول استصغر أبو بكر عقاب المغنية وقال ان حكمها هو القتل لأن حد الانبياء ليس يشبه الحدود. وفي الثاني استعظمه قائلا : ان كانت ممن تدعي الاسلام فادب وتقدمة دون المثلة وان كانت ذمية فبما صفحت عنه من الشرك اعظم. واختتم الكتاب بالنهي عن المثلة الا في قصاص. 550/2.

وأورد ابن سعد في « الطبقات » ج 2، ق 2،ص. 23، والطَبَرسي في « إعلام الورى » ص. 12 وصية لعلي بعدم تعذيب ابن ملجم والاكتفاء بقتله قصاصا.

52) الحديث الحسن الصحيح، من مصطلحات الترمذي، ويقصد به الحديث الموثق المسند الخالي من المطاعن والهنات، وهو شرط الصحيح، ولكن الوارد من طريق واحد وهو شرط الحسن. فهو حديث حسن في مرتبة الصحيح.

53) السياسة الشرعية ص. 78.

54) سياسة الدنيا والدين ـ لسعيد بن اسماعيل الأقسرائي الحنفي. مخطوط في مكتبة الأوقاف ببغداد رقم 640. ورقة 38.

الاستنان : الاقتداء

55) انظر : ابو يَعْلى ـ الأحكام السلطانية. القاهرة 1357هـ ص. 33.

أبو عبيد ـ الأموال ـ القاهرة 1975م. ص. 211.

56) الخراج ص. 175. القاهرة 1352.

57) السياسة الشرعية ص. 85.

58) الأحكام السلطانية ص. 243.

59) ملخصا من : تفسير الفخر الرازي.

المختصر النافع.

المحاضرات والمحاورات (مخطوطة تنسب للسيوطي في مكتبتي باريس الأهلية وأوقاف بغداد).

لم يتنبه الفقهاء الى الفارق الكبير بين عقوبة الرجم وعقوبة الجلد المقيدة بشروطهم، رغم ان الجريمة من طبيعة واحدة ولا تختلف الا في ظروف مرتكبها، حيث اعتبر الزواج ظرفا مشددا. والظرف المشدد في قوانين العقوبات لا يكون سببا لتغيير نوعي في اصل العقوبة.

60) انظر ابواب الحدود في المختصر النافع واحكام الماوردي السلطانية.

61) مغيث الخلق في ترجيح القول الحق. القاهرة 1934 ص. 44.

62) انظر : ابو يعلى ص. 33.

أبو عبيد ص. 211.

63) سنن النسائي 20/8.

64) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. بغداد 1973 ص. 127.

65) الكامل في التاريخ 124/8.

66) قصة الحضارة 230/6/3 ترجمة محمد بدران.

67) حرب الفلاحين. الترجمة العربية ص. 118.

68) نفسه ص. 158.

69) نص الرسالة في مجموعة « في الاستعمار » المشار اليها في متن المقال.

70) رأس المال ـ الطبعة الانكليزية لندن 1970 ج1 ص. 703 ـ 704 تعليق هويت مأخوذ من كتابة « الاستعمار والمسيحية »

(*) العنوان من وضع هيئة التحرير.

ادريس أبو رندة

عبد العزيز السعود

« حزب الاصلاح الوطني » : وقائع مهملة

ليس بالامكان تلخيص تاريخ الحركة الوطنية بالشمال في بضع مقالات صحفية، لأن هذا التاريخ يطرح عدة اشكاليات وتساؤلات. إننا نعرف القليل عن نضال الشعب المغربي في الشمال، باستثناء بعض الحالات، والعلاقات على الصعيد المحلي ـــ الاقليمي، ثم ارتباط الوضع في المنطقة بالأحداث في إسبانيا.

لقد كان من المفروض أن يشرع في نقد هذه المرحلة التي اتسمت بسيطرة الطبقات البرجوازية على التمثيلية الوطنية (على الصعيد العام) والتي اتخذت من الحوار السلمي والنضال المعادي للعنف أسلوباً لها في مواجهة الاستعمار الدخيل.

إن محاولتنا في هذا البحث ترمي الى توضيح بعض الأسس التي قامت عليها الحركة الاصلاحية في شمال المغرب، ممثلة في حزب الاصلاح الوطني ـــ في إطار محتواها الايديولوجي ـــ التنظيمي ومراجعة سلوكها الوطني في إطار تحالفها مع الحركة الفاشية في إسبانيا، محاولين التصدي لهذه المرحلة التي تهم خط السير الوطني العام نحو الاستقلال.

ومن المؤسف، وجود مظاهر ضبابية في التاريخ التنظيمي والايديولوجي للحركة (حزب الاصلاح)، وخاصة ظروف تأسيس حزبها التي « **صادفت** » تمرد « فرانكو » ضد حكومة الجبهة الشعبية في إسبانيا.

إن مراجعة ونقد تاريخ الحركة الوطنية المغربية، عمل ملح ومستعجل، تقع مسؤوليته على الجيل الجديد. وهذا لا يعني استغلال الظروف السياسية الراهنة، بقدر ما يهدف الى تصحيح مضمونها وكشف « ضبابها ». إن هناك شهوداً عايشوا هذه المرحلة وساهموا فيها إما عن قرب أو عن بعد مازالوا على قيد الحياة، وهم في اعتقادنا أهم مرجع لهذه الفترة، لهذا فدورهم التاريخي يكمن في السماح، لأي باحث ـــ بالاطلاع على الوثائق التي بحوزتهم لكي يتمكن من إزاحة الضباب عن مرحلة دقيقة من تاريخ الحركة الوطنية ـــ الاصلاحية.

ونأمل أن يكون هذا البحث مساهمة منا في العمل النقدي ـــ القيم ـــ الذي كان قد بدأه « إبراهيم الخطيب » في مقاله « نقد الحركة الاصلاحية وأفقها الايديولوجي ».

* ننشر في نهاية المقال مناقشة للموضوع

أولا : مسار الحركة الوطنية (في الشمال) في بداية الثلاثينات وارتباطها بالوضع في إسبانيا :

شهدت إسبانيا في بداية الثلاثينات معركة انتخابية تقرر فيها مصير الملكية. وتم إعلان الجمهورية بعد سقوط آخر حكومة برأسها الملك « الفونسو الثالث عشر » ونجاح التحالف الجمهوري ــ الاشتراكي[1]. لقد كانت هذه الجمهورية ذات طبيعة بورجوازية إصلاحية، تتكون حكومتها من أحزاب يمينية محافظة وليبرالية، ومن بعض الاشتراكيين المعتدلين. وكان من الطبيعي أن يحتدم الصراع بين اليمين واليسار الذي رفض الجمهورية الليبرالية، وتجلى هذا في الصراع الاجتماعي « الطبقي » الذي عرفته إسبانيا خلال هذه الفترة التي تميزت بعدم الاستقرار.

وجاءت انتخابات 1933 فأعطت الفوز لليمين والوسط والراديكاليين. ومرت هذه الجمهورية البورجوازية بتجربتين برلمانيتين فاشلتين، ذلك أن اليمين عمل على إفشال التجربة الديمقراطية لما رأى أن الأحداث والتغييرات الجذرية أخذت تتجه اتجاها في غير صالحه وتجلى ذلك في التحالف الحكومي بين « لاسيدا » (LACEDA)، الحزب الكاثوليكي، والراديكاليين، ثم موقف اليمين المتطرف الممثل في الملكيين والفاشيين. وفي هذه المرحلة بدأت الاتصالات بين الرجعية الاسبانية وقادة الحركة الوطنية الاصلاحية لشمال المغرب.

ثم أتت أحداث « أستورياس » (Asturias) المعروفة بثورة أكتوبر 1934، فتأسست كومونة « أوفييدو » (Oviedo) التي قمعها « خيل روبلس » (Gil robles) زعيم حزب « لاسيدا »، وكانت القوات التي قمعت عمال مناجم أستورياس مكونة في أغلبيتها من المغاربة المجندين تحت إمرة فرانكو. وهكذا تم فعلًا نسف المؤسسات الجمهورية وتمزيق الديمقراطية البورجوازية.

وقبيل هذه الفترة، بدأ في إسبانيا إعادة تنظيم اليمين المتطرف لمواجهة تصاعد قوة اليسار، وظهر من خلال الأحداث أن حزب « لاسيدا » هو الحزب الرئيسي المضاد للثورة، واستغل زعيمه منصبه كوزير للحرب، وبدأ يقرب إليه الضباط الفاشستيين والملكيين بمنحهم مناصب عسكرية مهمة، وفي هذا الاطار تم تعيين « فرانكو » رئيسا على القيادة العليا للجيش، وكان تنظيم اليمين يتم عن طريق استغلال العواطف الدينية للشعب الاسباني. وفي ظروف تهييء المؤامرة اليمينية سافر وفد عن الحركة الوطنية بالشمال (عبد السلام بنونة، وعبد الخالق الطريس) حيث نزل الوفد ضيفاً عند بعض الشخصيات الفاشية الاسبانية « أصدقاء الوطنية المغربية »[2] وأعلن الوفد وقوفه ضد الديمقراطية في إسبانيا ورغبته في أن يقوم بها حكم أوتقراطي، ثم سلم لائحة المطالب الاصلاحية للحكومة الاسبانية معبرا عن أمله في أن يقوم « تعاون بين الحاميين والمحميين » وكان جواب الحكومة هو تأجيل هذه المطالب الى وقت لاحق واستحالة تحقيقها في هذا الظرف.

ورجع قادة الحركة الوطنية الى تطوان بعد أن أمدتهم الرجعية الاسبانية بمساعدات مالية مهمة لتنظيم الحركة في الشمال داخل حزب ذي بناء هيكلي عصري. وبدأ الطريس يصدر جريدة « الحياة »، وتحت نفس الاسم كانت تصدر جريدة (Lavida) الناطقة باسم الفاشية الاسبانية.

إن ما يدل على اقتناع الطريس ــ زعيم الحزب فيما بعد ــ بموقف الرجعية الاسبانية

وتأييده وتعاطفه مع الحركة الفاشية هو تعبيره عن قلقه وخوفه من التغييرات « الخطيرة » (في نظره) التي كانت تشهدها إسبانيا. وبالفعل جاءت انتخابات فبراير 1936 بإسبانيا لتؤكد قلق الطريس وأعضاء الحركة الآخرين من التطورات الحتمية لمسلسل الأحداث بإسبانيا، فكانت صراعاً بين اليمين واليسار. وبات واضحاً أن انتصار اليسار الممثل في الجبهة (الجبهة الشعبية) سيؤدي لا محالة الى ثورة أو الى ديكتاتورية عسكرية[3].

ومع صعود « الجبهة الشعبية » (Frente Popular) إلى الحكم تم الاتصال بشكيب أرسلان في « جنيف » قصد تهيء لقاء أحزاب اليسار بكتلة العمل الوطني للشمال وتوجيه الدعوة الى قادة الحركة الوطنية للحضور الى برشلونة، وقد تم هذا اللقاء مع أحزاب اليسار الاسباني الذين ضمنوا للوفد المغربي استقلال البلاد التام وقيام تعاون مشترك بين البلدين على قدم المساواة[4].

ولم يخلف هذا اللقاء أية نتيجة إيجابية بسبب تملص قادة الحركة من الحوار الذي كان قد بدأ منذ تلك الفترة. فالواقع يؤكد أن قادة الحركة الوطنية، لم يكونوا براغبين في صعود أحزاب اليسار إلى الحكم بإسبانيا، تلك الأحزاب التي كانت أغلبيتها تناهض الامبريالية.

هناك من وقف منذ البداية ضد التدخل الاستعماري في شمال المغرب كالحزب الاشتراكي العمالي، وكذا اليسار الجمهوري والكنفدرالية الوطنية للشغل (C.N.T)، وكان الحزب الشيوعي الاسباني قد طالب من رئيس الحكومة « لارغو كابا يرو » (الاشتراكي) نهج سياسة معتدلة تجاه المسألة المغربية[5]. ويدعي الشيوعيون أن « لارغو كابايرو » امتنع عن اتباع سياسة تحريض المغاربة ضد تمرد فرانكو بشمال المغرب وتعترف السيدة « دولوريس إباروري » (لاباسيوناريا) (La Pasionaria) (رئيسة الحزب الشيوعي) أن المبادرة الوحيدة في هذا الشأن كانت هي السفر الذي قام به الى الرباط « كارلوس بارايبار » في محاولة يائسة لارشاء الوطنيين المغاربة بالشمال بهدف الثورة ضد فرانكو[6].

فهل يبدو أن قادة الحركة الوطنية بالشمال لم يدركوا طبيعة التطورات السياسية التي أدت الى تفجر الحرب الأهلية الاسبانية ؟ وألم يكونوا على علم بأنهم أصبحوا طرفاً في المؤامرة الفاشية الاسبانية منذ سنة 1934 ؟ إن السلطات اليمينية كانت تدرك الأهمية الاستراتيجية للمنطقة الشمالية كقاعدة لاعلان التمرد الفاشستي في حالة وصول اليسار الاسباني الى الحكم. ولهذا بحثت عن « شريك » من أبناء الأرض. ولم لا ؟ ما دامت هناك نخبة احتكرت الوطنية لمصالحها الطبقية.

ثانيا : حزب الاصلاح.. مرحلة جديدة في العلاقات مع الفاشية الفرنكوية :

وجد الاصلاحيون المغاربة في ظروف الهجوم الفاشيستي للكتائب (الفلانخي) ضد الجمهوريين في إسبانيا فرصة يعلنون فيها عن رغبتهم في تأييد التحالف الكنسي ــ الفاشيستي لقاء الاعتراف بحزب الاصلاح الوطني كمنظمة وطنية سياسية تقف داخل السيطرة الاستعمارية في مواقع «المعارضة» فجاء ظهور الحزب في 18 دجنبر 1936، بعد بضعة شهور من إعلان فرانكو تمرده ضد حكومة الجبهة الشعبية . وقد تم تأسيس هذا الحزب بناء على اتفاق تم بين السلطات العسكرية المتمردة الفاشية وبعض قادة الحزب [8]، وهناك مذكرة

عسكرية صدرت في تطوان بتاريخ 29 دجنبر 1936، أعطت التعليمات للحكام العسكريين والمخابرات الاستعمارية لتشجيع المغاربة على الانخراط في حزب الاصلاح الوطني.

وبعد تأسيس الحزب تحت حماية ورعاية السلطات الفاشية المتمردة بدأ يعمل بكل حرية وتحت حماية القانون الاستعماري. ذلك أن فرانكو، لكي يدعم تمرده ضد الحكومة الجمهورية اليسارية، أحسن بضرورة خلق «حزب شقيق» كما أن عبد الخالق الطريس لم يكن يخفي إعجابه بالأحزاب الفاشية المتصاعدة في تلك الفترة، خاصة بعد زياراته المتعددة لاسبانيا والعلاقات الشخصية التي كانت تربطه بقنصل ألمانيا النازية الدكتور «ريشتر» بتطوان [9].

وأصبح الحزب يمارس نشاطه علنيا، حتى ان قاداته لم يكونوا أحياناً يحتاجون لطلب إذن من السلطات الاستعمارية لعقد أي تجمع، وأمست صحافته تعبر بصورة واضحة عن النهج المنحرف الذي سينهجه الحزب فيما بعد.

لقد دشنت مرحلة جديدة من العلاقات : إيديولوجية واقتصادية، نتج عنها نمو مصالح طبقة بجانب مصالح الاستعمار وبالتعاون معه في جو من التفاهم التام. كما دلت ممارسات الحركة الاصلاحية (النخبوية) على وعي جاد بمصالحها الطبقية، فكثيرا ما كانت تحتل مواقع سياسية تمتلك زمام المساومة من مركزها الطبقي وتساهم في قمع هيجان القبائل بعد الثلاثينات وقد سعت هذه الطبقة (النخبة المختارة) نحو النهوض بإصلاح اجتماعي؛ ورغم ذلك فإن الحركة ظلت واقعا مرفوضا من طرف شرائح اجتماعية متباينة رأت فيها حركة نخبوية، بل وجد من وجه لها انتقادات، كتنظيم أجنبي، وأتهم قادتها في تلك الفترة بميلهم للفكر الفاشستي. وهذا بارز في بعض مقالات جريدة «الحرية» (لسان حال حزب الاصلاح) التي كانت ترد على هذه الاتهامات.

وفيما يتعلق بنشاط الحزب، فإنه كان ينحصر بصفة خاصة في مدينة تطوان. ولم يستطع استقطاب سكان الريف بالرغم من أنه فتح بعض المكاتب في المناطق الجبلية. ويرجع ذلك الى هيكله الذي ينتظم في إطار شبه عائلي من جهة، ومن جهة اخرى لمشاركته في مؤامرات استعمارية ضد أهل الريف و«جبالة»، وتحالفه مع بعض قواد الاستعمار أمثال القائد عبد القادر والقائد عمر وشن.

وكل من تتبع نشاط الحزب يجده دائما يعمل داخل استراتيجية فرانكو في معاداته لليسار، وعدائه للدول التي لم ينل تأييدها، وكان هذا النشاط موجهاً بالدرجة الأولى ضد فرنسا، وكأن شمال المغرب لم يكن مستعمرا. وقد قام الحزب بتنظيم تجمع شعبي سنة 1937 للاحتجاج على سياسة فرنسا القمعية أثناء اعتقال الوطنيين بالجنوب، والتنديد بسياستها البربرية، كما ساهمت صحافته بحملتها في إدانة الاستعمار الفرنسي. ولم يقتصر ذلك على الصحافة فحسب بل حتى في إذاعة تطوان وإذاعة أشبيلية، وكان ذلك يتم بإيعاز من حكومة فرانكو.

والذي يهمنا في هذا العرض هو العلاقات التي ربطت حزب «الاصلاح الوطني» بحزب «فلانغي» (الكتائب) الاسباني. فإذا حاولنا المقارنة بينهما نجد التشابه واضحا في بنائهما الهيكلي وفي التنظيمات الموازية لهما. فبخصوص التنظيم نجد فرقة «فتيان الحزب» وهي مليشيا ذات زي شبه عسكري، واستعراضاتها تكون على الطريقة العسكرية والتحية برفع اليد مبسوطة على النمط الفاشي ثم لباس القائد العام الخ... بل نجد ايضا أن الحزبين كانا يستندان

على نفس المعطيات الايديولوجية وبالدرجة الاولى الوطنية ـــ الدينية، كالدعوة إلى الروحانيات، واحياء أمجاد الماضي الغابر. لقد دعا حزب الاصلاح إلى مغرب المرابطين والموحدين، أما حزب «فلانخي» (الكتائب) فكان يدعو إلى إعادة بناء إسبانيا «الملوك الكاثوليك».

ومن الناحية الثقافية عمل كل من الحزبين على فتح مراكز ثقافية لتعليم اللغتين الايطالية والألمانية. أما بالنسبة للاعلام فنجد الجرائد التي كان يصدرها حزب الاصلاح لم تكن إلا ترجمة للجرائد التي كان يصدرها حزب «فلانخي» la vida (الحياة)، la nación (الأمة)، LA libertad (الحرية).

ففي ذلك الاطار تم تطوير إيديولوجية الحزب، وكان كل ذلك يوحي بأن هناك خطة لمناصرة الفكرة الفاشيستية، فضلا عن العناصر الشخصية المرتبطة «بالزعيم القائد» وإذا كان الأمر هنا يتعلق بحالتين مختلفتين، فإنهما مرتبطتان بعامل الممارسة الحزبية والسياسية، وكلاهما نجح : حزب «فلانخي» نجح بالعناصر العسكرية الفاشية وفرض إيديولوجية على الدولة، أما حزب الاصلاح فقد نجح في التعايش مع السلطات الاستعمارية وقاعدتها الايديولوجية. وأصبح التعامل بينهما ذا مصادر متعددة، سعيا إلى إقامة تعاون اجتماعي «يعود بالمنفعة على الأمتين : الاسبانية و المغربية» (الطريس).

والأحداث السالفة تدل على أن فرانكو استعمل حزب الاصلاح لظرف سياسي معين، هو ظرف الحرب الأهلية الاسبانية، كما أن حزبي «الاصلاح»و«فلانخي» رأيا في فرانكو «منقذ» الأمة الاسبانية من الشيوعية.

وإذا حللنا تلك المعطيات الأنفة فإننا ـــ ولاشك ـــ سنستخلص أن حزب الاصلاح كان حزبا فاشيستيا وإن لم يدرك بعض أتباعه هذه الظاهرة. فهو يمثل مصالح طبقية محدودة داخل المجتمع المغربي بالشمال (تطوان بالخصوص)، ويحافظ على مصالح الرأسمالية الاستعمارية.

ثالثا : المعطيات الايديولوجية للحركة الاصلاحية (حزب الاصلاح الوطني):

يمكن اعتبار الحركة الوطنية في الشمال مرحلة في السير الوطني، لها أسلوب في التفكير، وسلوك في الممارسة، ويمكننا طرح هذا الفكر وهذا العمل من خلال تجميع بعض الملاحظات.

الملاحظة الاولى : الصبغة الوطنية الدينية : كانت الحركة في الواقع تحاول أن تستغل العواطف الدينية لدى الجمهور كأداة لاستقطاب الاهتمام الوطني. وهذا العنصر الديني جعل الكثيرين ممن كتبوا عنها يجهلون طبيعتها الحقيقية وأصولها الفاشية.

ان تصور الوطنية عند زعيم الحركة يختلط الى حد ما بتصوره للدين «الوطنية والدين شيئان لا محيد لأحدهما عن الأخر. فالوطنية للدين تخدم والدين للوطنية السامية يؤهل»[15] وعلى أساس هذا المفهوم كان حزب الاصلاح ينظم رحلات الى جبل العلم لزيارة ضريح المولى عبد السلام بن مشيش. ولقد خصصت صحف الحزب عموداً من صفحتها الاولى للوعظ والارشاد والدعوة إلى تفضيل الروحانيات والرجوع إلى سيرة السلف الصالح. وكان هذا عائقاً أمام نمو الوعي الشعبي ضد المستعمر. والتخلي عن كل ما من شأنه أن يذكي الصراع الطبقي الذي كان في نفس الوقت صراعاً ضد المستعمر. وعمل الحزب على توجيه الجماهير توجيها

كان في صالح الاستعمار والطبقات المتحالفة معه.

إن إديولوجية حزب الاصلاح الوطنية الدينية، كانت تعتمد على الفكر الفاشيستي كأساس موحد للعناصر المشتتة لبعض قطاعات البورجوازية التقليدية، والتي كانت تجتمع على ظاهرة التمركز وهو جانب منظم وموحد لطبيعتها المتعددة.

وإذا كان حزب الاصلاح الوطني لا يفرق بين الدين والوطنية، فإن حزب «فلانخي» الاسبانب أطلق اسم الحرب الصليبية (la cruzada) على الحرب الأهلية الاسبانية، كما أن كل من انخرط في صفوف الحزب « الجيش المنقد للوطن، هو في نفس الوقت راهب وجندي وصليبي» (أربا إسبانيا 1936.8.6)، والفرق بينهما هو الدين

الملاحظة الثانية : العنصر «الايديولوجي ـــ الزعيم»

إذا أخذنا بالتحليل كل النزعات الفكرية والسياسية المتواجدة داخل حزب الاصلاح، سنخرج بملاحظة أساسية كان لها دورها في تطوير إديولوجية الحزب، وحين يتعلق الأمر باتجاهات «مختلفة» داخل الحركة فإننا نعثر عليها مرتبطة بحكم موقعها الطبقي بعوامل مشتركة، والعامل الأساسي لهذا الارتباط هو«العنصر الايديولوجي ـــ الزعيم»[1] الذي كان يوحد في ما بينهما.

هناك عناصر شخصية مرتبطة «بالزعيم القائد»و«الرئيس الملهم»، وتحليل هذه العناصر هو عمل حاسم لفهم الممارسات السياسية والحزبية ذات النزعة الديكتاتورية «الشعب المغربي غير جدير بالديموقراطية» وفكرة الحزب الواحد «لا يعقل أن يوجد في الأمة حزبان، ولا يسمح ضمير الأمة بوجود حزب أخر» (الحرية 1937/8/23).

إن العناصر المرتبطة ببعض شخصيات الحزب، وخاصة «الرئيس» هي تعبير عن الأزمة السياسية الحادة للطبقات المسيطرة اقتصاديا تحت ظل الحماية الاسبانية والعاجزة عن تحويل نزعتها المهيمنة ذات الطبيعة المتعددة. فالعناصر التي كان يتكون منها الحزب كان لها استقلال ذاتي، وهي مشتتة، منها من كان يحتل مناصب وزارية في الحكومة المحلية، ومن يشغل مناصب في الادارة الاستعمارية، ومن يقوم بالتوجيه الديني داخل السياسة الاعلامية الاستعمارية «إننا في ميدان العمل الوطني كأفراد بالنسبة للمسؤولية، وإن كانت لنا صفة حزبية .. قد تميل بنا الظروف إلى الاختلاف في وجهة الأنظار» (الحرية 1941.3.3).

وعبر مراحل مر بها حزب الاصلاح الوطني نجد الطريس «الزعيم» وحده في الحزب، ويقوم بجميع الأنشطة دون مساعدة مسؤولين في الحزب، وفي فترات نجد تلك العناصر تتوحد وتنصهر في كتلة واحدة، وهذا راجع لما يسميه «سيرخيو فيلار» إلى «العنصر الايديولوجي ـــ الزعيم» الذي له القدرة على تحويل «أوامره إلى أفكاره».

ففي الحالة الايطالية نجدأن الزعيم يسبق الايديولوجية وهو الذي يساهم في بنائها الهيكلي، كما أننا نجد في الفاشيستية الاسبانية والفرانكوية العنصر «الايديولوجي ـــ الشخصي» «الزعيم» له نفس الدور والأهمية كما في الفاشية الايطالية والنازية الألمانية. إن كل من قرأ كتابات الطريس يجده متأثرا بالزعيم الفاشيستي الاسباني «خوسي أنطونيو دي ريفيرا» كذلك نجده متأثرا بفكرة النخبة الأرستقراطية والصفوة المختارة، التي يجب أن تقود و لا تقاد» والتي يجب أن تحتكر الزعامة والنضال. كما أن فكر الطريس كان يقوم على تمجيد السلف وإعادة

أمجاد الأمة. وتفضيل طبقة اجتماعية على باقي الطبقات الأخرى، ومن الأفكار التي أخذها عن الفاشية الاسبانية، فكرةاعتبار العائلة الخلية الأولى للمجتمع في تنظيمه الحزبي، مثل التمثيل في الكورطيس الفرانكوي الذي كان يقوم على عضوية العائلات الأرستقراطية والبرجوازية والنبلاء وغيرهم...

الملاحظة الثالثة : النضال المعادي للعنف :

لم يكن حزب الاصلاح الوطني يقبل في صفوفه دعاة العنف ضد الاستعمار، فسلوك طريقة النضال السلمي مكن البورجوازية الاصلاحية من الحفاظ على الامتيازات المحدودة التي حققتها حتى ذلك الوقت، كما أن الحياة الاجتماعية الأنيقة والموقع الطبقي لقادة الحركة وعلاقتهم بالادارة والمصالح الاستعمارية جعلهم يرفضون العنف كأداة سياسية لتحرير البلاد، ومن ذلك عزل البادية عن النضال الحقيقي، ووقوف الحزب كعائق لتطور الكفاح المسلح « ولا تفهم هذه القبائل في الثورة إلا أنها حاملة السلاح فلا تعقل معنى الثورة الاصلاحية ولا التهذيبية » (الحرية 1939.1.3). بل ذهب بعض أعضاء الحزب الى حد القدح والتهديد بثورة المغاربة ضد الاستعمار « وإنني أقسم أن هؤلاء المغاربة القساة المتمردين العصاة لا ينفع فيهم الوعظ مشافهة فضلا عن الارشاد بالمقالات.. بل هم قوم لا يرضون بالنظام والطاعة إلا تحت الضرب الشديد والعذاب الأليم.. هذه هي حال الشعب المغربي **الخبيث** »(الحرية 1939.11.3). ونتيجة لهذا الموقف السلبي المسالم فإن الاضراب والتظاهر يعتبران عملا مقيتا «محرما على أنصار الحزب القيام بأي عمل يخالف البرنامج المقرر وأن يبتعدوا عن تنظيم كل أنواع المظاهرات» (الحرية 1938.11.11)، هذه العقلية كانت حاجزا أمام الجماهير للالتحاق بصفوف الحزب، وكل هذا كان يستند على معطيات إيديولوجية نجدها بارزة في خطب الطريس وكتاباته الصحفية والادبية الملونة بالعبارات التي كانت تستعملي في ذلك الوقت في صحافة الفاشية الاسبانية. وهكذا أصبح واضحا في أواخر الاربعينات «أن الحزب لن يقر أساليب العنف والاعتداء، ويفضل سلوك طرق السياسة والاقناع» وكان خير ما ينصح به أنصاره فيما بعد «الصبر والاعتدال». لقد أنجزت البرجوازية الاصلاحية مهامها في عرقلة نمو الحركة الثورية المسلحة ضد الاستعمار. وأجهضت الروح الثورية التي يمتاز بها أهل الريف، واصبحت تشكل الخط الستراتيجي الاصلاحي الذي لم يكن هدفه محاربة الاستعمار بقدر ما كان يهدف تصحيح عيوبه وتحسين ظروف وجوده.

الملاحظة الرابعة : الاعتياد سياسيا على أسلوب «المطالب» وتقديم العرائض

تميز موقف الوطنيين الاصلاحيين من أعمال العنف التي تعرض لها العمال المغاربة في تطوان أثناء المظاهرة التي قاموا بها يوم 5 ماي 1931 دفاعا عن مطالبهم العمالية، بالسكوت وغض الطرف عن وحشية الجيش الاستعماري. إن اهتمام هؤلاء (الاصلاحيين) الأساسي كان هو التفاوض مع السلطة الاستعمارية لأجل القيام بالاصلاحات الممكنة والمنسجمة مع ميثاق الحماية. وفي هذا الاطار سلم عبد السلام بنونة بتاريخ 6 يونيو 1931 ورقة تتضمن بعض المطالب الاجتماعية الى رئيس الجمهورية «الكالاثامورا» (ALCALA ZAMORA)وطالب بعد تحية

الجمهوريين بقيام «تعاون بين الحامين والمحميين.. متحدين في مصلحة واحدة تجعل من الجميع عائلة واحدة..»[12]. وفي نوفمبر 1933 جاء الى تطوان الرئيس «ثامورا» يزور المنطقة السعيدة ويتفقد شؤون أهلها فزمر المغرب له، حتى من فوق المآذن وقدم لالحات بمطالب الأمة[13] 13 تتعلق بانتخاب مجالس بلدية وإنشاء مجلس عام للشورى وضمان حرية النشر والصحافة والاهتمام بالتعليم وجعل اللغة العربية أساسية، وتخصيص اعتمادات للفلاحين في ميزانية الحكومة ، بيد أن هذه المطالب لم تلب لأسباب تتعلق بطبيعة الحكم آنذاك في إسبانيا.

وفي سنة 1936 أوفدت الكتلة الوطنية وفدا إلى مدريد برئاسة عبد الخالق الطريس للاتصال برجال إسبانيا وهيئاتها والتذاكر معهم «فيما يعود بالمنفعة للأمتين».

ولما بدأ التحرك الفاشيستي ضد حكومة «الجبهة الشعبية» في إسبانيا بعد ثلاثة أشهر من فوزها في الانتخابات، أخذ الحذر يطبع مواقف الحركة الاصلاحية، الى ان أضحى تحالفها واضحا مع حركة فرانكو ضد الجمهوريين. وعندها بدأ التملص من الحوار الذي كان قد جرى بين الحكومة الوطنية الاسبانية والاصلاحيين. «إن الجهاد الوطني يلزم ألا يسمع من جديد نغمة تحالفه مع «الحمر» ضد الحكومة المؤقتة، لأنها نغمة بليدة يعلم المسؤولون من رجال الحكومة أنها محاطة بظروف تجعل قبولها مستحيلا من جهتنا » (الطريس). الظروف هي تحالف حزب الاصلاح مع فرانكو الضابط المتمرد والذي أسس حكومة «بورغوس» الوطنية ضد حكومة مدريد، حكومة الجبهة الشعبية.

وفي سنة نصر الفاشيين وقف الزعيم الوطني خطيبا فنوّه باسم فرانكو وباسم المقيم العام «بايبدر» (Beigbader) وأثنى على سياستهما. وفي نفس الوقت كانت اللجنة التنفيذية لحزب الاصلاح تقدم إلى المقيم العام نسخة من المطالب. فيصرخ بايبدر قائلا : «إنني مغتبط بهذه المطالب ... فحزب «إستقلالي» كحزبكم يلزم ألا يفكر أولا في الاستقلال، بل يفكر في مؤهلات الاستقلال وادخال الاصلاحات اللازمة» (الحرية 1938.3.10).

والواقع أن الجنرال فرانكو كان يعي مستقبل تحالفه مع البورجوازية الاصلاحية ، ويبارك أسلوبها في «النضال» الذي يعتمد سياسة المطالب : «إنه لمما يسرنا أن تصبح إسبانيا حليفة لنا والطريق هو تدشين عهد جديد للتعاون الحق على أساس مطالبنا العادلة» (الحرية 1938.6.16). وتمشيا مع السياسة الجديدة التي رسمها فرانكو لحكومته، جاءت وعوده لعبد الخالق الطريس «إن الوعود التي وعدتكم بها ليست وعودا جوفاء..وعما قريب تصبح حقائق، وإسبانيا مصممة على مساعدة المغرب ماديا ومعنويا» (الحرية 1939.9.10).

رابعا : الدعاية الاصلاحية والعمل في إطار الاستراتيجية الفرانكوية

مع بداية الحرب الأهلية الاسبانية شهدت مدينة تطوان مظاهرة جماهيرية ضخمة كادت أن تحبط تمرد القوات الفاشية التي إنطلقت من الشمال. وقد خلفت هذه المظاهرة عددا من الضحايا، إلا ان تدخل الوزير «الصدر» أحمد الغنمية ممثل الاعيان والاقطاع في الحكومة الخليفية أوقف التمرد الشعبي ضد السلطات الفاشية، وساهم حزب الاصلاح بدوره في تهدئة هيجان الجماهير. وفي نفس الوقت كان يتم تنفيذ حكم الاعدام بالثكنات العسكرية

في مجموعة من متمثلي الاحزاب اليسارية الاسبانية بتطوان الذين اتهموا بتحريك وتحريض الجماهير (ومعهم بعض المغاربة).

وبعد أيام جاء قرار الحكومة المحلية بتجنيد المغاربة الفقراء والفلاحين في صفوف الجيش الاسباني الفاشيستي. بتزكية فتوى أصدرها الفقيه التزكاني[14] وبعض رجال الدين من عملاء الاستعمار، كما غادر تطوان عدد من المبعوثين نحو قبائل الحدود بين المنطقتين لأجل تجنيد بعض رجالها وتدعيم قوات فرانكو مستندين في سعيهم على إمكانية قيام حرب تحريرية تمكن من تحقيق وحدة المغرب واستقلاله[15] في حين كان أحد القادة الاصلاحيين يعلن من إذاعة «سلامانكا» عن مساندة فرانكو في إطار الدعاية الاصلاحية ويطلب من المغاربة القتال بكل بسالة الى جانب فرانكو.

ولاقت هذه الدعاية الفاشية رد فعل قوي عند بعض المجندين المغاربة الذين ثاروا ضد هذه الحملة المضللة لصالح الفاشية الفرانكوية، إذ توضح لعديد منهم تورطهم في مؤامرة التمرد ضد حكومة «الجبهة الشعبية» : أخيرا بدأ المغارب يفهمون ويتقدمون إلى الأمام — فارين من جيش فرانكو — ويرفعون بنادقهم ويصيحون عاش الرفيق «أثانيا» عاش الرفيق «أثانيا» (Azaña) وينضمون الى الجيش الجمهوري الشعبي، وتكونت منهم كتيبة تحت قيادة الشاب المغربي المناهض للفاشية مصطفى بن قاق الذي وجه نداء الى أهل الريف للتمرد ضد الضباط الفاشيين»[16] وهذه شهادة تبين عن مقدار وعي الطبقات الكادحة بالخطر الفاشيستي الامبريالي.

ولكن لكي يضمن فرانكو مزيدا من الدعم والتأييد أمر المقيم العام «بايبدر» بإعطاء الحكومة الخليفية والوطنيين الاصلاحيين بعض الوعود والشروع في تنفيذ بعض الاصلاحات «واليوم يقدم الزعيم فرانكو لكم وفاءه بالوعود : عشرة ملايين بسيطة للأشغال العامة، العفو العام، توسيع التعليم....» وأصبح الطريس يتسلم مساعدات مالية هامة من السلطات الاستعمارية ومن قنصل ألمانيا النازية بتطوان الذي كانت تربطه به علاقة شخصية[17].

وهكذا أصبح في يد فرانكو تنظيم سياسي خاص الحساسية لتلبية الحاجة السياسية والاقتصادية التي فرضتها ظروف الحرب الأهلية الاسبانية، ذلك أن فرانكو كان يؤمن بنظرية «كانوباس» (canovas) التي تقول : «أن الذي يحكم ضفة من البحر الأبيض المتوسط يستطيع أن يحكم الضفة الأخرى». وكان هذا عند «كانوباس» بمثابة قانون تاريخي لأنه كان يعتبر أن حدود إسبانيا الطبيعية توجد عند حدود الاطلس».

لقد أصبحت منطقة الشمال قاعدة تموين قوات فرانكو ودعمها في الحرب الأهلية، وبدأت ألمانيا ترسل المعدات الحربية ، وكانت بعض طائراتها تنطلق من مطار «سانية الرمل» بتطوان والسهل الأصفر بكتامة لقنبلة جنوب إسبانيا. ومع الدعم العسكري الألماني بدأت بعثات وكلاء المخابرات السرية الألمانية التي تواجدت بوفرة في المنطقة الخليفية، كما حضر إلى تطوان تقي الدين الهلالي الذي كان يعمل في إذاعة برلين في برامجها الموجهة للدول العربية. وكانت الادارة النازية قد أوفدته إلى تطوان لمساعدة حزب الاصلاح والقيام بالدعاية للنازية في الصحف التي كان يصدرها الحزب بالمدينة، وأيضا للعمل بجانب قادة حزب الاصلاح الوطني

على تنظيم الحزب وبناء هيكله.

ولما كان الاصلاحيون أظهروا استعدادهم العملي في مساعدة فرانكو، ونجاحهم في تهدئة الأوضاع الداخلية وتحويلها لصالح الفاشيستية الاسبانية صدر مرسوم بتاريخ 17مارس1937 تم بموجبه تعيين الطريس على رأس وزارة الأحباس، كما عينت حكومة فرانكو قنصلا مغربيا لها بمدينة جدة هو محمد أنقار[18]. وفي شهر ماي من نفس العام استقبل فرانكو وفدا عن الحجاج المغاربة لدى عودتهم بإشبيلية، وألقى فيهم كلمة جاء فيها : «في هذه المحضات الخطيرة بالنسبة للعالم، في الوقت الذي ظهر فيه خطر يهدد الجميع، وهو خطر رجال لا إيمان لهم، يجب على جميع المؤمنين أن يتحدوا لمواجهة من لا إيمان لهم. وأنتم المسلمون أحسن من يفهم ويعي هذا الكفاح، وعندما ستكبر زهور السلام سنمنحكم أحسن الزهور»

إن الجنرال فرانكو كان يدرك «التهديد الوطني» لنجاحه في الحرب الأهلية، والطريق هو تنفيذ بعض المشروعات لصالح البورجوازية الوطنية التي كانت تسيطر على النشاط السياسي : «إذا أردتم أيها الاسبانيون المحافظة على صداقة المغاربة.. ساعدونا كما ساعدناكم» (الحرية 1937.9.20).

وهكذا تم إنشاء الشركة الصناعية الاسبانية المغربية (أسندت رئاستها للطريس)، والشركة الكهربائية الخاصة بالأحياء التقليدية المغربية، فأصبحت بجانب شركة «النصارى» شركة المسلمين ، فضلا عن امتيازات ذات صبغة ثقافية مثل تدريس اللغة العربية وجلب أساتذة من الشرق العربي، وإرسال بعثات الطلاب من أبناء البورجوازية التقليدية للشرق (لم يتحمس كثيرا الاصلاحيون لارسال بعثات إلى جامعات إسبانيا)، كما استمر إرسال الحجاج على متن باخرة «الماركيس دي كومياس» والتي سميت «بالمغرب الأقصى».

وبعد توطيد دعائم حزب الاصلاح الوطني أصبحت قيادته مندمجة في الأوساط الاستعمارية، تربطها بسلطات الحماية علاقات وطيدة : إديولوجية ومالية.

وكان نشاط الحزب دائما موجها في إطار الاستراتيجية الفرانكوية. ففي سنة 1937 نظم الحزب تجمعا بمسرح اسبانيول في تطوان حضرته بعض شخصيات حزب «فلانخي» (الكتائب الاسباني) إلى جانب قادة حزب الاصلاح، وتم أيضا لقاء بمركز جمعية الطالب المغربية بين الطلبة الاسبانيين الفاشيستيين والطلبة الاصلاحيين، وتناول الكلمة في هذا التجمع الطريس و «بدروليون» (pedro leon) الزعيم الفاشيستي الاسباني الذي أدان أحزاب الجبهة الشعبية ووصفها بأعداء وحدة المغرب وأكد الطريس أن المغرب لن يستطيع العيش بدون إسبانيا، وهي التي ستحقق له حريته ووحدته.

وبعد ثلاث سنوات، مع نهاية الحرب الأهلية الاسبانية، نشرت جريدة«بريد الصباح» بتطوان سيرة بطل «الثورة» (فرانكو) لأنه أقرب الناس إلينا جغرافيا، ولأنه نبغ في المغرب وقام فيه بحركته الشهيرة.

إن الطابع الطبقي ـــ النخبوي الذي تميز به البناء الهيكلي للحزب جعل منه ركيزة إيديولوجية للنظام الفرانكوي الاستعماري. ومقابل هذا كان الحزب يحصل دائما على إمتيازات لصالح الطبقة التي كان يمثلها. وأول عمل قام به الاستعمار الاسباني هو استقطاب العائلات الغنية وتنظيمها داخل حزب «وطني» اصلاحي، كأداة للتوجيه السياسي الفاشي للحركة

الفرانكوية مقابل مصالح مادية وسياسية، فأصبحت الطبقة البورجوازية من ملاكي العقارات والتجار الكبار التي تكونت على أساس أرستقراطي رجعي تضمن للوجود الاستعماري الاستقرار والاستمرار.

خامسا : وقوف الحركة الاصلاحية بجانب الفاشية والنازية :

مع نهاية الحرب الأهلية الاسبانية التي دامت ثلاث سنوات (36 ــ 39) أقيم احتفال كبير في جميع مناطق الشمال بمناسبة النصر الذي حققته الفاشيستية الاسبانية على الجبهة الشعبية التقدمية في إسبانيا. وعقد حزب الاصلاح الوطني عدة تجمعات قدم فيها التهاني للجنرال فرانكو وحزب الكتائب الاسباني.

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهننا هو : هل كان طبيعيا ان تقف الحركة الاصلاحية في الشمال إلى جانب الفاشيستيين خلال الحرب الأهلية الاسبانية ؟ لماذا تملصت من الحوار بعد أن أقدمت عليه مع أحزاب اليسار ؟ إن كلاما كثيرا يمكن أن يقال بخصوص هذا «التكتيك» الذي انتهجته الحركة الاصلاحية، والذي يرمي في النهاية إلى تحقيق «الاستقلال» بأي وسيلة، غير أننا نخطىء كثيرا حين لا نراجع هذا التكتيك ذاته مراجعة طبقية[19].

لقد كان تفجر الحرب الاهلية الاسبانية إيذانا بحتمية المسار الذي سوف تتخذه الحركة الاصلاحية بوقوفها إلى جانب الحركة الفاشيستية التي كانت تساندها الكنيسة والاحتكارات الأجنبية فضلا عن الأنظمة النازية والفاشية في ألمانيا وإيطاليا. إن التبرير الذي قدمه زعماء الحزب ينطوي على عداء مرير للحركات التقدمية الديمقراطية، ولكل فكرة تدعو إلى المساواة في الثروة، يقول الطريس في هذا الصدد : «دفع المغاربة الى الكفاح (بجانب فرانكو) الخوف من مس عواطفهم الدينية إذا استفحل أمر الشيوعية وطغى على هذه البلاد.. لأن المسلمين بطبيعة أحوالهم أعداء ألدّة لفكرة التساوي في الثروة» (الحرية 1939.3.26). ويكمن هذا العداء للشيوعية بالنظر الى إيديولوجيتها القاعدية المعادية للثقافة السلفية الارستقراطية التي يمثلها قادة الحركة الاصلاحية، فالطريس كان يرى أنها «أسد مفترس»، وربما لنفس السبب كان الطريس لا يعترف بوجود شيء إسمه المقاومة الفرنسية ضد النازي[20]. ورغم الانتقاد الذي وجه للحركة الاصلاحية من بعض الأقطار الاسلامية بسبب وقوفها الى جانب الحركة الفاشية، فإن الطريس كان يعتبر تلك الحملات «كلها نتيجة أجرة أو رشوة من فرنسا أو من الشيوعية نفسها» (الحرية 1939.3.26).

لقد مالت الحركة الاصلاحية، انطلاقا من تبنيها للفكر السلفي ومقولات بعض أقطابه، الى الاقتناع بامكانية قيام «وحدة اسلامية» ثم تطورت هذه الطموحات ــ خاصة بعد أحداث تركيا ــ ضمن إطار القومية العربية، فكانت زيارات متعددة لأطر الحزب نحو المشرق العربي، وتم فتح دار المغرب بالقاهرة ومشاركة وفود الحزب في اجتماعات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، وفي المؤتمر البرلماني للدفاع عن فلسطين.... ولقد كانت المسألة بالنسبة للطريس الزعيم وللمثقفين الاصلاحيين البورجوازيين مسألة إستعادة الذات. كما وجد الاصلاحيون سندا مشجعاً في الحكومة الاستعمارية للسير نحو تحقيق هذه الطموحات والتي اتخذتهم «كحصان طروادة». وذلك في إطار مساعدة إسبانيا للخروج من العزلة الدولية

المفروضة على نظام فرانكو. لقد رأت اسبانيا في قادة حزب الاصلاح أداة لتنشيط العلاقات مع العالم العربي والاسلامي زيادة على أن الخط الاستراتيجي لهذه السياسة كان يهدف الى خلق متاعب لفرنسا.

وقد لعبت صحافة الحزب وإذاعة تطوان، فضلا عن تمكينه من استعمال إذاعة إشبيلية، دورا رئيسيا في تقوية موجة النقمة والاحتجاج على سياسة فرنسا في المنطقة الجنوبية.

يقول الطريس في تعقيبه على كتاب «كاميلو بروسيا» (حول السياسة الخارجية لإسبانيا) «إن الكاتب قد عبر عن رأينا.. فنحن ندعو إسبانيا الى اعتبار معاملة هذه المنطقة بالحسنى احساناً الى العالم الاسلامي أجمع ونحن على استعداد دائم لتقوية علاقتها بالأمم الاسلامية وبذل كل ما في وسعنا وتحت تصرفنا لجعل نفوذها الروحي بين المسلمين يقوى يوما بعد يوم» [الحرية 1939/12/19].

فهل يمكن تفسير موقف الحركة الاصلاحية من حكومة الجبهة الشعبية وانحيازها لجانب الفاشية الاسبانية بأنه خاضع للسياسة الدولية ؟ وهل نتجت بسبب الضغوط الممارسة من طرف الدول ذات الأنظمة الفاشية التي كانت ترقب بعين الحذر خوفاً لما اتجهت الأحداث في صالح اليسار الذي رأت فيه تهديدا لمصالحها الفاشية ؟ والأمر هنا يتعلق «بالتهديد الشيوعي» في منطقة البحر المتوسط، وفي هذا الاطار جاءت اتصالات الفاشية الايطالية بالفاشية الاسبانية وهذه الأخيرة هي التي أملت موقفها على قادة الحركة الاصلاحية.

إن العداء الشديد لفرنسا الاستعمارية والشيوعية «المفترسة» ومؤازرة الحركة الفرانكوية الفاشية في نفس الوقت جعل «الوطنيين الاصلاحيين» يكشفون عن انحيازهم لألمانيا النازية، فمع بداية الحرب العالمية الثانية أقام حزب الاصلاح احتفالا كبيرا بالنصر الذي حققته قوات «هتلر» سنة 1940[21] ونظمت مظاهرة ضخمة قادها الطريس وبنونة والتهامي الوزاني وبعض شخصيات حزب «فلانخي» (الكتائب الاسباني) الى باب قنصلية ألمانيا النازية بمدينة تطوان، حيث أحرق هناك علم فرنسا[22] وجند الحزب بعض المغاربة في «اللواء الأزرق» الذي كان يضم القوات التي أرسلها فرانكو من المتطوعين الفاشيستيين للقتال بجانب قوات هتلر.

وفي سنة 1941 هيأ القنصل الألماني بتطوان والمخابرات النازية سفر الطريس على رأس بعثة حزبية الى برلين[23] للاتصال بالمسؤولين النازيين وإقناعهم بضرورة تحرير المغرب بعد هزيمة فرنسا وقد كان لهذه الخطوة الجريئة وقع سيء في نفوس الفرنسيين الذين أضمروا له العداء وحكموا عليه سنة 1944 بالاعدام غيابيا في المحكمة العسكرية بمكناس»[24].

فهل حاول الطريس أن يلعب بالورقة الألمانية ضد إسبانيا ؟ ولكن حاول أفلم يدرك أن مساندة فرانكو بالنسبة لهتلر كانت عند هذا الأخير أكثر أهمية من دعم الوطنيين الاصلاحيين، ثم ألم يكن الطريس في هذا السفر أداة لسياسة فرانكو الخارجية. إن «الكاوديو» فرانكو كان يحلم بتحقيق أطماعه التوسعية، فسياسة فرانكو الاستبدادية وتكوينه الاستعماري كانا سيذهبان به لا الى رفض استقلال المنطقة فحسب بل الى إلحاق المغرب نهائيا بشبه الجزيرة الايبيرية، بعد طرد فرنسا من جنوب المغرب، ذلك أن اعتقاد فرانكو كان هو أن النازية ستقضي على الاحتلال الفرنسي، وكانت الشروط التي وضعها فرانكو والمذكرة التي سلمت الى سفير ألمانيا بمدريد «ستوهرير» للدخول بجانب ألمانيا في الحرب والتي حررت بقلم «خوسي مارينادي أريلثا» و «فرناندو دي كاستيا» ذات أهداف واضحة[25] وهي طرد

الاستعمار الفرنسي من الجنوب واحلال الاستعمار الاسباني محله. وجاء في المذكرة أن غاية إسبانيا هي غاية إنسانية «إسبانيا واحدة تساعد مغربا واحدا».

هوامــش :

1) A. Kramer - Historia 16 n° 12 Abril 1977 العنوان : إسبانيا استيقظت جمهورية.
2) الطريس : صور من حياته. جمعية الطالب المغربية ــ تطوان
3) Xavier T. Historia 16 n° 10 Febrero 1977 العنوان : انتخابات الجبهة الشعبية فبراير 1936.
4) Martin (M) El Colonialismo Espa`nol en Marruecos 1860-1956 - Ruedo Ibérico Paris1973
5) Stanley (P) La Revolucion Espanola Argos Vergara 1977
6) Dolares Iberruri•Guerra y Revolucion en España Moscu 1966
7) الخطيب، إبراهيم ــ نقد الحركة الاصلاحية وأفقها الايديولوجي مجلة «أنفاس» يناير 1972
8) وثائق الاقامة العامة ــ مصلحة الأهالي ــ مدريد
9) Rezette (R)-les Partis Politiques Marocains - Armand Colin, Paris 1955
10) من تراث الطريس ــ كتاب العلم ــ مطبعة الرسالة ــ الرباط
11) Villar (S) Idiologias Franquistas - Madrid 1977
12) Martin (M) El Colonialismo Español en MArruecos - Ruedo Ibérico - Paris 1973
13) الريحاني، أمين : المغرب الأقصى ــ دار الريحاني بيروت 1975.
14) وثائق الاقامة العامة ــ مكتب مصلحة الأهالي ــ مدريد.
15) Julien (A) : Le Maroc Face aux Impérialismes - éd. J.A. Paris 1978
16) Colstov (M) Pravda 20/9/1936
17) Rezette (R). Les Partis Politiques Marocains - Armand Colin Paris 1955
18) Martin (M) El Colonialismo Español en Marruecos - Ruedo Ibérico- Paris 1973
19) الخطيب، إبراهيم ــ نقد الحركة الاصلاحية... أنفاس يناير 1972.
20) نفس المصدر.
21) أشفورد دوغلاس : التطورات السياسية في المملكة المغربية دار الكتاب ــ البيضاء 1964.
22) Rezette : Les Partis Politiques Marocains - A.Colin Paris - 1955
23) الطريس : صور من حياته ــ جمعية الطالب المغربية ــ تطوان 1970
24) نفس المصدر السابق
25) Martin (M) El Colonialismo Español en Marruecos - R.I. Paris 1973

ــ جريدة حزب الاصلاح «الحرية» من سنة 1937 الى 1942

ــ G. Figueras - Marruecos 2de Edición 1955- Tetuan

ــ الأستاذ الطريس : سلسلة رجالات المعهد الحر ــ تطوان 1972

تطرح هذه الدراسة مجموعة من الملاحظات التي ربما كانت محطّ خلاف بين المهتمين بنفس المنطقة والحقبة من تاريخ المغرب، لذلك تفتح المجال هنا واسعاً لكل ذي رأي مكمّل أو مخالف أو معارض، قصد استكشاف غوامض مرحلة مهمة من تاريخنا الحديث.

ونشر فيما يلي رأيا لعبد المجيد بن جلون، وهو أستاذ مساعد بكلية الحقوق بالرباط. يحضر أطروحة حول : « الحركة الوطنية بشمال المغرب » (1930 ـــ 1955) :

لحد الآن، لم تنل الحركة الوطنية المغربية، في المنطقة الاسبانية ـــ سابقاً، الاهتمام الذي تستحقه من قبل الباحثين. لذلك ينبغي أن نحيي بحرارة كل مبادرة تهدف الى تحليل هذا الجانب أو ذاك من هذه المسألة الهامة، ومن ضمنها دراسة السيدين أبو رندة وسعود.

وبما أننا نحضر، نحن أنفسنا، أطروحة حول نفس الموضوع، فإن قراءة المقال أعلاه تدفعنا، على الفور، للاشارة الى عدم معرفتنا ببعض المبادىء الماركسية، الشيء الذي يعني، بالتالي، أننا سوف لن ننتقد كاتبينا على صعيد المعتقدات، وإنما سيتم ذلك، بالأولى، على صعيد الوقائع المعزَّزة بالوثائق، من جهة، والتي استدعت، من جانبنا، العديد من التعليقات التي سوف لن نشير منها هنا سوى الى الأربعة التالية :

1) لعل اتصالات جرت بين الوطنيين المغاربة والرجعية الاسبانية بُعَيد الاعلان عن الجمهورية الاسبانية، ولعل تلك وافقت على مدِّ المغاربة بمساعدة مالية. وعلى حد علمنا، فإن هذا التأكيد لا يستند الى أي أساس، بل من باب أولى ذكر أن صلات قد ربطت مع بعض عناصر اليسار الاسباني.

2) ان مفاوضات برشلونة لعام 1936، والتي أثارها صديقانا، قد وقعت ببضعة أسابيع عقب إعلان الحرب الأهلية الاسبانية، وكان ممثل الجانب المغربي فيها ليس الحركة الوطنية للمنطقة الاسبانية ولكن الحركة الوطنية للمنطقة الجنوبية : ج عمر بن عبد الجليل ومحمد بن الحسن الوزاني اللذان ذهبا فعلا الى العاصمة الكاطالانية لكي يعرضا على الجمهوريين الاسبان الصفقة التالية : انتفاضة مغربية ضد فرانكو، مقابل الاعلان عن استقلال المغرب الشمالي، وعلى عكس ما يؤكده كاتبانا فإن « المفاوضات » أخفقت لا بسبب الوطنيين المغاربة بالمنطقة الاسبانية الذين تخلوا عن مسؤوليتهم، ولكن، بالأحرى، بسبب رئيس المجلس الاسباني، السيد لارغوكاباييرو (L.CABALLERO) الذي رفض التصديق على الاتفاق الذي وقع عليه، من جهة، الممثلان المغربيان، وعدد من التنظيمات السياسية الاسبانية، من جهة ثانية.

3) لو أن « حزب الاصلاح الوطني » كان متهماً بالتعاون مع الاستعمار الاسباني، وهذا الأخير، بمقابل ذلك، يؤمن « المصالح الطبقية للبورجوازية التطوانية الممثلة في حزب الاصلاح » فإن التحالف بين الزعامتين، المغربية والاسبانية، سوف يدوم الى مالا نهاية له.

وعلى النقيض من ذلك، لم يكن للتحالف المذكور ـــ إن كان ثمة تحالف بالفعل ـــ سوى طابع تاكتيكي وظرفي : ففرانكو المحتاج الى بعض من الهدوء في مدن الشمال لكي يستطيع تجييش الجنود المغاربة الذين كان في مسيس الحاجة اليهم لمواصلة الحرب التي أعلنها ضد الجمهوريين، منح عددا من الحريات الى الأنتلجنسيا الحضرية المغربية.

يضاف الى ذلك أن هذا الوفاق لم يدم طويلا، وفي أوج « شهر عسلهما » لم يتوان الاسبان عن فرض الغرامات الثقيلة على الوطنيين المغاربة بسبب بعض المقالات الصحفية المصنفة على أنها تحريضية.

إن التعاون الذي يتحدث عنه كاتبانا ــ ولنقل ذلك دون خوف من الكلمات ــ كان نعمة حقيقية بالنسبة لوطنيي **الشمال** الذين كانت خيبتهم كبيرة جدا من الحكومات المتعاقبة لـ « الجمهورية الاسبانية » التي منحتهم من الحريات قدرا أقل من ذاك الذي منحتهم إياه السلطات الفرانكية.

وفعلا، فالفرانكيون سمحوا لهم بإنشاء حزب، وصحف، وبارسال طلبة الى الخارج الخ. ولا نعتقد أننا نبالغ إذا قلنا أن « الحركة الوطنية المغربية بالمنطقة الشمالية (سابقاً) كانت أكثر وطنية حين تعاونت أكثر مع الاسبان ». فالفوائد المستخلصة من روح الوفاق المتبادل هذه بالنسبة لمجموع الحركة الوطنية المغربية كانت جد مهمة، وسوف لن نثقل على أنفسنا ــ بسبب ضيق الحيز ــ، لكن لنقل بأن تطوان كانت تلعب، الى حد ما، دور « مكبر الصوت » بالنسبة لكل المغرب، وخاصة في لحظة كان القمع فيها أشد ما يكون بجنوب البلاد.

إن هذا التعاون البارز الذي لم يستمر، علاوة على ذلك، طيلة فترة الحزب الأهلية الاسبانية، لم يكن في آخر المطاف سوى تقارب لحظي مع أضعف الحلقات الاستعمارية، الأجنبية بالمغرب.ولأكيد أن بالامكان إثبات ــ مثلما اقترح ذلك كاتبانا ــ أن (ح.إ.و) قد شكل أداة من أدوات السياسة الفرانكية، من حيث أن حملاته ضد فرنسا ــ وهي حملات كانت تؤججها إسبانيا، بداهة ــ قد خدمت مصالح فرانكو.

لكن يبقى مع ذلك أن الحملة المضادة لفرنسا والتي خاضتها صحف الشمال ساعدت الحركة الوطنية المغربية طالما أن فرنسا كانت هي القوة الاستعمارية الرئيسية بالمغرب. وهنا ألا نجد هذا الوفاق ثانية ــ الجدير ذكره حتى وان كان نسبيا ــ بين المغاربة والاسبان في سنوات 1953 ــ 1956، لكن، من يستطيع الحديث في هذه المرة عن « التعاون » بالمعنى القدحي للكلمة ؟

ان الاسبان قد أنعموا على بعض عناصر حزب الاصلاح الوطني بمنافع اقتصادية وهذا أمر معلوم من طرف العموم. فهل معنى ذلك أن هذه المنافع كانت الثمن الذي دفعه الاسبان لشراء صمت الوطنيين المغاربة بخصوص تجييش الجنود المغاربة من طرف السلطات الفرانكية ؟

وحتى لو افترضنا أن حزب الاصلاح الوطني كان يضم طهرانيين اتقياء، فهل كانت للوطنيين المغاربة، وهم على ضعفهم إذاك، الوسائل الكفيلة بمنع هذا التجييش ؟ وهل معنى هذا، مع ذلك، أن المصالح المادية كانت تقدَّمُ على المصلحة الوطنية ؟ لا نعتقد ذلك. فالاستعمار الاسباني الذي كان ــ تبعاً لبعض الظروف ــ فريدا من نوعه، ولَّد حركة وطنية فريدة من نوعها أيضاً. فما أغربه من استعمار وما أغربها من حركة وطنية ! إلا أن الاستعمار الاسباني لم يكن أقل استعمارية ولا الحركة الوطنية أقل وطنية.

إننا لا نبرر قط الفساد الذي يحق وينبغي لنا استهجانه أخلاقيا، ولكننا نعتبر أن الحركة الوطنية، مادامت محترمة في بلد يرغب بحرارة في التحرر من الربق الأجنبي، فهي أبعد من أن تكون معتقداً مقدساً فوق كل الشبهات، وخاصة فوق كل إغراء، سواء أكان واعياً أم غير واع.

4) وأن يكون حزب الاصلاح الوطني حزباً فاشياً، فهذا أيضاً أمر نجد أنفسنا أبعد ما يكون عن الاتفاق مع صديقينا بخصوصه : فالطريس قد تحرك من باب التقليد للفاشية أكثر

مما تحرك بسبب ايمانه العميق بها، وحتى حين كان الأمر كذلك، فإن المعطيات الاجتماعية الاقتصادية لاسبانيا والمغرب كانت أبعد عن أن تكون متطابقة.

تصوّروا قائداً متحمساً لبلد مستعمر، هدفه المباشر هو تحسين الشروط الاجتماعية لبلاده بواسطة إصلاحات تدريجية، وغايته البعيدة، هي استقلال بلاده. تصوّروا أيضاً أن هذا القائد يعوم ايديولوجياً، وهنا، فهو يميل الى أخذ نموذجه ـــ بانفعال، ربما ـــ من هذا الايديولوجي أو ذاك.إن تقليد الفرد لا يجعل من المقلد فردا بالضرورة.

لاتزال هناك ملاحظات كثيرة ينبغي الادلاء بها، إلا أننا سنكتفي بهذه، بانتظار فرصة أخرى للتدخل في النقاش المفتوح حول الحركة الوطنية المغربية في المنطقة الاسبانية سابقاً.

عبد المجيد بن جلون

أغوسطوبوال

مسرح المسحوقين : تمارين للممثلين وغير الممثلين

1 ــ تمارين للتدليك والاسترخــاء :

ــ الممثل ممدّ على الأرض على ظهره ثم على بطنه. يدلك الممثلون الآخرون كل أطرافه بحركات ايقاعية وبقوة ثابتة رتيبة وبلا ارتجال. يجب أن يحس الممثل نفس الضغط فوق كل الجسد.

ــ يجلس الممثلون مشكلين دائرة : الواحد وراء الآخر. كل واحد يدلك رأس وكتفي الذي أمامه.

ــ يقوم الممثلون بحركات دائرية بأيديهم على الوجه والذراعين والرجلين ثم باقي الجسد.

ــ يقفز الممثل بالتناوب على رجل ثم على الأخرى وهو يقوم بيديه بحركات كما لو كان ينفض الماء أو يطرد أشباحا.

ــ يقف الممثلون صفين متقابلين وكل واحد يدلك وجه الذي أمامه : أولا بحركات على شكل صليب : الحاجب، الأنف الذقن، العنق، الاكتاف ثم بهدوء وبحركات دائرية.

ــ ثمانية ممثلين يشكلون صفين. يقبل ممثل آخر جريا ويقفز بين الصفين. يشد الآخرون على أيدي بعضهم بسرعة مشكلين بذلك سريرا لاستقباله. ثم يرفعونه عاليا فوق رؤوسهم محاولين أن يجعلوا الجسد يدور على نفسه ثم يطوحون به في الهواء مرات. على الممثل أن يستسلم لهذا بكل ثقة. يقوم بهذا التمرين كل الممثلين الواحد تلو الآخر.

ــ تشكل دائرة حول ممثل. يغمض هذا الأخير عينيه. يترك نفسه يهوى في أي اتجاه (الجسد متصلب). يمسك به الأصدقاء ويعيدونه الى الوضع الأول وهكذا في كل الاتجاهات : الأمام، الخلف، اليمين، اليسار. على الممثل ألا يطوى جسده وألا يُخرج قدميه عن مركز الدائرة.

ــ ممثلان ظهرا لظهر. الأيدي معقودة. الأول ينحني الى الأمام بشكل يجعل الآخر يتمايل فوق ظهره. ينحني وينهض رويدا حتى يجعل صديقه الذي يكون مستسلما كليا، يجعله كانما محمولا فوق الأمواج.

2 ــ التنفــس :

ــ الممثل ممدد على ظهره مسترخ تماما :

1 ــ يضع يديه فوق بطنه. يطرد كل الهواء من رئتيه ثم يستنشق رويدا رويدا مالئا صدره الى أقصى حد ثم ينفث الهواء بقوة. تعاد هذه الحركة مرات.

2 ــ يعيد الممثل الحركة السالفة واضعا يديه أسفل القفص الصدري نافخا صدره ومحاولا ملء الجهة السفلى من الرئتين. تعاد الحركة مرات.

3 ــ نفس الشيء. اليدين فوق الكتفين أو الى أعلى. يملأ الجزء الأعلى من الرئتين.

4 ــ اعادة الحركات الثلاث بنفس التتابع.

ــ الممثل مائل على الحائط مبتعدا عنه قليلا، ومستعينا بيديه يعيد نفس الحركات التنفسية ثم متكئا على الحائط بمرفقيه.

ــ الممثل واقف بشكل عمودي. نفس الحركات. (من الضروري أن يصلب الممثل عضلاته وهو يستنشق الهواء) فالتنفس ينبغي أن يكون عملية يقوم بها كل الجسم. يجب أن تتفاعل كل عضلة مع دخول الهواء أو خروجه ويجب أن يحس الممثل أن الأوكسجين يدور في كل الجسد عبر كل الشرايين.

ــ يستنشق رويدا وبعمق من المنخر الأيمن ويزفر الهواء من الأيسر ثم العكس.

ــ بعد استنشاق أكبر كمية من الهواء يتم طردها بواسطة الفم دفعة واحدة وبعنف (يجب أن يحدث طرد الهواء صوتا كالصرخة) نفس الشيء بالنسبة للأنف.

ــ يستنشق الهواء رويدا رويدا وهو يرفع يديه الى أعلى ويقف على أطراف أصابعه يزفر الهواء رويدا رويداً وهو يعود الى وضعه الاول ثم يجمع جسده الى ان يحتل اصغر حيز ممكن من الفضاء.

ــ بشكل حازم وفعال يستنشق ويزفر الهواء وهو يتبع ايقاعا محددا : نبضات القلب أو موسيقى (بقرع صارم التحديد) أو على ايقاع يؤديه أحد الممثلين.

ــ بأسرع ما يمكن يستنشق ويزفر أكبر كمية ممكنة من الهواء. يمكن لهذا التمرين والذي يليه أن يأخذا شكل مسابقة : مَنْ من الممثلين يستطيع في وقت معين أن يحرك أكبر كمية من الهواء ؟.

ــ بأقل سرعة ممكنة يستنشق الهواء، ثم وهو يحدث صوتا يزفره ببطء، والمراد هنا هو أن يسمع هذا الصوت أطول مدة ممكنة.

ــ اغلاق الأنف والفم ثم بذل أقصى مايمكن من الجهد لطرد الهواء وعندما يتعذر هذا يتم تحريرهما.

ــ مجموعتان : الاولى تردد ترنيمة والثانية تصحبها بالتنفس. لتسهيل التمرين يمكن استعمال موسيقى هادئة أول الأمر، على انه يمكن استخدام موسيقى سريعة أو معقدة فيما بعد.

ــ الممثلون يشكلون دائرة ثم يزفرون الهواء وهم يحدثون صوتا (آه) ثم يتركون أنفسهم يهوون كما لو كانوا يفرغون من الهواء حتى يسترخون على الأرض.

ــ كما لو كان أحد الأصدقاء يفرغ جسمه من الهواء. يتصرف كما لو أن جسده دمية. يمكن أن يكون الجزء المفرغ هو الاصبع، الركبة، الاذن الخ.. تدريجيا وبقدر ما يزفر الممثل الهواء فان جسده يفرغ حتى يمتد على الأرض دمية من بلاستيك خاوية. ثم يقوم بحركات وصوت شخص يمتلىء هواء بواسطة منفاخ.

3 ــ حركات أفقية :

ــ دون أن يحرك الممثل باقي جسده الذي ينبغي أن يبقى متصلبا، يمد عنقه ورأسه الى الامام. في التمارين الأولى يمكن لممثل آخر أن يساعده وذلك بلمس أنفه باصبع وسحب الاصبع بسرعة والانف يتبع الاصبع أبعد مايمكن الى الامام.

ــ نفس الطريقة بالنسبة للخلف. ينبغي للتمرينين أن يتما في خط أفقي ومستقيم تماما.

ــ كذلك بالنسبة لليمين واليسار. الممثل يميل العنق وليس الرأس فوق هذا الكتف تارة وتارة فوق الكتف الاخرى. لتسهيل هذا التمرين يمكن للممثل أن يشكل فوق الرأس دائرة بيديه ويحاول أن يلمس بأذنه مرفقه.

ــ ينبغي أن تكون كل الحركات السابقة أفقية ومستقيمة، ويجب أن يتحرك الأنف بشكل موازٍ للارض. والآن يحرك الممثل عنقه بشكل دائري محاولا ملامسة نقطة بعيدة. أمام. خلف. يمين. يسار. العينان مركزتان على نقطة معينة. والرأس لا يميل الى أسفل أو إلى أعلى.

ــ نفس التمارين بالنسبة للصدر. من الافيد ان يتحرك الصدر الى الخلف أثناء استنشاق الهواء والى الامام أثناء زفره أي عكس ما يحدث عادة.

ــ نفس التمارين بالنسبة للحوض.

ــ يمسك ممثل ممثلا اخر من ياقة قميصه. يترك هذا الاخير رأسه تسقط بكل حرية ككركوزة. الرأس بلا حركة وأثناء لمسه لا ينبغي ان يخضع الا لقوة الجذب.

ــ نفس التمرين بالاضافة الى اليد اليمنى. أطراف الجسد الاخرى تبقى متصلبة. الرأس واليد مرنان ولا يخضعان الا لدفعة صديق أو قوة الجذب.

ــ نفس الشيءبالاضافة لليد اليسرى.

ــ نفس الصديق يأخذ الممثل من حزامه وكل الجزء الاعلى من الجسم يتهاوى الى أسفل خاضعا لنفس الشروط السابقة.

ــ ابتداء من هذه الحركات الاولية يرتجل الممثل مشهدا صغيرا : الضرب على الآلة الكاتبة مثلا. الاصابع تتحرك. الرأس أيضا يمينا أو شمالا ثم يعود فجأة الى مكانه الاول (أي كل الحركات التي تقوم بها كاتبة).

ــ الممثلون، مثنى، مثنى، وجها لوجه. واحد يُسَيِّر والاخر مسيَّر. الذي يُسَيِّر ينحت صنما بجسم الاخر على الشكل الذي يريد. أي انه، على بُعْد، يصور الاشكال التي يريد للجسم الاخر أن يأخذها. كاالنحات تماما. الفرق الوحيد هو أن الممثل لايلمس جسد صديقه. هذا الاخير يجب أن يتصرف كما لو كان النحات يلمسه.

ــ نفس التمرين ولكن الممثل ينحت هذه المرة جسمين أو ثلاثة أي ينحت عدة أشكال أو شكلا معقدا.

ــ نفس التمرين أيضا لكن المسير لا يتصرف كنحات ولكن كمحرك للكركوز أي مستعملا الخيوط. اذن حركات الممثلين ستشبه الكراكيز وليس الاصنام.

4 ــ حركات عمودية :

ــ الممثل جالس على الارض. اليدان والرجلان متباعدان، وكلها تشكل زاوية قائمة بالنسبة

لباقي الجسد، مقسما إياه عموديا الى جزئين : كل جزء مكون من يد و رجل وكتف ونصف رأس وصدر وحوض. يتقدم الممثل هكذا على مؤخرته مقدما جزءا بجزء مفرقا بين الجزئين. بعد عدة خطوات إلى الامام يرجع الى الوراء بنفس الطريقة.
ــ نفس الشيء. الممثل هذه المرة ممدد على الارض، يداه ورجلاه موازيان لباقي الجسد.
ــ يتجه يمينا وشمالا وهو ممدد بنفس الشكل السابق.

5 ــ حركات مستقيمة ودائرية :

ــ يتقدم الممثل بحركات مستقيمة برجليه ويديه ورأسه (كانسان آلي). ينبغي أن تكون الحركات واضحة بلا ايقاع محدد، عفوية ومفاجئة. كل أجزاء الجسد تتحرك.

غالبا ما يحدث في هذا التمرين ان يقوم الممثل بحركات عنيفة. الشيء الذي ينبغي تلافيه. حركات مستقيمة هادئة وواضحة.

أما بالنسبة لاستقامة الحركات فيحصل عليها الممثل بسهولة أكثر عندما يفكر بجعلها موازية للارض أو الحائط أو السقف أو أي خط مائل في الحجرة.
ــ يقوم الممثل برسم دوائر (حركات دائرية، حلزونية، على شكل بيضة الخ...)
تدور اليدان في آن واحد خلف، أمام، فوق، تحت. يرسم الرأس دوائر صعودا وهبوطا. الرجلان. الجسد كله يصعد ويهبط. ينبغي أن تكون الحركة متواصلة، هادئة، إيقاعية وبطيئة. يعيد الممثل هذه الحركات عدة مرات محاولا تلمس كل العضلات التي نشطت أو لم تنشط في تحقيق هذه الحركات. لا يمكن تجاوز حركة الى أخرى قبل هذه العملية.
من اللازم أن يتحرك كل الجسد. الاصابع أيضا. ويجب أن يتم هذا التمرين دون عنف أو ألم وبلذة فائقة.

6 ــ تعاقب الحركات الدائرية والمستقيمة :

ــ الجزءالأيمن من الجسد يقوم بحركات دائرية والجزء الأيسر بحركات مستقيمة ثم العكس نفس الشيء بالنسبة للجزئين الأعلى والأسفل.
ــ كل المتغيرات ممكنة بالنسبة لكل أجزاء الجسد التي استطاع الممثل السيطرة عليها وتفريقها.
ــ يتقدم على أطراف أصابعه مفرقا قدر الامكان أجزاء جسده بحركات مستقيمة. اليدان والرجلان والرأس ممددة أقصى مايمكن. يجب أن يشعر الممثل بهذا التقسيم العمودي لكل الجسد.

ثم في حركات دائرية بطيئة يجمع جسده مقربا كل الاجزاء حتى تنعدم كل حركة ويصبح الجسد بعدها مكوما على شكل كرة.

7 ــ ألعاب وتمارين لتهيء الجسم :

ــ موسيقى ورقص. تكون بعض الايقاعات البرازيلية ذات الاصل الافريقي (الصامبا مثلا) تمرينا جيدا لتنشيط كل عضلات الجسد. يمكن الاستعانة بموسيقى مسجلة. المهم من كل هذا أن يبدأ التمرين بطيئا ثم يتصاعد الايقاع حتىّ يبلغ مستوى عاليا من الحدة. وينبغي أن يكون كل هذا ممتعا.
ــ رقص دائري الايقاع والحركة. يشكل الممثلون دائرة. يتقدم أحدهم الى الوسط ينفذ حركة ما مصحوبة بايقاع من ابتكاره. يتبعه الاخرون محاولين إعادة نفس الحركات والايقاعات. ثم يعوضه ممثل آخر يحاول شيئا فشيئا تغيير الحركات والاصوات والايقاعات وهكذا...
ــ رقصة الحيوانات. يتقدم الممثلون مشكّلين دائرة وشيئا فشيئا يشرعون في التحول إلى حيوانات تبعا لتسلسل محدد سلفا: قرد، لقلاق ، زرافة، قط، أسد الخ...
يشمل التحول الساقين أولا ثم الجذع فاليدين فالرأس ثم الوجه وأخيرا الصوت.
ــ تمرين على الايقاع والحركة. تنقسم الفرقة إلى مجموعتين. بعد إعطاء الاشارة يبدأ أفراد المجموعة الأولى في احداث أية أصوات أو إيقاعات تخطر على بالهم. لديهم ثلاثين ثانية لكي يوحدوا حركاتهم وأصواتهم الايقاعات التي يحدثونها.

إذا رأى الفريق الخصم أنهم وفقوا أثناء هذه الثواني الثلاثين في توحيد عملهم عليه أن يقلدهم. أما إذا أعلن أن حركاتهم غير موحدة فيتم إقصاء كل الذين فشلوا في توحيد حركاتهم ثم يبدأ اللعب من جديد.
ــ إيقاعات : كل الممثلين يحدثون بأصواتهم وأيديهم وأرجلهم إيقاعا. بعد دقائق قليلة يأخذ هذا الايقاع في التغير رويدا رويدا حتى يفرض إيقاع جديد نفسه على كل المجموعة وهكذا لعدة دقائق.
ــ أصوات وحركات : مجموعة من الممثلين يرسلون صوتا معينا (لحيوان أو لخشخشة أوراق أو ضوضاء معمل) بينما مجموعة أخرى تقوم بالحركات التي تلائم هذه الاصوات. أي تجسدها. اذا كان الصوت مثلا هو «مياو» فليست الصورة المقابلة للصوت بالضرورة هي قط. ولكن الصورة التي تخيلها الممثل لهذا الصوت (1).
ــ الكراكيز : في هذه التمارين سيتصرف الممثلون كما لو كان يلمس بعضهم بعضا.
أ) مباراة في الملاكمة: يتصارع الخصمان دون أن يلمس أحدهما الآخر، معبرين بوجهيهما عن العنف الذي تحمله حركاتهما.
ب) كرة القدم : مجموعتان تقومان بمباراة، بلا كرة طبعا، ولكن كما لو كانوا يستعملونها أثناء اللعب. الحكم يراقب ما إذا كان الاتجاه الخيالي للكرة يوافق حركات الممثلين الحقيقية ويقصي من اللعب كل من يخطيء. هذا التمرين يصلح لكل الالعاب الرياضية : كرة السلة، الكرة الطائرة، المسايفة الخ...
ج) التعذيب : جلاد ومعتقل أثناء عملية التعذيب. كل في ركن.
د) رعاة البقر : الممثلون يرتجلون مشهدا من أفلام رعاة البقر. الرقصات، عازفي البيانو، النادل، العمدة الخ..مشهد كلاسيكي للعنف : الموائد تكسر، الزجاجات تطير في الهواء. كل هذا

يقون أدوات حقيقية والممثلون لا يلمس أحدهم الأخر.
هـ) هذا التمرين يمكن أن يتسع لأشكال عديدة أخرى منها: جذب شبكة من البحر مليئة بالسمك. مجموعتان تجران حبلا، كل في اتجاه الخ...
ــ تنويم : يجعل ممثل يده على بعد بضع سنتمترات من وجه ممثل أخر وعلى هذا الأخير أن يتصرف كما لو كان تحت تأثير تنويم مغناطيسي. يحتفظ بنفس المسافة التي تفصل وجهه عن اليد وأينما تحركت يتبعها. ويقوم بكل الالتواءات الممكنة مع الابقاء على نفس المسافة دائما.
ــ نفس التمرين : الممثل بكلتا يديه هذه المرة يتحكم في ممثلين ويسيرهما حسب هواه يقوم بكل حركة تخطر على باله في الوقت الذي ينبغي لصديقيه الحفاظ على نفس المسافة التي تفصل وجهيهما عن اليدين.
ــ سباق بطيء : الأخير هو الذي يكسب السباق.

بعد الاعلان عن البداية لايتوقف الممثلون عن الحركة. ويجب أن تنجز حركاتهم بكل البطء الممكن. وأن يفرقوا سياقاتهم أوسع ما يمكن عند كل خطوة. هذا التمرين الذي يتطلب توازنا كبيرا، ينشط كل عضلات الجسد.

ترتفع القدم حتى تتجاوز الركبة قبل أن تتقدم الرجل الاخرى. يجب على الممثل وهو يتقدم أن يمد جسده جيدا حتى لايفقد توازنه. صوت الخطوات يجب أن يكون مسموعا.

لا ينبغي للقدمين ان تكونا على الارض بكلتيهما. ما أن توضع الاولى على الأرض حتى ترتفع الثانية. دائما رجل واحدة.
ــ أصغر مسافة : يدرس كل ممثل جميع الوضعيات التي تسمح لجسده بأن يلمس أقل مساحة من الارض مجربا كل الامكانيات مثلا : الرجلين واليدين. رجل ويد فقط. على المؤخرة. على القفص الصدري. رجل واحدة الخ...

الانتقال من وضعية إلى أخرى يتم بشكل بطيء حتى يتمكن الممثل من تنشيط كل العضلات التي تتدخل أثناء العملية.

8 ــ وضعيات أخرى :

1 ــ الممثل جالس على رجل واحدة كما لو كان يضرب على الآلة الكاتبة. على الرأس وكتف واحد. يمكن للممثل أن يرسم بجسده أشكالا عديدة مستفيدا أيضا من اليوغا، على أن يتم كل هذا بشكل بطيء.
2 ــ نفس التمرين مع ممثلين أو أكثر : في هذا التمرين (كما في باقي التمارين المتعلقة بالجسد) يمنع الكلام أو الادلاء بإعتراضات أو السؤال عن شيء كيفما كان ويتم التواصل بواسطة الحركات العضلية فقط، كل حديث ولو همسا غالبا ما يكون مضرا.
3 ــ ممثلان يقفان وجها لوجه. يتحرك الأول ويملأ الثاني المكان الفارغ. مثال : يدفع الأول يده إلى الخلف فيقدم الآخر يده الى أمام. يدفع ببطنه إلى أمام. يدخله. يلتوي على نفسه

يمد الأخر جسده الخ...
4 ــ تقسيم الحركة المتصلة الى عناصرها المختلفة، المشي مثلا : ساق، وقفة أخرى، وقفة الخ...
5 ــ الحركات المنسقة الاعتيادية غالبا ما تصلب العضلات وتقولبها داخل قناع معين.
المفروض هنا أن يدرس الممثل حركاته وذلك بتفريقها : يمشي بإيقاع مختلف لكل رجل وكذلك اليدان تتحركان بإيقاع مغاير تماما...
يأكل دون أن تزامن حركة اليد حركة فتح الفم..الخ...
ــ هناك عدة تمارين أخرى. على شكل سباق أو رقصة.
سباق القنغر: كل ممثل يشد علىَ كوعيه بيديه ثم يقفز الجميع كحيوانات القنغر.
رقصة التفاحة : كل ممثلين يحاولان أن يحافظا بين رأسهما على تفاحة أو كرة وهما يمشيان أو يرقصان.

حوار الايقاعات : تكون مجموعتان لكل واحدة رئيسها ويبدأ العمل : يتوجه رئيس الأولى إلى رئيس الثانية وهو يعيد نفس الايقاع أربعة مرات (كما لو كان يتوجه اليه بحديث). يعيد الممثلون المنتمون الى مجموعته نفس الايقاع ثلاث مرات. يرد عليه رئيس المجموعة الاخرى بأيقاع مختلف. يردد أفراد مجموعته مباشرة كما لو كانوا في حوار مع المجموعة الأولى. ينبغي أن تشبه الايقاعات والحركات حواراً يدور بين المجموعتين. يمكن للجملة الموسيقية أن تكون طويلة أو قصيرة، بسيطة أو معقدة.

9 ــ العلاقة مع العالم :

ــ يستخدم ممثل الممثلين الآخرين في نحت صورة حول موضوع معين (المدينة، المدرسة، المعمل). ثم مباشرة يبدأ في نحت الصورة المثالية (التي ينبغي ان يكون عليها المعمل أو المدرسة). بعد هذا يرسم المرحلة الانتقالية الممكنة من الاولى إلى الثانية.

يناقش الممثلون الشكل الانتقالي بالحركات فقط. كل واحد يشخص ما يمكن إضافته للشكل الأول كي يصبح الثاني ممكنا.

يجب ان يصبح الكل جماعة من النحاتين. كل واحد يقترح أشكاله بالحركة وحدها.

عند اشارة المخرج يسمح لكل واحد من هذا النحت أن يقوم بحركة، حركة واحدة فقط. هذا من شأنه أن يضفي الحياة على هذه الاشكال ويجعل التماثيل تأخذ طريقها نحو الصورة المثلى دون تدخل خارجي وانما بقرارات من هذه التماثيل نفسها. هكذا يتطور الصراع نحو حالة جديدة (2).
ــ يشكل الممثلون صفين : أفراد الصف الأول مغمضو العينين. وكل واحد منهم يحاول تلمس وجه ويدي الذي يقابله. يتفرق الممثلون ويحاول كل أعمى التعرف، عن طريق اللمس مرة أخرى، على الذي كان يقابله.
ــ الأعمى والقنبلة : تعصب عينا أحد الممثلين. يحيط به الآخرون على الممثل الأعمى أن يتخيل ان قنبلة ستنفجر اذا ما لمس جسده أحد الممثلين أكثر من ثانية. عند كل لمسة يبتعد بأسرع ما يمكن. هذا التمرين ينمي الحواس بشكل مدهش.

ـــ جو من ثلج : يتصور الممثل أن الجو قابل للاستعمال كما لو كان ثلجا. ينحت منه الممثل تمثالا والاخرون يلاحظون عمله ويحاولون اكتشاف الشكل الذي قام بصنعه. هذا ليس تمرينا في الميم. يجب على الممثل أن يتحسس الجو حقيقة وأن يلمس العلاقة بين عضلات جسده والعالم الخارجي. اذا هوى بمطرقة مثلا فعضلات الجسد ستعمل كما لو كان يحمل بالفعل مطرقة. يمكن تبسيط أو تعقيد التمرين حسب إرادة الشخص. يمكن البدء بحركات أولية : استعمال أدوات حقيقية (حمل كرسي مثلا) وجعل الانتباه منصبا على العضلات النشطة اثناء العملية ونوعية المنشط. ثم محاولة تنشيط نفس العضلات بإعادة العملية دون أداة. والعمل الجماعي يغني هذا التمرين كثيرا (تركيب سيارة مثلا، كل ممثل يقوم بجزء من العمل).

ـــ التعرف على الأشياء : العينان معصوبتان واليدان مشدودتان الى الخلف. يحاول الممثل بباقي أطراف جسده التعرف على الأشياء التي يلمسها: كرسي، قلم، كأس، ورقة...تمرين كهذا ينشط حساسية كل أجزاء الجسد.

ـــ يدخل المشهد عدة ممثلين ويؤدون حركات يشرحون من خلالها من أين جاءوا وماذا يعملون والى أين يتوجهون (قادمون من البيت. هم في الشارع متوجهون الى العمل...) على الملاحظين أن يتعرفوا على كل هذه الاشياء.

ـــ الملاحظة : أحد الممثلين يحدق في أصدقائه جيدا ثم بعينين مغمضتين يحاول وصفهم حتى أدق التفاصيل : الالوان، الثياب، العلامات الخاصة...

ـــ تنشيط الاجزاء النائمة داخل كل منا : ينبغي اعادة التمرين عدة مرات. ويرتكز على أساس أن كل واحد منا قادر على أن يحس ويفكر وان يكون حسب أشكال أكثر بكثير مما هو عليه عادة. ذات يوم قام ممثل بتشخيص دور الجلاد. ولاحظ باندهاش كبير أي لذة حقيقية شعر بها وهو يقوم بالتعذيب. لم يفكر قط انه قادر على الاتيان بعمل أحمق كهذا. وفهم عندئذ ان سلوكا قويما يجب ان يكون نتيجة اختيار حر وواع وليس نتيجة عدم القدرة على إحداث الشر. يستطيع الانسان أن يشعر باللذة وهو يقوم بالتعذيب ولكنه لا يفعله لأنه اختار الا يفعله. يجب أن يكتشف الانسان نفسه وسط امكانيات لانهائية بدل القبول المسالم بدور لأنه لم يجد غيره. لاأحد معفي من كل ما هو انساني. كلنا بدرجات متفاوتة طيبون وخبيثون، عاطفيون قساة، جبناء شجعان،.. كل الفاشيين والطغاة مدانون ليس لأنهم قادرون على تجويع الشعب وملء جيوبهم ولكن لانهم اختاروا أن يكونوا كذلك.

والتمرين يعتمد بالضبط تنشيط هذه الاجزاءالكامنة في كل منا حتى يتم فهم كل ما هو ملازم للانسان فهما جيدا. ليس المطلوب من الممثل تبديل شخصيته ولكن سبر كل امكانياته ومنها الشخصيات التى سيمثلها (يختار ممثل أن يكون خاضعا ومهانا الشيء الذي لم يحدث له من قبل).

ـــ صعوبات تعترض الجسد والأشياء : اعتدنا القيام بحركات ميكانيكية لاننا نعرف جسدنا ونعرف الأشياء كذلك. ولكن يتغير كل شيء عند اول محاولة لتبديل أحد هذه العناصر. اذا لم يكن للممثل مثلا سوى يد واحدة فكيف يمكن له أن يعد المائدة. اذا لم تكن له غير عين واحدة أو رجل واحدة. اذا تصلبت أصابعه كيف يمكن له ان يرتدي ملابسه أو ملامسة زوجته. كل قصور في البدن ونقصان في البيئة يحدث تصعيدا مفاجئا للحساسية (العميان يسمعون جيدا والبكم يرون أبعد..)

ـ تركيز : يحدد الممثلون مجال انتباههم (مائدة، حائط، وجه صديق، ورقة بيضاء) وعليهم أن يكتشفوا أكبر عدد ممكن من الألوان والفوارق والأشكال والتفاصيل.

قد يجن المرء لو أن وعيه يدرك ويسجل التنويعات اللانهائية للالوان والاشكال التي تستطيع العين إلتقاطها. على الممثل إذن أن يتمرن على تحليل الواقع واكتشافه في أدق تفاصيله. يمكن ان يقوم بهذا التمرين ممثلان وذلك بأن يقفا متواجهين ويخبر كل منهما الاخر بالذي يكتشفه في وجهه.

ـ تقوم الحواس بدور جهاز للاختيار وبواسطتها يلتقط الدماغ الاشياء : وانتقاء المنبهات المدركة يختلف حسب طبيعة المجتمع : (يقال ان الام لا تسمع منبه الساعة ولكنها تقفز بمجرد أن يبدأ طفلها في الصياح. ويستطيع الطائر سماع غناء رفيقته ولو كان بجواره اسد يزأر. كذلك يسهل على طفل صغير وهو يعبر الشارع إلتقاط المنبهات العديدة المرئية والمسموعة التي تزخر بها مدينة كبيرة الشيء الذي يصيب بالجنون رجلا لم ينزل الى المدينة قط.) والمراد بهذا التمرين هوأن يقوم الممثل بدور هذا الرجل الذي ينزل الى المدينة لأول مرة، إذ عليه أن يتعرف وينظم كل العناصر التي مهما كانت بسيطة يجب ان تبدو غريبة ومدهشة.

هذا مايحدث لنا عادة عندما نحل بمدينة جديدة اذ يبدو كل شيء عجيبا ولكن ما ان تمر بضعة أيام حتى يتبخر نصف هذه الاكتشافات.

ـ تمثيل قصة مجموعة من الممثلين يحكون قصة بالتناوب. مجموعة أخرى تقوم بالتشخيص. لتسهيل الامر يحسن في البداية التعبير عن القصة بصور ثابتة (جامدة) على ان يتم تمثيل المشهد كاملا فيما بعد. يمكن ان تكون القصة سريالية مثلا. الفائدة من كل هذا هو أن يعطي للذين يشخصون فرصة لأجسادهم كي ترد، وبسرعة على المقترحات.

من هنا تبدو أهمية أن تحكي القصص المقترحة عن الأشجار والحيوانات والريح والأمواج والبكاء والقصور والرشاش والمصفحات والبحر والبرد والحرب والسلم والغابة والمدينة الخ... والأجوبة البدنية تكون سريعة ومتواصلة. (نفس الممثل ينتقل مثلا، من الأسد الى قنبلة ستنفجر عبر تحول مستمر في التعبير عن هذين الشيئين المتعارضين) ويمكن لرواة القصة ان يعبروا عن عدم اقتناعهم بصورة أو حركة ما.

ـ انطلاقا من قولة بريخت «هناك عدة أشياء في الشيء الواحد عندما يكون الهدف هو الثورة ولكن لا يكون هناك أي شيء في أي شيء عندما يختفي الهدف». محتوى هذا التمرين هو أن يُعطَى للمجموعة شيءٌ ما، وعلى كل فرد ان يجد له استعمالا : قطعة خشب مثلا، يمكن ان تكون بندقية، عصا، حاجزا، حصانا، مظلة، عكازا، مصعدا، قنطرة، ملعقة، عصا العلم، حربة، قصبة صيد، صفارة، سهما، كانا، ابرة، واشياء اخرى كثيرة.

ـ تشخيص موضوع ما : السجن، مثلا، كل ممثل، دون ان ينتبه لما يقوم به أصدقاؤه، يحاول بواسطة جسده ان يعبر عن الموضوع. واحد ممدد على الأرض يطالع كتابا وآخر ينظر من خلال نافذة وهمية وثالث يلعب الورق ورابع يطهو الطعام وخامس ينظر الى الخارج في غضب الخ....

لا ينبغي اعتبار هذه التمارين العابا بهلوانية. ان هذا من شأنه ان يخلق عند الممثل قناع الرياضي. نحن لا نقترح سوى التمارين التي يمكن ان تساعد على استرخاء العضلات وتنشيط

الخاملة منها أو التمارين التي تغير العادات التي قولبت الجسد وحركاته وحساسيته وجمدته. وبواسطة هذه التمارين ينبغي للممثل ان يحطم هذه البنيات وليس معنى هذا تعويضها ببنيات اخرى كبنية «الرياضي» مثلا.

10 ــ اعداد ايديولوجي :

المسرح عرض ايديولوجي لصور من الحياة الاجتماعية. ومن الضروري الا يكون الممثل مستلبا رغم براعته في التكنيك المسرحي. سيعرض الممثل على الجمهور اشكالا من الصراع الاجتماعي. يجب ان يكون حاضرا في ذهن الممثل المهمة التقدمية الموكولة اليه وطابعهاالبيداغوجي والكفاحي . المسرح فن وسلاح.

ــ كان من عادة مسرح «ارينا» بساوباولو ولعدة عروض اهداء مسرحياته لشخص أو حدث معين. وكان مغزى هذه الشخصية أو الحدث كفيلا بتنشيط الممثل ايديولوجيا : رفيق اغتيل أو زعيم ظل يقاوم الديكتاتورية حتى استشهد الخ...

ــ قراءة ومناقشة أهم الأحداث السياسية والاجتماعية التي تظهر على صفحات الجرائد اليومية وكذلك الأخبار التي لا تنشرها الجرائد. فضح الصحافة البرجوازية.

ــ استحضار حدث تاريخي. في حدود الامكان يمكن استدعاء حدث تاريخي شبيه بالحالة الوطنية الحالية واظهار الفوارق والخصوصيات المشتركة وشكلي التحرر.

11 ــ اعداد صوتي :

ــ الممثلون جنبا الى جنب، ووجوههم الى الحائط. ودفعة واحدة «يثقبون» الحائط بأصواتهم.

ــ تتكون مجموعتان وكل واحدة تطلق صوتا مغايرا محاولة ان تغطي على صوت الأخرى.

الممثلون ممددون فوق طاولة على ظهورهم ورؤوسهم مدلاة إلى الخلف. يطلقون أصواتهم حتى يشعرون بألم (حكــة) في حناجرهم ويتعذر عليهم الاستمرار.

ــ ممثل يتوجه بصوته الى ممثل أخر يبعد عنه بخمسين سنتميترا. يتراجع هذا الاخير مترا. متران. ثلاثة. وعشرة... يحاول الأول دائما ان يضبط صوته حسب المسافة فكما ان العين تسدد طبيعيا الى الشيء الذي تريد ان تراه. كذلك الصوت بالنسبة للشخص الذي يريد ان يتوجه اليه[3].

12 ــ اعداد انفعالي :

ــ الانفعال المجرد : لا ينبغي ان يكون عند الممثلين اي تعليل مسبق. سيقومون برياضة انفعالية خالصة. في البداية يبتسمون فرحين ويحب بعضهم بعضا كل واحد يحاول ان يرى الجانب الطيب في الأخر. ولالغاء كل امكانية لتعليل اي انفعال يعبر الممثلون ليس بالكلمات ولكن بالأرقام : 23،8،115 الخ..

يبدأ التغيير الكمي لهذا الحنان. في البداية يقدر الممثلون بعضهم بعضا ثم يتناقص

هذا التقدير. يأخذ التغير النوعي طريقه حتى يستحيل الحنان الى كراهية. الى أقصى حد من الكراهية. الشرط الوحيد هو الا تهدد سلامة الأشخاص. حتى لا يتحول انشغالهم الى وقاية انفسهم بدل التركيز على الانفعال فقط. ويعود الممثلون بعدها شيئا فشيئا الى حالة الفرح والحب الاولى.

ــ نفس التمرين السابق : ينتقل الممثلون من انفعال الى الانفعال المضاد ثم يعودون الى الاول. لكن بدل الارقام يطلقون أصوات حيوانات. يمكن تأدية هذا التمرين على نحوين : الممثل يتصرف كالحيوان تماما. أو يتصرف حسب نقل مُؤَنْسَنٍ للحيوان، اي دون ان يفقد خصائصه البشرية.

ــ حيوانات أو نباتات في حالات انفعالية : نخلة على الشاطئ ذات يوم من ايام الصيف. يتغير الجو، تقترب العاصفة تتبدل فرحة الصيف خوفاـخوف من ان تتحطم النخلة وتحملها الامواج (يقوم الممثلون هنا بتشخيص الريح وكل تقلباتها.) أرنب يلعب مع إخوته. يأتي الثعلب. تختبىء الارانب حتى ذهاب الثعلب. سمكة تسبح في الماء فرحانة حتى تعلق في الصنارة.

ينبغي في كل هذه التمارين أن تكون الاصوات جد موحية، اعتبارا لأن الكائن البشري يملك الكلمات والمفاهيم للتعبير عن انفعالات في حين لاتملك الحيوانات سوى الأصوات. هذا ما يجعل التعبير البشري ذا فقر حواسي كبير مع ما يحتويه من غنى في الالفاظ والعبارات التصورية.

يجب على الممثل، دون ان يفقد قدرته اللفظية والتصورية، ان يطلق الحرية لامكانياته الحواسية الهائلة.

13 ــ ألعاب للإنسجام الجماعي :

هذه التمارين خاصة بمجموعة عمال أو طلبة لم يعرفوا التمثيل من قبل : وهي ليست تمارين مختبرية بل ألعاب تساعد الناس على أن يقبلوا امكانية القيام بمحاولة في التمثيل، كما يحدث في المسرح، وتساعدهم ايضا على ان يتحرروا من تحفظهم.

ــ ايماء (ميم). تتشكل مجموعتان . تقترح المجموعة الاولى على احد أفراد المجموعة الثانية عنوان فيلم أو اسم رجل سياسي أو جملة أطلقها حديثا ديماغوجي ما أو سياسي شعبي. يقوم هذا الممثل بايماء الجملة أو الشخص ويبقى على أفراد جماعته التعرف عليه.

اما بالنسبة لممثلين اكثر خبرة فيمكن الاقتصار على الفكرة الرئيسية لمشهد ما ولتوضيح الفكرة يعتمد الممثل على امكانياته الجسدية وقدرته التخيلية فقط.

ــ لعبة المجرم : في بهو فندق حيث ينعدم كل اتصال مع الخارج تكتشف ورقة كتب عليها «أنا مجرم وسأقتلكم كلكم». يجب على كل الموجودين اكتشاف المجرم بأسرع مايمكن. (يكون المخرج قد عينه خفية ومسبقا). يستطيع المجرم عند اشارة متعارف عليها «تصفية» الجميع (ضربة خفيفة فوق الكتف مثلا) ولكنه لا يفعل الا بعد ان يكون ترك للممثلين عشرة دقائق يكتشف فيها بعضهم بعضاً. كذلك يستطيع الممثلون باتفاق الاغلبية «تصفية»

المشتبه فيهم. يمكن لهذه اللعبة ان تتحول الى تمرين مختبري يبدع فيه المشاركون أدوارا وشخصيات لها انفعالاتها الخاصة.

هذا تمرين ممتاز لتنشيط قدرة الممثل على الادراك الحسي والتمييز. كل ممثل يدرس بشكل دقيق جدا الممثلين المتواجدين معه لأنهم حسب رأيه مجرمون كلهم. يستطيع المخرج ان يعين مجرما أو عدة مجرمين أو لا احد على الاطلاق، المهم هو الحرص على ارتفاع حدة التوتر والانفعال والانتباه الى حد كبير.

ــ مقاومون وبوليس : مجموعتان واحدة تكون المقاومين والاخرى البوليس. يجدون أنفسهم دون تعارف مسبق يسافرون على متن نفس الشاحنة. اذا بالشاحنة تتعطل وتتوقف. كل واحد يعرف انه ليس بينهم سوى مقاومين وبوليس.

هذا التمرين يقوم على ان يحاول كل واحد التعرف على الصديق والعدو. والاتفاق على إشارة معينة «لتصفية العدو». ينتهي التمرين عندما لايبقى من الأحياء الا أفراد من هذه المجموعة أو تلك. يلعب التخيل والملاحظة هنا دورا كبيرا. على كل ممثل كيفما كانت المجموعة التي ينتمي اليها ان يتخيل قصة مقنعة ليوضح لاصدقائه من يكون حقيقة وليوهم أعدائه انه الى جانبهم. يسمح للممثلين ان يكونوا جماعات صغيرة حتى لا يتكلم الجميع في وقت واحد. تكون هناك استنطاقات منفردة «وقتلى» منفردون. وقد يبلغ هذا التمرين درجة قصوى من العنف الانفعالي والايديولوجي. اذ ان الغرض هنا ليس خلق شخصيات من أي نوع ولكن مناضلين من جهة ومضطهدين من جهة اخرى، كل جماعة مُبَرِّرَةً مواقفها.

14 ــ تمارين على الاقنعة والطقوس الاجتماعية :

ــ يبدأ الممثل في الكلام والتحرك بشكل عادي، بينما يحاول الاخرون التقاط قناعه واعادة خلقه. وليس معنى هذا إعطاء الصورة بشكل كاريكاتوري. ولكن إبراز القوة الداخلية التي تدفع الممثل لكي يتصرف هكذا. الممثلون يقلدون الاستاذ ولكن حسب المفهوم الذي أعطاه أرسطو لذلك : «التقليد ليس معناه نسخ المظاهر الخارجية ولكن إبراز القوة الداخلية الخلاقة التي أنتجت هذه المظاهر». مثال : من خصائص احد الممثلين المميزة ذلاقة اللسان، لكن ذلاقة الانسان هذه تخفي في الحقيقة انسانا خجولا ومترددا، وهو يحاول إخفاء ذلك وراء الكلام بدون توقف مخافة ان يهاجمه الأخرون. يجب على الممثل إعادة خلق هذا الخوف الذي يدفع الى الحديث المسرف. يجب بالتالي كشف الحواجز الاجتماعية التي أدت الى هذا الخوف. إن أساس القناع هو دائما ضرورة اجتماعية تحددها الطقوس الاجتماعية.

ــ ممثلان يتحدثان أو يناقشان. كل واحد معه مجموعته التي تقلد حركاته محاولة خلق القناع الذي يتقنع به كل لحظة من لحظات النقاش.

بعد قليل يأخذ الممثلان في تقليد أحدهما الاخر بحيث تنتهي كل مجموعة الى محاكاة ممثل المجموعة الاخرى.

ــ خمسة ممثلين يتكلمون ويتحركون ويلاحظ بعضهم بعضا. بعد لحظات ينطق المخرج اسم احدهم ويبدأ الاخرون في تقليده، بعد ذلك ينادي اسما أخر وهكذا...

ـــ يطلب من احد الممثلين ـــ دون ان يفقد أيا من خصائصه ـــ ان يضيف الى قناعه عناصر أو خصائص قناع احد أصدقائه بحيث يمكن ان نتساءل مسبقا كيف سيصبح فلان اذا ما اضيف اليه عنف فلان أو كيف سيصبح هذا الممثل القوي العدواني اذا اضفنا اليه خجل ممثل اخر دون ان يفقد قوته وعدوانيته. وهناك توفيقات لا نهائية يمكن خلقها باضافة عناصر جديدة أو تبادلها بين الممثلين.

ـــ اعطاء القناع ابعاده الشاملة : يتطابق القناع والكائن ولكن تحت القناع تستمر الحياة. واعطاء القناع بعده الشامل يعني ان تجعله يكتسح الكائن الانساني تماما حتى اقصاء آخر عنصر للحياة فيه. مثال : الجانب الانساني في العامل لا يتلاءم والعمل الميكانيكي الذي يقوم به . وهكذا بقدر ماتكون حياته لا انسانية بقدر مايصبح ماهرا، بقدر ما يصبح آلة. يقوم جسد الممثل بالحركات التي يؤديها العامل عادة. ثم يتشكل القناع ويطغى شيئا فشيئا حتى يموت العامل (مثال الخياطة التي انتهت بخياطة جسدها أو المومس التي لم تعد سوى جسد يتحرك).

ـــ لعبة الحرف : يكتب الممثلون على أوراق مختلف المهن والحرف : عامل، طبيب أسنان، رجل دين، ضابط، سائق، ملاكم الخ... تخلط الاوراق وكل واحد يسحب ورقة ويقوم بارتجال الحرفة (ايماء) لعدة دقائق. بعدها يحاول الاخرون التعرف على الحرفة التي قام الممثل بتشخيصها.

ـــ لعبة الحيوانات : نفس التمرين السابق. يستعاض عن اسماء الحرف باسماء الحيوانات. يمكن تأدية هذا التمرين بطريقتين اما بتشخيص الحيوان (تصرفاته وخصائصه) واما بتشخيص الانطباعات الذاتية التي لنا عن هذا الحيوان أو ذاك. يمكن ايضا تسجيل اسماء الحيوانات ذكورا وإناثاً. ويحاول كل ممثل في أقل من عشرة دقائق التعرف على شريكه. ليس ضروريا أن يقوم الممثلون بادوار الذكور والممثلات بادوار الاناث.

ـــ لعبة الادوار المكملة : نفس التمرين ولكن هذه المرة ينبغي ارتجال مشاهد يكمل بعضها بعضا : الزوج ـــ الزوجة ـــ الدركي ـــ السارق ـــ الخ...

ـــ ينقسم الممثلون الى مجموعتين الاولى تحكي قصة والاخرى تشخصها تشخيصا صامتا.

15 ـــ تكسير القمع :

يحاول الممثل تذكر لحظة من حياته عانى فيها من قمع شديد.

مثال : طالبة أمريكية سوداء ذهبت لزيارة عمتها في الجنوب ومنعت من دخول مقهى يوجد بها زبناء بيض. يتم التمرين على ثلاثة مراحل :

في المرحلة الاولى : محاولة إعادة الحدث كما تم في الواقع (دون زيادة أو نقصان) ولكن بأكثر ما يمكن من التفاصيل. ودون أن يبدي بطل القصة مقاومة من أي نوع. في المرحلة الثانية يرفض الممثل القمع الذي سُلِّطَ عليه. كلنا يعرف أنه عندما يكون هناك قمع ـــ من أي نوع كان ـــ فلأنه يجد لدى الضحية نفسه سندا. لو كان الانسان يحب الحرية أكثر من حبه للحياة فلن يكون هناك قمع ابدا : اكثر ما يمكن عمله هو قتله. نحن مضطهدون لأننا مستعدون لتقديم تنازلات لقبول القمع على شرط أن نظل على قيد الحياة. في المرحلة الثانية رفضت الفتاة السوداء مغادرة المقهى وللتو فإن كُلَّ النظام القمعي تحرك ضدها. حتى أقاربها

ننصحوها بمغادرة المكان ولكن الفتاة صممت على الصمود في وجه القمع. في المرحلة الثالثة من هذا التمرين يغير الممثلون أدوارهم ويمثلون بالضبط عكسها. الشابة السوداء تمثل دور الشقراء التي طردتها. والدها يمثل عمدة البلدة الخ...
بشكل عام تحدث أثناء هذا التمرين أشياء مفيدة.

16 ــ تمارين عامة بدون نص :

ــ ارتجال : تمرين تقليدي يرتكز على ارتجال مشهد اعتمادا على بعض العناصر الاولية. على المشاركين ان يتقبلوا كل المعطيات التي يتقدم بها الآخرون أثناء الارتجال. وعليهم ان يتمموا هذا التمرين تدريجيا بعناصر جديدة من تخيلهم. يمنع الاستغناء عن أي عنصر.

لتلافي السقوط في الانفعال ولكي يكون الارتجال ديناميكيا لابد للممثلين ان يوظفوا «محركاتهم» أي «إرادة مهيمنة» ــ نتيجة صراع بين إرادة وإرادة مضادة على الأقل (4) ــ قادرة على تحديد صراع داخلي وذاتي. لابد لهذه الصفة المسيطرة أن تصطدم بنظيرتها عند الممثلين الاخرين بحيث يتشكل من كل هذا الصراعُ الخارجي الموضوعي. أخيرا يجب أن يتطور هذا النظام التنازعي كما وكيفا. إذ لايكفي أن تحقد وتستمر في حقدها. ينبغي أن يتغير هذا الحقد إلى غلطة أو حب أو أي شيء آخر. إن التغير الكمي ليس مسرحيا بل هو أقل من ذلك بكثير بالنسبة لتغير يصحبه تغير كيفي حقيقي.

يجب أيضا التفريق بين الأرادة (التي يمكن أن تكون نتيجة نفسية متقلبة الاطوار) والحاجة الاجتماعية. الارادات التي تقدم فائدة عملية هي تلك التي تعبر في حقل علم النفس الشخصي عن حاجة اجتماعية. الارادة هي حاجة.

تمارين الارتجال هذه ينبغي أن تقتبس مواضيعها ــ خصوصا بالنسبة للفرق الشعبية ــ من احداث الجرائد حتى يسهل النقاش الايديولوجي والسياسي وبهذا يمكن ايضا ادراج المشاكل الفردية في اطار حياة اجتماعية وسياسية واقتصادية اوسع. مثال في الارتجال (بالميم أو مصحوبا بحوار): القرد السيء التربية. هذه القصة اعتمدت حدثا وقع بالفعل في بلد ما:

1) ضابط اعلى في الجيش يتنزه مع حرمه وأولاده وخادمته الأمينة. انه يوم احد مشمس. يقررون الذهاب الى حديقة الحيوان.

2) يتنزهون أمام أقفاص الحيوانات. وجوههم واوضاعهم ينبغي أن تعبر عما يشاهدون : فيل، أسد، تمساح، سمك، خرتيت، جمل الخ...

3) انهم امام قفص القردة. يمزحون طويلا. فجأة تحدث الفاجعة: قرد بلا حياء يقوم بعملية استمناء أمام زوجة الضابط الطاهرة والاولاد الشرفاء والخادمة الأمينة.
رعب أخلاقي. تردد. خجل. مالعمل ؟

4) يخرج الضابط مسدسه ويطلق النار على القرد الذي يموت لتوه. بعض الناس يغتاظون واخرون يصفقون. يغمى على الزوجة بالسرعة التي تكفي لجعل الناس يغيثونها.

5) يأتي حارس الحديقة ويجد نفسه مضطرا لمتابعة الضابط امام المحكمة.

6) في المحكمة يدافع القاضي عن القرد وحقه المشروع في التصرف حسب غرائزه وليس حسب القوانين والمعاهدات البشرية.

7) يدعي محام الدفاع ان القرد قد خرق حق الضابط في الاستجمام مع عائلته ظهر يوم احد مشمس. وحسب الدفاع فإنه لم يكن للقرد التربية الضرورية للانتماء الى حديقة حيوان في مدينة متحضرة كمدينتنا والمتشبثة كثيرا بالتقاليد المسيحية. ويبدأ في تعداد مشاهير رجالات بلده في العلم والادب وكذا أعضاء الاكاديمية وبعض الحيوانات المثالية كالببغوات.

8) يقرر القاضي تبرأة الضابط وسط تصفيقات الحاضرين وينزل عقوبة صارمة بالقردة الاخرين الذين اعتبرهم متواطئين معه لأنهم لم يقوموا بأي شيء لمنع جريمة الاستمناء.

9) كل الناس يغادرون القاعة مبتسمين سعيدين ومرتاحي الضمائر.

ــ الغرفة السوداء : مكان معتم نسبيا. ممثل جالس قرب آلة تسجيل مغمض العينين. ممثل اخر، أو المخرج نفسه يرسل اليه الاوامر محددا له المكان الذي يوجد به (زقاق كذا). على الممثل ان يتخيل هذا الزقاق ويصفه في أدق تفاصيله، يصف الملابس التي يرتديها، يصف وجوه المارة. يأمره المخرج بالتوجه نحو المطعم (يستمر الممثل في الكلام واصفا الخدم، الكراسي، الزبناء، الخ...) يجلس ويفكر في ان يسرق محفظة الرجل السمين الذي يقرأ جريدته. انه تمرين للتخيل وكذلك لتحرير انفعالات الممثل.

بعد ان يكون قد أكل بسرعة يصف الطعام ومذاقه. يذهب الى المرحاض. يفشل في سرقة المحفظة، يدفع الحساب ثم يخرج مهرولا مخافة ان يتهموه بعمل لم يقم به.

بعد انتهاء التمرين يستمع الممثل الى التسجيل ثم يحاول ثانية إعادة تركيب الاحداث وان يعيش تلك الانفعالات من جديد.

ــ قصة يحكيها كثيرون : يبدأ ممثل في حكاية قصة ما. يقاطعه اخر ليتم القصة ثم ثالث حتى يكون جميع الاعضاء قد شاركوا. يمكن لمجموعة ان تشخص القصة التي تُحْكَى

ــ العمل المسرحي يحكي أيَّ قصة عن شيء يحدث. ولكن العمل نفسه يحوي نقيض مايحدث (أي ما لا يحدث). لكي تحضر في أذهان الممثلين كل الامكانيات التي كان من الممكن ان تحدث والتي لم تحدث عليهم ان يمثلوا مشاهد الاحداث التي لم تقع : كيف كان من الممكن ان يكون زواج هاملت باوفيليا ؟ ماذا يحدث لو عفا عطيل عن ديدمونة؟ كيف كان من الممكن ان يفهم اوديب انها لم تكن غلطته ويفترق هكذا عن الام الزوجة في جو ودي ؟ ماذا سيحدث لو قرر نظام تحرير شعبه من نير الامبريالية ؟

لا حدود للخيال، ومن الاحسن ان يعرف الممثل مالذي كان من الممكن ان يقع ليشخص بكل دقة الذي حدث فعلا.

ــ تبادل الادوار : لكي تساهم كل المجموعة في خلق كل الادوار، يشخص الممثلون ادوارا لايمثلونها (كل واحد يشخص دور الممثل الآخر). هكذا يستطيع الممثل ان يعطي تأويله الخاص لكل الادوار ويدرس ايضا التأويلات التي أدلى بها الآخرون بالنسبة لدوره.

ــ كل ممثل ينطق بكلمة من جملة طويلة اختيرت مسبقا مع محاولة الجميع اعطاءها الانحناءات التي ستكون لها اذا ما نطق بها شخص واحد. لتسهيل العمل يمكن لممثل ان ينطق الجملة ويحاول الآخرون تقليده : كل ينطق كلمة.

17 ــ تداريب الاندماج انطلاقا من نص :

تعليق. الفكر تدفق متواصل. الانسان يفكر دائما. يتم التواصل بين الممثل والمتفرج على مستويين : موجات وموجات تحتية (5). اي ان الانسان يستطيع أن يبلغ اكثر مما هو واع بتبليغه. وكذلك يستطيع ان يتلقى اكثر مما هو واع بتلقيه. عندما يحب شخص شخصا اخر فإنهما يعرفان ذلك قبل ان يتحدثا به. وقبل ان يطلب العامل من الباطرون رفع أجره فإنه يعرف مسبقا ما إذا كان سيقبل أم لا : إنه ادراك حسي عن طريق الموجة التحتية. بنفس الطريقة يتواصل الممثل، على المستوى الواعي. بالكلمات التي ينطق بها والاشارات والحركات الخ... وايضا عن طريق الموجة التحتية بواسطة الافكار التي يرسلها. عندما يتناقض ما يفكر به الممثل مع ما يعمله فإنه يحدث عند المتفرج المتلقي نفس التشابك الذي قد نتلقاه من الراديو عند اذاعة نبأين متناقضين. في هذه الحالة يستحيل تسجيل كلا النبأين. عندما يكون الممثل أثناء العمل يفكر في شيء آخر غير الدور الذي يقوم به فان المتفرج سيتلقى الصوت والفكرة معا.

تمرين التعليق هذا هو كالتالي : في الوقت الذي يطلق الممثل حواره بصوت عال فإن الاخرين يقولون ما يفكرون به بصوت منخفض. هكذا سيتكلم الممثلون جميعهم في تدفق متواصل موضحين أفكارهم مضيفين ديناميكية جديدة الى اللعب (لان الافكار ستكون في حركة دائمة ولها علاقة وثيقة بما يحدث فوق الخشبة) بهذا يمكن تلافي ثغرات الانفعالات الجامدة التي تغرق الممثل في حزن ساكن أو فرح أو شيء اخر ليس هو هذا التدفق المستمر للافكار).

يصلح هذا التمرين ايضا لتركيب مشهد حول الفكرة الرئيسية على أساس ان تصب كل الافكار الاخرى في اتجاه الحركة الرئيسية.

18 ــ حالة الاندماج المنفردة :

من الصعب غالبا على الممثل السيطرة على حالة اندماجية شديدة التعقيد. كما يكون من الصعب على رسام استعمال كل الالوان الموجودة أمامه في آن واحد.

هذا التمرين يطلب من الممثل ان يفرق الحالة الاندماجية ولو الى ثلاثة مراحل على الاقل وان يمثل عى انفراد كل واحدة منها.

أولا الارادة ثم الارادة المضادة واخيرا الصفة المسيطرة.

مثال : هاملت يريد ان يقتل نفسه ولكنه يريد ان يحيا ايضا. ويبدأ أولا بتمثيل إرادة الموت (عليه ان يترك جانبا كل رغبة في الحياة. وعزل عنصر الموت هذا تماما عن باقي العناصر الاخرى) بعدها يمثل عنصر الحياة (هنا ايضا ينبغي إقصاء كل رغبة في الموت) وفي النهاية يمثل الصفة الغالبة اي الحالة الاندماجية كاملة.

هذا يساعد الممثل على تحريك كل عنصر على حدة ثم إلحاقه بالكل. وبقدر مايكون تمثيل الصفة الغالبة جدليا بقدر ما يساعد الممثل على السيطرة على الارادة والارادة المضادة.
ــ الانفعالات الخاصة : كما رأينا بالنسبة للاندماج كذلك بالنسبة للانفعالات. في الحقيقة ليست الانفعالات خالصة تماما. اننا لا نحس ابدا حقدا خالصا أو حبا خالصا. ولكن هذا ضروري بالنسبة للممثل في مرحلة خلقه لدوره.

عند تمثيل مشهد ما لا يحافظ الممثلون الا على الانفعال الاساسي الخالص (باعتبار ان الانفعالين الرئيسيين هما الحقد والحب). يمثلون اولا بحقد، حقد عنيف ورهيب في كل جملة وحركة. ثم يعيدون نفس المشهد بحب. اخيرا حسب نوعية الصراع يختار لكل مشهد الانفعالات التي تخصه (نفاذ صبر. تلهف. حالة عصبية. لا مبالاة. خوف. أو سمات أخلاقية كالشجاعة والجبن والمسكنة الخ...)

19 ــ الوقفة المصطنعة :

ان اعادة نفس الكلمات والحركات أثناء التدريب والعروض من شأنه ان يخلق عند الممثل حالة تخدير، الشيء الذي يضعف لديه القدرة على لمس ووعي ما يقوله وما يفعله. والنتيجة ان ما يبلغه سيكون ضعيفا.

في هذا التمرين يمنع على الممثل ان يتكلم أو يعمل ما عليه ان يعمله فورا. عليه، بالعكس، ان يتوقف وقفة مصطنعة (خمسة الى عشرة ثواني أو اكثر). بهذا يفقد الممثل تلك الركيزة الميكانيكية التي يوفرها له الايقاع. ويفقد ايضا ذلك الاطمئنان الذي يوفره العرض وتستيقظ إذذاك حساسيته وانتباهه. أثناء هذه الوقفة يمكن للممثل ان يفكر في أي شيء.
ــ تمرين اخر على الوقفة المصطنعة: أثناءه يفكر الممثل في قول أو فعل عكس ما عليه ان يقوله. عندما يفكر الممثل فيما سيقوله فإنه يسقط من حسابه امكانية الا يقوله. أو امكانية ان يقول عكس ما سيقول أو ان يدخل جدليا عكس ما يقول ضمن ما يقوله حقيقة.

الممثل يحاول فقط ان يقول ببساطة ما تعنيه الكلمات بلا مفاهيم خاصة. عليه في هذا التمرين أن يقول ويحس تماما عكس ما سيقوله من بعد (بهذا يحمل النص والحدث كل فوارق التغيرات الممكنة).

عندما يقول روميو لجولييت انه يحبها عليه قبل هذا ان يعاني من تأثر بالغ لكونها منعته من الذهاب، الشيء الذي يعرض حياته للخطر.

قبل ان يقتل عطيل ديدمونة عليه ان يحس رغبة عميقة في ممارسة الجنس معها.
ــ سماع الممثل بصفة مستمرة لنفس الحوار، نفس الكلمات، يخلق لديه تلك الحالة التخديرية ولا يعود الممثل يسمع شيئا أو يستمع الى شيء. لايعود يفهم ما يقوله الاخر. هنا يقوم الممثل بوقفة مصطنعة يفكر فيها أو يقول ملخص ما جاء به مخاطبه. بهذا فانه يدخل فعله ضمن أفعال الاخرين ويتلافى العزلة الذاتية ويندمج ضمن البنية العامة للصراع.
ــ امكانية اخرى في استخدام الوقفة المصطنعة : يتساءل الممثل أثنائها عما سمعه وما عليه

ان يقوله أو يفعله، مراهنا على الامكانيات والاختيارات المختلفة. هكذا سيلعب الشك دوره في الاختيار. ومجموع هذه الامكانيات والاختيارات ستجعل من الممثل شيئا غير ميكانيكي.

20 ــ الضرورة/الارادة :

ليست ارادة شخص ما في غالب الاحيان سوى التعبير بطريقة ذاتية عن ضرورة اجتماعية. تتجسد الضرورة الاجتماعية وتتشخص في «نفسانية» ما.

المهم هنا هو الوظيفة الاجتماعية للشخصية وليس طبعها أو مزاجها : البابا «يريد» من غاليليو ان يجيب عن التهم الموجهة اليه من قبل محكمة التفتيش فقط لانه البابا.
الحرب الابادية ضد الشعب الفيتنامي البطل قادها ــ ثلاثة رؤساء : كنيدي. جونسون. نيكسون. ثلاثة أمزجة مختلفة ووظيفة اجتماعية واحدة : رؤساء الامبريالية.

سيحاول الممثل في هذا التمرين أن يحس ويفهم ويبرهن على ان اعمال محددة سلفا بالنسبة لما يمكن أو لا يمكن ان «يريده». العمل هنا يقوم على المعارضة بين «الارادة» و «الواجب». بين «اريد» و «يجب علي».
ــ سرعة : هذا التمرين شبيه بكرة القدم البرازيلية. ليس للاعب الحق في توقيف الكرة وعندما يلمسها فانه لايتعدى في أقصى الحالات مرتين وعليه بعدها ان يسلمها الى جاره.

وهذا التمرين مقترح على الممثلين ذوي التكوين الستانسلافسكي. فهؤلاء يدفعون الذاتية الى أقصى حدودها ويسمحون لهذه الذاتية بالتالي ان تصير واقعا. هذه ا عملية تحول الواقعية الى تعبيرية، الواقع منظوراً اليه من خلال شخص. انهم يقفون احيانا وقفات جد طويلة ليقولوا فقط «طاب نهارك».

هذه التيارات العارمة من الذاتية (لكل ذاتيته) تمنع تركيب الاحداث تركيبا منسجما، إذ أن كل ممثل يريد ان يفرض وجهة نظره الشخصية على الواقع.
يجب على الممثلين في هذا التمرين ان يعملوا على ان تمر الحركة سريعا وبأكبر عنف انفعالي ممكن وبأكبر وضوح في الافكار.

21 ــ محاولات ارتجالية بسيطة :

كل ممثل يرتجل ما يمكن ان يقوم به قبل دخوله الخشبة وبعد خروجه. حتى تعطى للحدث الاستمرارية وللممثل الاستعداد.

22 ــ تحويل الانفعالات :

ــ تمرين ميكانيكي ومتعب ولكن بإمكانه ان يعطي نتائج مرضية في حالة توقف لا يمكن تفسيره .

يحكى ان ممثلا كان يوصل الى الجمهور تيارا عارما من الرهبة والموت عندما يضع المسدس فوق صدغه ويتساءل هل يقتل نفسه ام لا. كيف يتم هذا ؟ امام عجز الممثل عن الشعور بقرب الموت كان بواسطة «الذاكرة الانفعالية» ينتقل الى التفكير التالي : كم هو رهيب ان يستحم المرء بالماء البارد في فصل الشتاء (وهذه حالة تعود الى أيام صباه عندما كان ممثلا فقيرا). هذه التحويلات الانفعالية ليست عملا غير نزيه انها تساعد الممثل على ان يعبر عن انفعال بواسطة انفعال اخر: ألا يحتوي الماء البارد في فصل الشتاء شيئا قاتلا ؟

ـــ تمرين صامت : أهم تمرين بواسطة الموجة التحتية. على المشارك ان يحترم التمثيل والايقاع كليا ويفكر وبشكل قوي في كل كلمة من النص محاولا نقل المحتوى بواسطة الموجة التحتية. لهذا يجب التركيز بشدة. لا ينبغي ان يتحول الى تمرين في «الميم». ولا ينبغي إضافة أي حركة أو إشارة قصد مساعدة الاخر على فهم ابعاد الحوار.

عندما ينجح الممثلون في أداء هذا التمرين بشكل صحيح فإن نتائجه تكون مذهلة. لقد حدث ان متفرجين حضروا أثناء تدريب من هذا النوع. وكان بإمكانهم المساهمة في النقاش دون ان يكونوا قد شعروا بانعدام الحوار قالوا : ان ما شاهدوه كان مسرحا.

ـــ تمرين بطيء : للممثل طبعا وجهة نظر ذاتية حول الشخصية التي يمثلها. انه يرى العمل والشخصيات الأخرى حسب هذا المنظور الذاتي. لهذا من الأحسن ان تتم التمارين الاولى دون ان يعرف الممثلون الادوار التي سيقومون بأدائها. على المخرج ان يرى العمل في عموميته : موضوعيا. ان هذا النزاع بين ذاتية الممثل ووجوب موضوعية المخرج غالبا ما تكون نتيجته التضحية بالقدرة الخلاقة عند الممثل.

يحتاج مشهد ما مثلا الى نوع من السرعة تجعل من الصعب على الممثل تحقيق دوره بشكل تدريجي. هذا التمرين يعطي حلا لهذا المشكل إذ يمنح الممثل الوقت الكافي لتحقيق الافعال والتغيرات والحركات التي كان يرغب في تحقيقها. عندما يتمكن من هذا يصبح من السهل تجميعها وتكثيفها. يجب أن يتم هذا التمرين بتعاقب مع تمرين السرعة.

ـــ أشكال اخرى من التمرين البطيء تتعلق بالحواس : يجب على الممثل ان يفتح حواسه لكل المثيرات الخارجية، التي لها علاقة حسية شهوانية أو جنسية مع العالم الخارجي. من الناس من يمارس الحب بميكانيكية اي دون ادنى شهوة. على الممثل، بالعكس، حتى عندما يلقي نظرية رياضية ان يفعل ذلك بطريقة شهوانية أي «جماليا».

ـــ يحدث اثناء هشهد ما ان يفقد الممثل ثروته الفكرية والانفعالية من جراء الجهد البدني الذي يَبْذُله وهو يقوم بحركة أو مبالغة في تعبير (في الهواء الطلق مثلا) هذا التمرين (الالقاء همسا) جد نافع لاعادة الحياة الى المشهد. لان كل طاقة الممثل إذ ذاك سترتكز على الجوهري وليس على قدرته الصوتية. ويستمع الممثل الى نفسه ويسيطر عليها احسن.

ـــ ظروف متعارضة : هذا التمرين يصلح لتكسير كل التركيبات التي حددها مسبقا معرفة الممثل لما سيفعله أو سيقوله أو يسمعه. يعتاد الممثل مثلا ان يمشي على الخشبة بكل مسالمة ولا مبالاة دون ان ينتبه الى ذلك.

لتلافي هذا على الممثل ان يعمل في ظروف تعارض تلك التي يعرف. مثلا مشهد عنيف يمثله بهدوء. أويوصل نفس المضمون بعبارات مغايرة.

يمكن ايضا تغيير الاخراج أو تمثيل مشهد طبيعي (مليء بالاكسسوارات عادة) بالكلمات فقط (دون تلك الادوات) أو تمثيل مشهد من مسرحية للوبي دي فيكا (1562 ـــ 1635) بطريقة طبيعية أو العكس. يمكن ان ينصب هذا التمرين على الاخراج أو الاندماج أو النص.

ـــ يمكن ان ينصب التمرين السابق على تغيير في نوع العرض : السيرك. الكاريكاتور. المسرح الرسمي التعبيرية. الميلودراما. الخ...

ـــ مبالغة. يبالغ الممثلون في كل شيء : الانفعالات. الحركات. النزاعات بتجاوز الحدود المتعارف عليها ولكن دون الخروج عن الموضوع. وهذا لا يعني ان شيئا يحل بدل شيء آخر ولكن يعني المبالغة في الشيء نفسه : المبالغة في الحقد، في الحب، في الصراخ. يجد الممثل المقاس الصحيح والنغمة المضبوطة بعد وليس قبل المبالغة.

ـــ يأخذ الممثل الحرية في القيام بكل ما يريده : تغيير الحركات، النص، كل شيء. الحدود الوحيدة التي ينبغي الوقوف عندها هي الحفاظ على سلامة الآخرين حتى يمكن لهم بدورهم الابداع دون خوف. أساس هذا العمل هو ان الجزء الاكبر من الابداع الفني عمل عقلاني ولكن ليس كله. هناك دائما أشياء غير متوقعة كأن يطلق ممثل العنان لأحاسيسه اللحظية اللاعقلانية غير المقررة سلفا.

يمكن لهذه الجلسة التحريبة ان تخضع لتغييرات عدة. عندما يشعر الممثل بعدم وثوقه بما سيفعله الاخرون فان هذا يدفعه للخلق والملاحظة. ويمكن لهذا العمل ان يكون خطيرا ايضا إذا تم قبل ان تحدد المعطيات الاساسية العقلانية التي يرتكز عليها العرض.

ـــ يقوم الممثل بكل الافعال ويقرأ كل الادوار ليس في الحاضر (هنا والان) ولكن وهو يتنبأ بما سيفعله في المستقبل اي كما لو كان ما يزال في مرحلة التفكير فقط : «سأقول كذا. وسأفعل كذا. ولكن ليس الان» انه يتعرف اولا على الطرق التي سيقطعها. إنه لا يحقق، إنه يتعرف.

ـــ كاريكاتور : تمرين يمكن القيام به على طريقتين. اما ان يقلد الممثل بشكل ساخر طريقة تمثيله هو أو طريقة صديق آخر في التمثيل. يقول برجسون «إن الناس يسخرون من آليتهم وصلابتهم». عندما يقوم الممثل بتشخيص كاريكاتوري لفرد فان ما يثير الضحك هو ماهو غريب في سلوكه. اذا استطاع الممثل عبر الكاريكاتور ان يرى ما هو آلي في أدائه فإنه يستطيع بسهولة ان يغيره وان يجعل عمله أكثر حيوية.

ـــ من أجل فهم احسن للشخصيات يمكن تبادل الادوار أثناء التدريب (من الاحسن ان يقوم التبادل داخل نفس العلاقة : الزوج، الزوجة، ـــ الاب، الابن ـــ العامل، رب العمل). ليس المطلوب من الممثلين حفظ النص عن ظهر قلب ـــ يكفي إعطاء فكرة عامة عن الدور أو مضمونه.

ـــ اثناء تلاوة النص يبحث الممثلون عن إيقاع يرونه صالحا لمشهد ما ويبدؤون التمثيل تبعا لهذا الايقاع. ويتغير الايقاع بتغير المضمون. ليس معنى هذا الغناء ولكن التلاوة بايقاع. سيسهل هذا التمرين عملية اندماج الجماعة والتركيب الموضوعي «للذاتيات».

ـــ يقرر الممثلون ـــ لاعطاء خيالهم حرية أكبر ـــ ارتجال مشاهد مشابهة للمشهد الذي سيقومون بأدائه. مثلاً : إذا كان المشهد الذي سيشتغلون فيه هو القمع الفاشي المسلط على الشعب البرازيلي، فلاشيء احسن من ارتجال مشهد مشابه عن القمع النازي لليهود الالمان أو

عن بوليس ولاس والسود في ألاباما.

23 ــ تمارين أخيرة ·

تصلح هذه الجلسات لتنمية رشاقة الممثل وقدرته على تغيير انفعالاته أو شخصيته بسرعة ـــ وذلك باعطائه مرونة بدنية وفكرية وانفعالية اكبر وقدرة فائقة على التركيز والانتباه. بقدر ما تكون ظروف عمل الممثل صعبة بقدر ملتكون انجازاته غنية.

ــ وجوه الممثلين إلى الحائط : يلقي المخرج أو الممثل اي جملة من النص. بعد اعطاء التعليمات حول طريقة اللعب (حقد كاريكاتوري أو حب مبالغ فيه الخ...) يبدأ الممثلون فورا في أداء المشهد ويأخذون المواقع التي يحتلونها عادة عند تلك الجملة. انطلاق عملهم إذن هو تلك الجملة، ذلك الموضوع المقترح. بعد عدة دقائق يلقي ممثل اخر، موضوعاً اخر. تتوقف الحركة فورا وبسرعة يعوض المشهد المقترح المشهد السابق. يأخذ الممثلون المواقع التي يشغلونها عند الجملة الثانية وهكذا...

ــ نفس التمرين السابق إلا ان الممثلين الذين يشاركون في المشهد الاول وليس في الثاني يتابعون تمثيل الاول في الوقت الذي يمثل فيه المشهد الثاني.

يحدث ان بعض ممثلي المشهد الاول يلتحقون للتمثيل بالمشهد الثاني. على الآخرين ان يتابعوا عملهم وذلك بان يتخيلوا ان الذين انسحبوا ما يزالون امامهم.

بعد دقائق اخرى يبدأ مشهد ثالث أو موضوع ثالث بنفس الطريقة انطلاقا من جملة مقترحة. الممثلون الذين لهم ادوار في الاول والثاني والذين لا يشاركون في الثالث يتابعون عملهم ولو مع شخصيات لا مرئية اذا لزم الامر بحيث تمثل ثلاثة مشاهد في ان واحد وبطرق مختلفة.

ملاحظـــات

(1) صوت فأر مثلا يعني بالنسبة لساكني ضفة الرماك (البيرو) حياة البؤس والاستغلال. ذلك ان الفئران تنتشر كالعدوى على ضفة النهر. وعندما يذهب الأباء الى العمل فان الكلاب هي التي تقوم بحراسة الاطفال وقد حدث ان حجزت البلدية كل الكلاب اثر وباء من الجرب فجاءت الفئران والاطفال نيام وأكلت انوفهم أو أجزاء اخرى من اجسادهم.

(2) المسرح التمثال ـــ ويعتبره بوال اكثر الاشكال اثارة ونجد في كتابه «مسرح المضطهد» مثالا على هذا الشكل من المسرح.

طلب من فتاة من لجنة محاربة الأمية في قرية «أوتيسكو» أن تشرح للناس اعتمادا على مجموعة من التماثيل كيف ترى القرية التي ولدت فيها. كان قد حدث في أوتيسكو قبل مجيء الحكومة الثورية انتفاضة للفلاحين وقد اعتقل الملاكون العقاريون زعيمهم وجروه الى الساحة العمومية حيث قاموا بخصيه.

لتشخيص هذا المشهد جعلت الفتاة احد المشاركين ملقى على الأرض وآخر يمسكه من ذراعيه وثالث يقوم بعملية الخصي. في جانب اخر يقف رجل يمثل السلطة على يمينه ويساره حارساه اللذان يهددان السجين بسلاحهما. في جانب آخر امرأة على ركبتيها تستجدي وعلى بعد مسافة مجموعة من رجال ونساء على ركبهم وايديهم مكبلة خلف ظهورهم. هذه هي الصورة الحقيقية التي تملكها الفتاة عن قريتها. صورة رهيبة متشائمة ومنهزمة ولكنها صورة شيء حدث في الواقع. طلب من الفتاة بعد ذلك ان توضح الصورة التي تريد ان ترى عليها قريتها وغيرت تركيب المجموعة تماما ورسمت شكلا اخر لناس يعملون ويتحابون. وباختصار أوتيسكو سعيدة، أوتيسكو المثل. وجاءت المرحلة الثالثة وهي الاهم في هذا الشكل من المسرح : كيف يمكن الانتقال من الصورة الواقعية إلى الصورة المثل ؟ كيف يحدث التحول، التغير، الثورة ؟

من المفروض الادلاء بالآراء ولكن دون الكلام وعندما يصيح احدهم : «هذا مستحيل. أظن أن..» فانه سرعان مايتم ايقافه : «لا تقل ما تفكر به تعال هنا ووضح لنا الامر».

عندما طلب من فتاة قروية ان تتدخل فانها لم تلمس تمثال المرأة الجاثية على ركبتيها موضحة بهذا انها لا ترى فيها قوة ثورية. وعلى العكس من ذلك عندما طلب نفس الشيء من فتاة من ليما وهي أكثر تحررا فقد بدأت بالذات بتغيير هذا التمثال. وهذا ليس صدفة بالطبع انما هو التعبير المجسد والصريح لايديولوجية وسيكولوجية المشاركات : بعضهن جعلنها تمسك بوجه الرجل المخصي واخريات جعلنها تهجم على الجلاد. اما بالنسبة للقرويات فان التغيير الوحيد الذي اضفنه يتعلق بجعل المرأة ترفع يديها الى السماء مبتهلة.

(3) نجد المثل في كتاب جروتوفسكي «نحو مسرح فقير» تمارين صوتية بالغة الأهمية (كيفية فتح الحنجرة. تنشيط الصوت. علاقته بأطراف الجسد الاخرى...).

(4) الارادة : ليست الارادة هي الفكرة (عن شخصية مسرحية) ولكن تحقق الفكرة (ماذا تريد هذه الشخصية)، إذ لا يكفي ان يريد الفرد السعادة بل عليه ان يريد الشيء الذي يحقق السعادة. الفكرة = الارادة الملموسة (في ظروف معينة). ان التحقق وموضوعية الهدف يجعلان من الارادة فعلا مسرحيا. هذه الارادة وهذا الهدف مع انه ينبغي ان يكونا ملموسين فانه ينبغي ان يحتويا مدلولا ساميا.

الصراع بين ما كبث وخصومه يحتوي فكرة عليا يحققها الاشخاص بإراداتهم : وهذه الفكرة هي صراع البرجوازية الناشئة ضد امتيازات الاقطاع. يجب ان تطابق الفكرة الرئيسية لشخصية ما «الهدف الاساسي» الستانسلافسكي : الفكرة والارادة شيء واحد الاولى كشكل مبهم والثانية حسب مظهر ملموس.

ــ الارادة المضادة : لكي يحيا المثل فوق الخشبة بالفعل عليه ان يكتشف الارادة المضادة المقابلة لكل واحدة من اراداته. ويتضح هذا في عدة أمثلة : هاملت لا يريد سوى شيء واحد : الثأر لأبيه ومن جهة اخرى لا يريد ان يقتل عمه. إنه يريد ان يكون والا يكون. نفس الشيء بالنسبة لبروتوس الذي يريد ان يقتل يوليوس قيصر وداخليا تتنازعه ارادة مضادة : الحب الذي يكنه للقيصر.

قد يحدث الا تكون الارادة المضادة واضحة (كما يمكن ان تبدو احدى الشخصيات مجردة من الصراعات الداخلية) هذا يبدو في الظاهر فقط. والمفروض ان يجتهد الممثل في اكتشاف هذه الارادات المضادة.

لا يعني هذا البحث في الشخصية عن ارادة متناقضة. ليس المقصود مثلا معارضة ارادة ياجو في اقناع عطيل لقتل ديدمونة بالخوف الذي يشعر به وهو يرى خطته تُكتشف. لا. ليس هذا هو المقصود. يجب البحث في ياجو عن الحب الذي يكنه لعطيل، ذلك ان الحقد نوع من الحب. نحن هنا امام انفعال جدلي وليس امام انفعالين متعارضين وهذا لا يمنع من وجود انفعالات اخرى. الخوف موجود ايضا. هذا الانفعال (الخوف ـــ الارادة في عدم التحرك) يجب ان يكون جدليا: منه بالذات ستنطلق الشجاعة. ويمكن تلخيص هذا في الرسم التالي :

أغسطو بوال كاتب ومخرج مسرحي برازيلي. أنجز أكثر من خمسين مسرحية. أنهى دراسته الجامعية سنة 1952 كدكتور في الكمياء واختصاصي في النفط. سافر إلى الولايات المتحدة لاتمام دراسته ولكنه اتجه إلى المسرح وعاد إلى البرازيل ومعه ديبلوم لم ينفعه ومعلومات في المسرح. اشتغل في مسرح أرينا حتى اعتقاله سنة 1971. بعد إطلاق سراحه في ماي 1971 سافر إلى الأرجنتين. اشتغل في كل دول أمريكا اللاتينية : البيرو. الشيلي (حتى الانقلاب). فينزويلا. المكسيك.... وخلال الست سنوات التي قضاها في البيرو حيث شارك في البرنامج الحكومي لمحاربة الأمية، استطاع أن يبلور آراءه حول مسرح المسحوقين. صدر له بالفرنسية كتابان عن دار ماسبيرو هما « مسرح المسحوقين » (ترجمة لكلمة Théatre de l'opprimé) و « تمارين للممثلين وغير الممثلين »، الذي ترجمنا عنه النص أعلاه.

نقل النص إلى العربية : فاضل يوسف

بــدو الجــحــيم (2)

في حبّاتِ العِنبِ الشفّاف تزلّل الجُمُوعُ
يا نوح يا أبانا البعيد
ياكفًا نورانيةً..بين فجرين تهبط الجموعُ
مع جدّاتنا
تنسج شلل الصباح..يانوح
يا أبانا البعيد
يا كفا نورانية
لا طائر يطأ الارضَ بجناح
والسماءَ بجناح ــ شعوب تشدُّ اقواسَ الحروفِ
نابلةً نشيدها
أيّتها الأرض أنصتي للعذابات العربية
ولينصت الجن وليؤمنوا
جبلَ قاف يتناسل البدو
يطاردهم لسان النيل / وسعالى الصحراء تطاردهم
والشَجَرَةُ الملعونةُ تطرق أبوابَ الساهرين
يانوحُ نتوسّلُ اليك
امنح قُلوبَنا طعام الأبديّة
وابعد عنا بدوَ الجحيم
لن يقرَبوا نومنا
لن يلمسوا جباهنا
لن يطالوا ركبنا. جاء اليقين حين انتشر الخبر في الجزيرة
وقال الفرات ياويلتي
وقالت البَرية لا أرضَ تحملني بعد اليوم
في منزل واحد الخلق
وبناتِ نعشٍ تعودُ الى منازِلها
يا ادريس عرفناك في حُبّنا / يانوحُ
عرفناك في حبنا

ايها الرسول ياسيِّد الأُفق / أيها الهلال
كن فلكا ترحلُ بأطفالنا
يحمل بَدْوُ الجحيم أكياسَ الحروفِ
من عدس وحمص وفول يجوبون الحميدية واسواق البصرة
ينادونك ايتها الابجدية
من يشتريك / والجِيَاعُ تأكُلُ الحروف العربية
كُل حرفه في عُنُقِه
وبدو الجحيم يتدافعون
اسواقُهم في جيوبِهم
وحوانيتهُم في رؤوسِهم / ليأخذوا
القاهرةَ والشامَ وعمانَ وبيروت والقدسَ / ماضون
الى الأُفقِ نُسْدِلُ
الشَمْسَ عَلَينا / ياعذاباتِ الشهداءِ ارحلي عنا
نساءً تأكُلُ جثثَ العُشّاق
أقلعـي ــ اقلعـي
نَتَنُ العشاقِ يملأُ المدينةَ ــ اللعنة اللعنة على زواحف الارض
ياعذابات الشهداء ارحلي عنا
ويا شهود موتنا تقدموا
يتقدم بدو الجحيم بواكِبُهُم
حرسُ اللّيلِ البَهِيّ / والأفق يصيح
اريد حُرَّاساً على الجبال والسهول والانهار
وبدوُ الجحيم يجمعونَ المُؤن / يتكورون صررا
ما بكم تخزنون اللحم والنبيذ والطير والقمح ــ منازلنا مدافن
لنا..وجهوا المراكب وأقلعوا
ويا أيها الأفق الرحيم اتسع
لتقدم النادباتُ
وليحلِقنَ شعورهنَّ فوقَ الحرائقِ
على الصراطِ الفاصلِ
بين الجحيمِ العربيِّ وبين الجنَّةِ صعدنا
سمعنا الجنَّ يتشاجرون . يتقاسمون الخبزَ
يعودون أنسا
رأينا ملوك الجان تداعب بيروت ــ رأينا
ارواح الشهداء مثل أصداف البحر تلعب في الفضاء
على الصراط الفاصل بين الجحيم العربي وبين الجنة
سمعنا الفتيات الصغيرات ينشدن وفامهن والعناب
يتأَوَّهُ / سمعنا صيادى اللؤلؤ في الخليج

يبكون
نحن حزانى الموائدِ الفارغةِ راحلونَ
نحو الأفق على جباهنا وشمُ البداوةِ
شفاهُنا لاتنزف سراً ولاخبزا / راحلون
تطاردنا أذيالنا
واكتافنا لا اكتافنا / محطة رحيل / حفيف ريش يتطاير
وراءنا ثكنات تطارد الحقول ونحن نميل
من الضلوع الى الترائب
في سلال خواتم في منزل كروي
نتوغل في غابات كثيفة كشعر الرأس
نردد
الله الله الله الله الله الله الله الله الله الله الله الله
يا سُهولَ القَصَبِ احمِينا
وياشجَرَ الجُمَّيزِ اهبط من عليائك
وانت أيها الأفق اتسِعْ
للّاجئين من الصراطِ نراكِ يابيروت
خيطَ مساجين
ونرى الشام
دمشقيون يستطيلون عذابا

ابسط الماءَ على البر، وامزج الماء بالبر، واقول هو ذا انت، واقول
ياسيدي القطب في أطراف أصابعك
وانت تميل
نحو ذاتك
نحو ذاتك تميلُ. اناديك وزيت النجوم يسيل
وزجاج جسدي يتشقق عشقا لك
اموت لك موت الكراكي . ارخي عنقي / اقص
لك الياف روحي
وانادي يارمل الوسادة ايها الكثيب تطاير
وليتكوكب الليل فوق فلكنا
وعلى ايقاع الدم يسحبنا الى حضرة الموت الموت
ادخل في مناماتك
طليقة الغبار / الماء ملء فمي
اتناسل معك شررا / عطاردا
سلام عليك أيها الجسد في انحدار والروح / نتعاشق
ندخل في فواكه سرية

نسمع منها الحوريات / نسير نحو الأفق
لانقتات بغير نباتات جسدينا
نرىْ الزيتون جنسا
يتكاثر / وسمك البحر الأحمر ينتحر
الجليل ينهض بدمائه
ياحب أبعد عني ارواح الليل اليائسة
افتحي لنا نحن بدو الجحيم وأسكينا غمرة نومك
اناديك من الشرق الى الغرب
وتوابيت الشهداء تتزاوج في الأفق
اعشقني من جلد لآخر / تسلق فقراتي
انتصب الظهر لك واشرعت العظام
لن يقربني بدو الجحيم / لن يلمسوني /
ايها الحب هل ينبع الماء من أصابعك وينطق الشجر
هلم حررنا
هل تسبح الحصاة بين ايديك
اشهد ان الارض لكم
ليبعثروا عظامنا ليلا.. ابعثها نهارا وانشر قعقعة الأم
تعيد بنيان طفلها
حلق فوق جسدي / ولتطف ذرات جسدك
تقول نحن شهود حبُكما وليلق بلاط دمائنا السلام
السلام علينا ثلاثا
هل تسمع مثلي هل ترى مثلي بدويا يجر موته
يرنْ موته بذيله
هل ترى البدو تفتح الاقدام العقارب وتحني الظهور
الضفادع وتأتينا

انا / لم يكون حوالينا ونحن أحياء / يندبوننا ونحن نتعاشق
هو / ان على القلوب اقفالها / قد انحرف الصراط
انا / ياللأطفال ننجبهم / يحومون فوقنا / هل تسمع مثلي لغو الولادة وارتطام الحوضين
هو / ارى الأفق يعج باللاجئين والجن تمسك بقرنيه تلفظ البدو
انا / انظر الى النبات يصافحنا انا في الجنة انا في الجنة
هو / بل النبات يَنقضُّ علينا يفصلُ جسدينا
انا / انا في الجنة اخطو خطو عصفور
هو / ارى الرضع تولي الأدبار والأفق يتخبط
انا / انا في الجنة / تراب يتكور تحت نعليك وينهض بك نحو عشقي / بعد كل موت قيامة هي انت / بعد كل جحيم جنة هي انت

وساط مبارك

قصائد

أشجار

في ساعاتِ الفجر المشوهة برعب قديم
ملأ تم الفضاء بضحكات ميّتة
ونمم في حقول مظلمة
بين
أشجار تنهار في صمت
وشطآنٍ تمتد على صفحات أيديكم
حتى نهايات الأفق

الآن
تقبل أحلام تغص بالبكاء
تخترق رؤوسكم المليئة برماد العشب
والزمن
يزحف إليكم على أكتاف الأجداد
ولستم مع ذلك مكرهين على الانتظار
ولا مستشعرين وخزة الألم، فأنهارُ
الحقيقة العمياء التي أغرقتكم في
نوبة صراخ
ستجف إلى الأبد.

مزيدا من الضوء !

الألم ذاته من نشيد لآخر، يلتذ بلعبة المباغتة
الخمرة ذاتها من يد لأخرى، تنبش صحارى الروح، صحارى
الجسد
رياح غريبة ستهب في الغرف
تلعق جراح الفجر الصامت في عيوننا
أخفينا أيدينا في تجاويف الصخور الليلية، لنلمس قلب
الانسان، دافعين بالحذر حتى النهاية
نثرنا أزهار الخريف الميتة على الموجة التي جاءت
لتهدهد غضبنا
ولم تجد غير رمال الذكرى
الهذيان ذاته من يوم لآخر، حين يقذفون بالجثة للبحر،
قبل أن يصل حامل النصيحة
محمولا على الصليب
أذكر أنا صعدنا أعلى قمة في الجبل
هناك كانت غربان وحشية تفترس ولعنا بالصباح
فتحنا أبوابنا لشمس ضريرة، وكانت المرافيء تشتعل
لذلك،
قلنا وداعاً لبصيرة صارت لحداً،
ومضينا،
معلقين من عظامنا
مرجئين الصراخ لمشهد الهروب الأخير
(وآخرون
إرتجلوا شيخوخة مغصوبة

من أجل سكينة مبتذلة)
أذكر أيضا سفراتي عبر جبال زرعتها باللهاث
ناقلا الضوء من عين لأخرى
مبعثرا شهوة الحلم في رماد الأيام
ومن نزيف لأخر
كنت أغلق باب المصادفة
أفتح باب السؤال

فمتى نعلن مزيدا من الضوء ؟

حــلم

ثمة أقاليم منسية نحلم أن نبعثها في ذاكرة الارض
ثمة أقاليم منسية كغيوم بلا أجنحة، سنجمع أمتن الحبال و
سلالم الاستكشاف
لنعبر إليها
ونطرق أبواب الولادة بعكاز حكمة مجنونة
بقبضة الدّم النأفر
ثمة حمائم للمصادفات،
ستنتشي بظلالنا حين ننفض عنها غبار الطريق
ونمضي
مهتدين بنجمة في القلب
ثمة ألسنة اللهب الراقص على أهدابنا بمهارة بهلوان
هل هي إلا بريق حلم ؟

مساءات ماطرة......

مَساءاتٌ ماطرةٌ.
حُطامُ الثّرى المبتلِ يخفقُ على قدمِي
ورمادُ الأزقة.
يلفُ عيننا وخضرة الشواطيء.
قلوبنا المُنتفخةُ بالتعيبِ
المسكينةُ رغم ذلك
تتقصّي أثر الهديل
على بوّابات التعبِ
بداخلها تهطلُ أمطارُ الكآبة
القِططُ الوحشيّةُ تتزحلق
على جَليدِ ساحات المدينة
المُسيّجةِ بقهقهاتٍ هوجاء.
ككُلِّ مساء
أسيرُ حاملا أكاليلَ لمآثر الرُّوح المطمورةِ
أصغي لهُتافِ الدّمِ وأرَى
فوهات العتمةِ الصّدئة
مُصوّبةً لوردِ خُطانا البَارد.
وإذْ أحضُن خجَلَك الجَميل بأصابع عمياء
نضطَجعُ سَوِيًّا على سُرَرِ الرَّغبةِ
المقضومة بأسنان الأنهار.
نقضي الليل في الرّحيل
بين الخطوة والخطوة، أنقاض حلم.
أيتها الغريبة،
يا من لامتداد صمتِها بياض الثلوج.
إني رفيقك
على سُفني المثقلَةِ بموتكِ
انتقيتُ غرقي
مُرجئاً رجفة التلاشي
وعلى جُزُركِ النابضة بصفير موتِي
تركتُ أشرعةَ طفولتي
وأتيتُ
مبهوراً ببهاء الجرح
أُعبّيء مجذافا للوهم

(ورأيتكِ في باحة مقهى، امرأةً من ضوء
تغتسلين من هذيانك
بأمطار هذا المساء)
أيتها الغريبة
من أجلي
ستحملين شارة الحداد.
(أعرف،
أعرف أيضا أنَّ منّا من سيُجَنُّ
بسبب ضيقِ الشوارع التي
يُطَارِدُ فيها جنونَه).

لم أكُنْ وحدي الحالِمَ، العاصفةُ أيضا كانت هناك. من أجلها تستَّرنا بالخطيئة
الخطيئة، مقبرة السؤال
العالق بحناجرنا كطعنة
ككوابيس نهر مجنون
لا نعبره إلا حين يكون لسفراتنا
الخيالية زوارق مذعورة.

لفرحنا الأعمى، إختلاجُ الدّم.
لطيور النَّوم الزرقاء، دهشةُ الاحتفاء بالمَثيل.
للجوّ هذا المساء، حُمُوضةٌ تخدِشُ خدي.
لغيمة الأسى الورديّة، عنقُ طفلةٍ قذر.
لأصابعي، موجة تسحبها نحو البحر.
لضحكنا، منحدرات اللّهاث الوعرة،
والصّخب ينسدل عميقا في الرأس
والأنوار تلحس أكتافنا.
لسهراتنا، مناضد مكتظّة بالأرق.

هو ذا نذير الفتنة ⟵ وَ
ليس بين صمتي وشعائر الابادة غير فجر له بشرةُ الأرض، والكم الذي هو فجر أقلّ
كثافة وأكثر غبشا، يرفرق مراياه بين الثوب والجسد.
ثمة أهازيج، ثمة صراخ
وأشجار في البعيد.
ثمة فاجعة في ثنايا النوم
أصوات لأجل التمويه
وأنفاق مغروسة بالأصابع.
أيتها النصال المقدمة على أطباق من فضة

عن مسالك النهب العظيم، عن جثثٍ مأخوذةٍ بدوار التجاهُل، حدِّثينا
حين نقف أمامك حَيارى، ومع ذلك كاشفين عن أُلفتنا، مُقترفين زلّة الصّعود
رافعين بيرقا من النجوم، وحلم الشاعر بالمجد، وطموح الغزال إذ يرتع في البرية.

(نسير في الدروب الخلفية، على ألسنتنا طعم المنفى.)

لنحبَّ هذه المهاوي كثيرا.
لنبعثَ الادمان على الجمرة، ونلتقط
أيتها الغريبة في اكتمال زينتها
أحزانك المنثورةَ في جنائن تغفو منذ لحظة.
لنا صبوات محكمة الوثاق، سلالم لأجل الغياب
ولك حقول الخريف الزجاجية،
حيث شظايا الروح مُضاءة ببصيص النسيان اليومي.

عبر أروقة الفجر اللّا نهائية
نرحل مع نسوة شاحبات
وريح هذا المساء
التي تعبث بشعرهنّ
ذي الحفيف المائي.
في كلّ الأقاليم،
مررنا بشعراء بلا وجوه
يحلمون بقمر ميت
تبكيه نجمة وحيدة.

لم أكن وحدي الحالم.

آه،
إنتظري أيتها الشمس، إنتظري وصول دمي.
من هذا الذّهول، لم أرتوِ بعد.
أمضي في شوارع المدينة :
إسفلت مشنوق على فراغات الماء.
أمضي.
البازلت يفتح ذراعيه.
أملأ الخطوة بانكسار الدّمع.

حين أنهي هذه القصيدة
وتنطلق سهامُ الشّعر
سأرنو لها طويلا

بارتعاشةٍ في النظرة،
ووردة بين أصابعي.

وساط مبارك

جليل حيدر

قصائـــد

1 ـ « حقائب للخروج والأزْصِفَة »

مِعَدّ، وجَزَائرُ خاليَةٌ، تطْفُو مَا بَيْن القَلْبِ وأخبَابِي.
معدٌ فِي مُنتَصَفِ اللَّيلِ، بَقَايَا زَوْبعةٍ، وعلى قَلَقٍ تكْبُرُ أشجارُ الدِّفْلَى فِي الخَامِسةِ صَبَاحاً، معَ سِيكارَتِنا وبخَارِ الشَّاي، على قَلَقٍ والصُّبْحُ شِتَاءٌ، ومَلَابِسُ عالِيَةٌ، وعَلَى قلقٍ ذَهَبَ الوَقْتُ إلىَ السَّاعة (كَانَتْ عَمْيَاءَ) عَلَى قلَقٍ وخُروجٍ وحَوَابِي.
زُمَرٌ مِنْ حَيوانَاتٍ هَارِبَةٍ، زُمَرٌ مِنْ شَجَرٍ، وأمَاطِرَ مُبَجَّلَةٍ ورَوَابِي.
زُمَرٌ للأفْكَارِ وَهَيْبَتِها، تفْقِسُ مقتلةٌ، تَحْتَلُّ رَصِيفاً،
زُمَرٌ بَالِيَةٌ
وَحَقَائبُ خالِيَةٌ
تبْتعِدُ..

2 ـ «ثـوانـي المطـر»

مَطرٌ للنَّوافِذِ، لِلنَّوْمِ

أوْ
لِلأغاني.
مَطَرٌ لِلصَّغِيرَة تقضِمُ أظفَارَها
في صَبَاحٍ عتيقٍ
مَطَرٌ
لِلعَلامَاتِ تفلِتُ فِي زُحمَةٍ
وَطريقٍ،
تعيبُ أنامِلُها
مطرٌ للتَّواني.
مطرٌ هَادِىءٌ فِي زوايا المصيرْ
في الأميرَة أوْ
في الضَّمِيرْ
مطرٌ.

3 — «قَتلُ الزَّهرة»

السَّلالِمُ خاليةٌ
من النورِ، والثّوبِ، والخطَواتِ
ورائحة النّسْوةِ العاطِلاتِ
تغيِّرُ آثارَنا القاذِفة .
وفي بَاحةِ الطُّمَأنِينَةِ يتّكيءُ الانتِظارُ
طويلًا، طويلًا
أُرَاقِبُ زَهرَتنا النَّادِمَة
طويلًا
طويلًا
طويلًا
فيَقطفُها شبحٌ

وَيَسْحَقُهَا بِهُدوءٍ عَجِيبْ !

4 — «بيجاما»

مَشَتْ في الصباخ
كانَ بداخلِها رَجُلٌ في الثَلاثِينَ —
يُشبِهُ ألسُودَةَ
أوْ رِياخْ.
مَشَتْ نَحْوَ غُرفَتِهِ فَالْطَوَتْ
سنينٌ
وأضرِحَةٌ
وَرَنينٌ.
بَقَايَا صِيَاخْ.

بيروت — أيار — 1980

المهدي أخريف

1/ الطَّـرَقــات

— 1 —
مَكَانَ الشَجَراتِ

الأعمِدةُ بقناديلَ مُطفَأةٍ
في العَتمةِ الطُّمويَّة..
خناجرُ تجتزُّ الأوبئة
بَدلَ أغنياتِ حَنينٍ لِلنَّخل
بَدلَ اليُنبوعِ مُنزلِقاتٍ
بَدلَ اليُنبوع
بِرَكٌ وَحَلِيَّة لِمَسرَّاتِ الأطفَال

— 2 —

تختلِطُ المُوَاءَاتُ الغَزليَّةُ
رَاعِشَةً في الجُحُورِ الزُّقاقيَّة
بطرَقات لَيْليَّةٍ تتثاوبُ
مِن أجلِ أن يُمتَصَّ مِلحُ الأغنيَة
مِن أجلِ أن يُعتصَرَ نَهدٌ ما
ثَمَّةَ خلفَ البابِ المَطرُوقِ
عينانِ خشبيَّتان
تُلوِّنان جَفاف عناقِيد الأنثى
بالخضِرارِ يَشحُبُ،
تُلوِّنان أزهارَ استِسلامَاتِ اللّيل
بالرَّمادي والتَّنهيدات..
عينَان خشبيّتَان
تُلَمْلِمَان خُيوطَ أوَارٍ يَخبُو،
ورَماداً للنار..
تُصغِيَانِ لِرمُوزِ فَحيحٍ يَتلاهَثُ في غَابَةِ
لِغبَارِ الخطَواتِ المُغتصِبَة
وَهي تُقهقِه..

في اللّيل
ثَمَّةَ عينانِ
تَصقُلان بِقِنديلِ الدّمَعاتِ السرّي
وَجهَ غَضبٍ مَكسورٍ في أقداحِ الذِّكرَى
وَجِداراً أرَقياً مِنْ خَرسٍ
دُونَ الطَّرقاتِ المَطرِيّة
دُون طَرَقَاتِ اللّيل

2/ ظهيرة

المهدي أخريف

مِن تحتِ الشُرُفَات المُحتَلّة
عَبَرَ الوَلَد المنعرَجاتِ الصَّخرِيّة « للحامّة »
مَدفوعاً بِدمدماتِ بَحّارينَ لَمْ يَعُودوا،
بِرمالِ الرِّيحِ الشَرقِيّةِ المُلتَفَّة
على حوماتٍ مَنسِيّة..

وَانحطَّ في فَجوةِ الصَّخرِ الظَهِيري/
لا نَسْغَ يَنْخبِىءُ في ظِلالٍ تنحَسِرُ
لا رَنينَ في صُندوقِهِ الخَشَبي
لا كلماتِ تَتَهيأُ في حَلقِه..
هُنَالِك فَحَسْبُ
الأسْمَاكُ زِئبَقِيّةٌ لا تَبرحُ القِيعانَ
هُنَالِك فَحَسْبُ
سَحَائِبُ لَهِيبِيَّةٌ تُغذّي الفَضاءَ النّاشِفَ
مِن قَصَبِ الأكْوَاخِ المَعْزُولَة
والوَلَد دَمْلَمَ مِن فجوتِهِ الظَهِيريّة فَرَأى
صِغَارَ الأكْواخِ تَجُرُّهُم دَمامِلُ كَبِيرَة
مِن أرَاجيح مقلوبةٍ،
وغضَبَاتُهم ناهِضَةً نحو
مَزَالِجِ الأبوابِ المُطْمئِنّةِ الكَبِيرة،
ناسلةً من أوصالِ العَرَقِ الطِّيني،
لَطَخاتٍ أبديةٍ صفراء
تَرْكَبُ كالعَلَقِ زِينَةَ الشُرُفَاتِ العَالِيَةِ المُحتَلَّة..
وَرَأى :
دُرُوباً شَبَحِيَّةً تَنسَدُّ في «مَرْجِ أبي الطَّيب»
أيَادِيَ تَنشَدُّ إلى امتدادٍ مَفقودٍ في «مَرْجِ أبي الطَّيب»
عضَلاتٍ تُدمِنُ خنقَ صَخَبِ النَّخل
فِي كُؤوسٍ مُرَّةٍ، في مَقهى ما مِن «مَرجِ أبي الطَّيب»
وقُلوباً ـــ رَأى ـــ تتخلّدُ في ذَاكِرَةِ سُورِ «القريقية»

لكِنّما الوَلَدُ دَمْدَمَ..
حَزَّ عضلاتِه وَرَفْرَفَ وَرأى :
المويلاتِ المَرْمِيَّةِ مِن غَسِيلِ الشُرُفاتِ المُحْتَلَّة
عالِيَةً في فَجْرٍ مُحِيطي
بأجْنِحَةٍ خضْرَاءَ نورَسِيَّة
ثُمّ رَأى :
الشُرُفَاتِ المُحْتَلَّة ذَاتَها تنحطُّ،
العُيُونَ المُشْرَئِبّةَ منها كُلَّ صَباحٍ شَزْراً لِشُمُوخِ «القمراء»
غاوِيةً تنحطُّ
لِتَتَلَقَّفَ سَقطَاتِها المُرْتَقَبَة
خَيْباتُ آلافِ الصَّنَابِيرِ الشَّتائِيّة
مُسْتَوِيةً عَلَى صُخُورٍ مُسَنَّنَةٍ تَشْحذُ وَتَتَربَّصُ

من تراثنا الحديث

المهدي بنبركة

نحو بناء مجتمع جديد (1958)

كيف يمكن أن يظل المهدي بن بركة حاضرا بيننا ؟ هل نقتصر على ترديد اسمه من مناسبة لأخرى، نحمله بين الشعارات ؟ أم أن هذا الحضور مشروط بنشر انتاجه واعادة قراءته ومساءلته ملتحما مع الممارسة التي كان مشعلها ؟ هذه الأسئلة تلح على جيل السبعينات تأكيدا، لان الجيل الذي أفاق فجأة على حوادث 1965 واختطاف المهدي بن بركة في السنة ذاتها، أفاق على الاغتيال والغربة والسؤال.

من باريس أتانا إختطافه ثم قيل لنا غيّب. قبل 1965 كنا أطفالا نلعب ونأكل الحلوى بين الأزقة، نطارد الشمس من جدار لجدار، نبعث المطر بالضحك والخوف والنوم. مع غيابه انكشف لنا سر غيابه/ حضوره، غادرنا اللعب وخرجنا. كيف نؤرخ لهذا الصوت، نختزل هذا الفعل ؟

لم تكن تكفي بجميل الوضوح، الصرامة، المواجهة، كانت القلوب تحن اليك، العيون تشتهي رؤيتك، وكنت لها الوعد. حاصروك. اختطفوك. كثرت التأويل. يكفي أنك علمتنا فضيلة حب التحرر، الانخراط مع الشعب في استعدام إحتفالنا، راحلا كنت بين الأزمنة، تريد لنا أن نفتتح العصر، ولم تستسلم لما رأيته) عشته بجسدك.

اقتحم إختيالك اطمئناننا، وها شتيت من الصور والنصوص والمواقف تتقدم لتلتئم الذاكرة، لنقترب منك أكثر، وماذا ينفعنا غير السؤال ؟ من بين هذا الشتيت نتوجه اليوم لنص من نصوصك، نعيد نشره، فلربما تكون هذه المبادرة البسيطة دافعا لجمع خطبك ونصوصك جملة الوثائق الممكنة حتى نعيد قراءتك، حتى تحضر بيننا وضوحك.

من الصعب الادعاء بأن هذا النص يمثل فكرك في مرحلته المتوجهة، ولئن كان تمكننا الراهن، فهو مسيج بتاريخيته، ونحن نعلم أنك تجاوزته فيما بعد، على أنه ضروري ونحن ندعو لجمع تراثك ونشره ودراسته. ولا ندعي أننا نؤرخ لهذا الصوت، نختزل هذا الفعل.

محمد بنيس

نريد أن نذكر الأسباب التي أفضت بالمغرب إلى الحماية بعد ما عاش القرون الطوال متمتعاً بالاستقلال، وان نستعرض مختلف الآفات التي حلت هيكله القوي المتين : من تفرقة مزقت وحدته، وقطعت أرحامه واضعفت شخصيته، وشعوذة أنهكت قوى أهله، وأوشكت أن تخمد في افئدتهم جذوى المقاومة والإباء، وفوارق جعلت منهم طوائف لا تتساولا في حق ولا واجب، فهذه الآفاق التي ألقت بالمغرب في هاوية، وهونت على الأجنبي امتلاكه، يجب أن تعرف فتحذر حتى لا تكون مصدراً لنكبة جديدة نشقى بها لا قدر الله كما شقينا بسابقتها قرابة خمسين سنة.

فنحن الآن بصدد بناء وإنشاء، وقد خرجنا من جهاد أصغر إلى جهاد أكبر، والعهد الجديد يقتضي منا مزيداً من الحذر والانتباه لنستبقي الحرية التي أهرقت في سبيلها دماء وأزهقت أرواح وعذب ابتغاءها رجال ونساء، وتقهقر اقتصاد ومازلنا نعاني آثار تقهقره إلى الآن، ولنصون الاستقلال الذي هو وسيلتنا إلى تنفيذ البرامج البناءة التي نستهدف بها حكما ديمقراطيا، وتوسعاً اقتصاديا، وتقدما ثقافيا، وعدالة اجتماعية، وإلى تحقيق مطامحنا الوطنية باستكمال وحدة تراب الوطن، وجلاء الجيوش الأجنبية عنه، وانشاء اتحاد أقطار المغرب العربي تشارك فيه الجزائر المحررة التي نغتنم الفرصة السانحة فنحيي كفاحها المجيد، ونستغفر لشهدائها الأحرار، ذلك القطر الذي سيعمل مع أشقائه لخير المغرب العربي قاطبة، ودعم السلم في حوض المتوسط وتقوية التعاون بين دوله وشعوبه.

فقرة من خطاب جلالة الملك محمد الخامس
يوم 20 غشت سنة 1958

حديث مرتجل للسيد المهدي بن بركة
مع مسيري فرع حزب الاستقلال بتطوان
بتاريخ 31 يوليوز 1958

بسم الله الرحمن الرحيم
أيها الاخوان الأعزاء :

بعد أن أحييكم سأشرع في موضوع حديثنا وهو : « نحو بناء مجتمع جديد »، وأود أن يكون هذا الحديث متبادلا بيننا لأن الأفكار التي سأعرضها عليكم اليوم تتصل اتصالا وثيقاً بحياتنا اليومية ومصير بلادنا.

ولعل الحديث في هذا الموضوع سيثير في نفوس البعض منا هذا التساؤل : هل نحن في حاجة الى بناء مجتمع جديد ؟ وهل المجتمع الذي نشأنا فيه وتغذينا بأفكاره لم يعد بعد مجتمعاً جيداً ؟

كثير من المواطنين يعتقدون بأن مهمتنا قد إنتهت بعد ما حصلنا على الاستقلال وبأننا أصبحنا نعيش حياة مثالية وفي مجتمع مثالي خال من كل العيوب، وهذا الاعتقاد يدعو لهذا التساؤل، وهذا التساؤل يدعونا بدوره لطرق هذا الموضوع ليكون الجواب شافيا وخاصة في ظروف تطالبنا بأن نشمر على ساعد الجد ونكافح كفاحا جديا أقوى من أي كفاح مضى.

مجتمعنا القديم

فاذا عدنا بخيالنا إلى خمسين سنة خلت ــ أو إلى ما قبل تلك المدة بكثير فإننا نجد أنفسنا وجها لوجه أمام مجتمعنا القديم. أمام مجتمع كانت تميزه عدة مظاهر. وكانت أهم هذه المظاهر وأقواها هي : الجمود مع الغرور.

ولقد ذهب هذا الاعتزاز بكل مغربي إلى اعتبار حياة مجتمعه نادرة المثال، وعلوم بلاده وفنونها لا شبيه لها في أي قطر ومعاملات بني قومه سامية قل ان يدركها بشر، كما دفع بنا إلى النظر إلى العالم وحضارته بعين الاحتقار، إذا فرضنا أننا كنا نرى العالم لأننا في الواقع كنا نعيش في قعر بئر وداخل ستار كثيف.

وكان من بين مظاهر مجتمعنا القديم أيضا الجمود والتعصب : فلا يكاد أي مواطن يدلي برأي جديد إلا ويتهم من طرف المثقفين ــ الذين كان يطلق عليهم لقب العلماء ــ بالزندقة وبالخروج عن الدين لأن هؤلاء العلماء كانوا يرون بأن الرغبة في إستعمال علوم دخيلة غير علومنا وفنون أجنبية غير فنوننا تعد نقصا من قيمة تراثنا الذي بلغت علومه وفنونه الدرجة القصوى من الرقي والتقدم، ولأنهم كانوا ينظرون إلى العالم الخارجي باقوامه وفنونه وعلومه وحضارته نظرة تنقيص وإحتقار ولقد دام مظهر الاعتزاز بالمجتمع ومظهر الجمود والتعصب ــ وما يتبعهما من مظاهر رجعية ــ مدة طويلة في مجتمعنا ولم ينته عهدهما إلا منذ ثلاثين سنة خلت.

أثر الاستعمار على مجتمعنا القديم :

فعندما إقتحم علينا الاستعمار ستارنا الكثيف أحدث في نفوسنا وأفكارنا هزة عنيفة جعلتنا نستيقظ تدريجيا من سباتنا، ونخرج من عزلتنا، وندرك بأنه يوجد عالم واسع غير العالم الضيق الذي كنا نعيش فيه متخلفين عن الركب ــ وانه توجد علوم وفنون أرقى من علومنا وفنوننا، وأفكار نيرة نفضت عنها كل جمود وتعصب ، واسلام حقيقي اكثر نصاعة وسلفية من الاسلام الذي اتبعناه محاطا بطبقة من القشور والخرافات وعبادة الاصنام.

وفي السنوات الأولى من عهد الاستعمار إكتشفنا بأن مجتمعنا لم يكن مجتمعا نادر المثال كما كنا نعتقد، لانه لو كان نادر المثال فعلا لما تمكن الفرنسي والاسباني ــ اللذين كنا ننظر إليهما وإلى جميع الأوروبيين بعين الاحتقار ــ من جعلنا عبيدا، ولما استطاعت الوسائل العلمية والفنية والحضارية التي لديه من التغلب على ما كان لدينا من وسائل.

وما العمل بعد الاستقلال ؟

ودفعتنا يقظتنا الى الكفاح ضد الاستعمار، وبعد كفاح سنوات طوال ظفرنا بالإستقلال، وفي عهد الاستقلال ماذا سنعمل ، هل سنعود ــ كأجدادنا ــ إلى الاعتزاز بمجتمعنا وننظر إلى العالم نظرة إحتقار ، هل سنرضى بالحياة في مجتمعنا الحالي كل الرضى وننزهه عن كل العيوب، أم سنشمر على ساعد الجد لنقوم ببناء مجتمع جديد ؟

صدمة تاريخية :

وفي الواقع لسنا بمسؤولين ـــ ولا أجدادنا بمسؤولين ـــ عن تلك النظرة التي كنا ننظر بها إلى العالم لأنها نظرة ناتجة عن صدمة في تاريخنا الوطني.

فعلى الرغم من ان المغرب كان عريقا في المجد، وكان مغذيا للحضارة الانسانية التي نقلت الى اوروبا الاسس التي بنى عليها فيما بعد التطور العلمي والفني في العالم، فإن إهماله لتراثه ـــ كما أهملته شعوب الشرق العربي والشرق الاقصى ـــ اضاع عليه الكثير من الفرص وجعله ينظر ـــ كالصين ـــ الى الاوروبيين نظرة احتقار، كما جعله يتلقى صدمة قوية عندما شنت عليه اسبانيا ـــ بعد خروج المسلمين من الاندلس ـــ حربا شعواء.

لقد تلقينا صدمة تاريخية عندما بدأت الحروب الصليبية في بلادنا عقب إنتهائها في الشرق العربي، ودامت مدة ثلاث مائة سنة جابه المغرب خلالها حروبا قاسية شنتها عليه دول إسبانيا والبرتغال وانجلترا وغيرها، وكانت هذه الحروب سببا في انقطاعنا عن العالم ، وبالتالي سببا في انقطاعنا عن العلم و عن التطور. وسببا في تحول الحرب ضد الجهل والجهادلرفع منار الحضارة والعلم الى حرب ضد المستعمرين الدخلاء وجهاد لرفع راية العزة والكرامة. وتحول قادة الفكر واقطاب العلم الى قادة حرب واقطاب عسكريين لمغرب اصبحت رقعته اذ ذاك عبارة عن معسكر كبير واصبح أبناؤه يقفون وقفة رجل واحد لرد جيوش الاجانب ولبناء الاسوار لجعل بلادهم حصنا منيعا على كل الدخلاء المهاجمين. وكانت هذه الاسوار وهذه الحصون تكون فعلا سدا منيعا لم يستطع الاجانب تجاوزه ، كما كانت في الوقت نفسه حاجزا للتطور والتقدم وللعلم الجديد الذي أخذت تشع أنواره في اوروبا، ولم يستطع اختراق هذه السدود وهذه الحصون سوى الغزو الاستعماري الذي تم في أوائل القرن العشرين.

عقدة نفسية :

وأثناء تلك الفترة الحربية الطويلة ضاعت على المغرب فرصة الاستفادة من الانقلابات والتطورات التي وقعت على أبوابه في عدة دول اوربية بسبب ذلك الستار الذي أحاط به نفسه دفاعا عن الاستقلال ، ووقع الجمود في الفكر المغربي ، كما تكونت لدى المغاربة عقدة نفسية ـــ تكونت عن الرغبة القوية في الدفاع عن النفس ـــ وهي نظرتهم الى العالم نظرة خوف وحذر وبالتالي نظرتهم الى كل ما هو اجنبي نظرة احتقار وازدراء الامر الذي جعلهم لا يفتحون أي مجال للثقافة الغربية.

ولم تكن هذه النظرة خاصة بالمغاربة آنذاك بل كانت هي نفس نظرة اليبانيين والصينيين الى الاجانب.

ولكن افكار الرجعيين اضاعت علينا ـــ عند عودة بعثتنا العلمية الاولى ـــ فرصة التطور والتقدم في نفس الوقت الذي اتاح فيه علماء اخرون لبلدانهم التطور والتقدم عقب عودة البعثات الى كل من الصين واليابان : ففي عهد السلطان مولاي الحسن ارسل المغرب

ــ كما ارسلت اليابان والصين ــ بعثة علمية الى الخارج تلقى أفرادها دراستهم في مختلف المراكز العلمية باروبا. و عندما عادت هاته البعثات الى أوطانها كانت بعثتا الصين واليابان سببا في تقدم هذين القطرين العظيمين حتى تمكنت اليابان إذ ذاك من خوض حرب ناجحة ضد انجلترا والصين اليوم من صنع قنابل تنتقل عبر قارات وكانت البعثة المغربية ضحية رجعية العلماء وبلاط القصر حيث اتهموا أفرادها بالكفر و الخروج عن الدين بسبب ارتدائهم للزي المصري مثلا وحلقهم للحاهم وتشبههم بالاروبيين.

حافز اساسي لبناء مجتمع جديد :

فهذه الظاهرة وعشرات أمثالها تعطينا فكرة عامة عن الحالة السيئة من التأخر التي كان عليها مجتمعنا في الفترة التي سبقت عهد الاستقلال، هذه الفكرة العامة هي التي دعتنا الى العمل ــ عندما وجدنا ان المجتمع الذي خلفه لنا الاستعمار مجتمع فاسد وان واجب الاستقلال يفرض علينا إزالة بقاياه ــ لبناء مجتمع جديد لنقضي على كل العلل التي بلتنا بالاستعمار لان إبقاء تلك العلل يكفي لان يجلب لنا استعمارا جديدا.

مجتمع متخلف :

لقد حافظ الاستعمار على بقايا مجتمعنا القديم بسبب سياسته التي كانت ترمي لابقاء ما كان على ما كان ، لقد وجد الاستعمار لدينا صناعة وفلاحة متخلفة عن صناعة وفلاحة العالم ، وجد كلا من الصانع والفلاح يشتغل بوسائل بسيطة ويحصل على انتاج ضعيف ويعيش حياة قاسية بئيسة، فعمل ما استطاع لابقاء ما كان على ماكان، كما وجد المواطنين يفكرون في نطاق أفق ضيق يعملون بياض يومهم من اجل كسب قوتهم بعرق جبينهم ولا يفكرون في ضرورة تعليم أبنائهم والسهر على صحتهم لأن حاجاتهم اليومية الماسة وتطلبها لكل وقتهم لا تدع لهم مجالا للتفكير في غيرها.
ومجتمع من هذا النوع يطلق عليه في الاصطلاح الاقتصادي اسم المجتمع المتخلف.

اضمحلال الثقافة :

وفي مجتمعنا القديم ايضا تجلت ظاهرة الجمود الفكري هذه الظاهرة المتولدة عن اقفال الفقهاء لباب الاجتهاد وانتشار العلم النقلي الذي لا يتجاوز دور اصحابه ــ من حيث النقل الامين ــ الدور الذي تقوم به الاسطوانة اليوم. وتحولت العلوم الرياضية من سلسلة مقدمات عقلية للوصول الى نتائج منطقية الى عدة طلاسيم اذ اصبح الموقتون مثلا يجرون عمليات سخيفة للوصول الى مطالب التوقيت دون فهم لأسرار تلك العمليات.

وكان العلماء قليلين جدا الامر الذي جعل تراثنا محصورا في طبقة معينة كانت تبخل بهذا التراث الذي كان ينقرض بعضه بانقراض المحافظين عليه ، وكانت تحرمه نهائيا على عامة أبناء الشعب وتحتكره لنفسها ولا تسمح به الا لطبقة خاصة.

عبادة الأصنام :

وهناك ظاهرة أخرى من تأخر مجتمعنا وهي عبادة الاصنام، وهذه العبادة ناتجة عن الأفق الضيق الذي كان يحصر التفكير المغربي، فقد بلغ اعجاب المغاربة ببطولة المجاهدين ضد الغزاة الاجانب من اسبان وبرتغاليين وانجليز درجة كبرى، حتى أصبح هؤلاء الاشخاص — بعد وفاتهم — محل عبادة وتقديس، وأصبحت أضرحتهم مقصدا لكثير من المواطنين واصبحت تقام لهؤلاء الابطال احتفالات سنوية خاصة ومنتظمة وأخذت الشعوذة تظهر في هذه الاجتماعات، ونشأ عنها تكوين فرق : حمادشة، وعيساوة، وغيرها وأخذ المشرفون على بعض هذه الطرق يدعون بان قطبهم قادر على تمكين المرأة العاقر من الولادة، كما يدعي اخرون بأن قطبهم قادر على معالجة المرض، وهكذا اخذ المشرفون على الطرق يتبارون في هذا الميدان فتعددت الادعاءات، وكثرت الخرافات، وأصبح بعض المواطنين يتكتلون حول القطب الذي تتصل به حاجاتهم.

بقايا المجتمع القديم في مجتمعنا الحاضر :

اذا كل هذه الظواهر التي رأيناها في مجتمعنا القديم لم تنعدم تماما من مجتمعنا الحاضر بل لا زال أكثرها قائما لان الاستعمار جعل من بلادنا متحفا وعمل بكل قواه على المحافظة على كل ما وجده من ادواء ومظاهر بالية :

فعندما كنا نحاول إحداث تطور في التعليم كان الاستعمار يقف في وجوهنا معارضا في احداث هذا التطور مدعيا ان ادخال اي تحوير على نظام التعليم في القرويين يعد ماسا بالدين الاسلامي، كما كان الاستعمار يعتبر كل مغربي اراد انشاء تعليم حر وتدريس مواد الحساب والجغرافية والطبيعيات خارجا عن الدين .

لقد كان هذا الادعاء وهذا الاعتبار صادرين عن «بونيفاص» وجماعته الذين أوقفوا أنفسهم «الدفاع» عن الاسلام.

وعندما كنا نحاول النهوض بالاقتصاد المغربي، وإزالة الفوارق الاجتماعية، والقضاء على التعصب المحلي والقبلي، كان الاستعمار يعترض طريقنا ولا يعمل فقط لابقاء هذه الامراض على ما كانت عليه بل يحاول تشجيعها واذكاءها كلما شعر بانها تتجه نحو الاضمحلال.

فكل هذه الظواهر الاجتماعية الفاسدة التي عمل الاستعمار على ابقائها في مجتمعنا تبرهن على أن مجتمعنا الحالي مجتمع فاسد وانه في حاجة الى اصلاح.

الوعي السياسي :

الا انه لم يؤثر الاستعمار على ظاهرة مهمة من مظاهر مجتمعنا. وهذه الظاهرة، هي الوعي السياسي . ويرجع عدم تمكن الاستعمار من التأثير على هذه الظاهرة الهامة الى الروح

الوطنية التي كانت تملأ نفوس المغاربة طيلة قرون، والى ذلك الكفاح الوطني ضد الغزو الاجنبي الذي دام ثلاثمائة سنة، كما يرجع الى تأخر الاستعمار في التمكن من إخضاعنا — سنة 1912 — والى قصر المدة التي تمكن خلالها المستعمرون من التحكم في بلادنا.

فظاهرة الوعي السياسي قوية في مجتمعنا الحاضر ويمكن ان نقول انها أقوى عندنا من عدة دول عظمى.

رأيت كثيرا من الصحافيين الاجانب يندهشون عندما يرون أجهزة الراديو في جل الأكواخ ويكاد في كل بيت من بيوت مدن الصفيح في الوقت الذي لا يجدون فيه ولو سريرا واحدا في كل تلك الأكواخ والبيوت، مما يدل على ان العامل الفقير يقدم شراء جهاز للراديو — لارضاء متطلبات حاسته السياسية في الاطلاع على ما يجري حوله، وفي العالم من أحداث — على شراء سرير يجعله يتمتع بنوم مريح.

وتتجلى ظاهرة الوعي السياسي هذه لدى المغاربة في الوقت الذي نرى فيه الفرنسي أو الامريكي يشتغل بالسياسة مرة واحدة في بضع سنوات عند ما تحين انتخابات الرئاسة أو مجلس النواب.

فنحن مرتاحون لهذا الوعي السياسي المغربي كما نحن مرتاحون لحرص المواطن المغربي كل الحرص على حقوقه مدركا لواجباته كل الادراك.

الوعي الروحي والاجتماعي :

وكان لوجود الاستعمار اثر في صقل الافكار الجامدة وجعلها تفكر في احوالها وما يريده بها هذا الاستعمار، واول رد فعل وقع في ميدان التحرر هو قيام الحركة الوطنية السلفية — التي كانت تطوان وفاس والرباط وسلا ومراكش من بين منابعها الاولى — وهي التي ابرزت حقيقة الاسلام وجعلت تدعو المواطنين الى نبذ الخرافات والى التحرر من سلطة ادعياء الدين من رجال الطرق والشعوذة.

وعقب ظهور هذه الحركة السلفية تبدلت نظرتنا الى الدين واخذنا نزيل عن أذهاننا طبقة الخرافات والقشور التي تكونت فوق لب العقيدة الاسلامية المبنية على حرية المناقشة والتفكير، واعتقد بانه لولا وجود هذه الحركة المباركة لتنكر كل شبابنا — الذي تابع دراسته في اسبانيا وفرنسا — الى الدين.

فبفضل هذا الاحتكاك مع الاستعمار ظهرت الحركة السلفية التي بدلت نظرتنا الى الدين وحفظت شبابنا من الالحاد وجعلتنا نفهم الاسلام على حقيقته كما تجلى في دعوة جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده.

ومن الناحية الاجتماعية احدث استعمال القوة الكهربائية وقوة الالات البخارية إنقلابا في الصناعة الأوربية حيث تحولت من صناعة فردية إلى صناعة جماعية فوقعت هذه الثورة الصناعية في منتصف القرن التاسع عشر دون أن تتأثر بها صناعتنا ولم نعرف نحن هذه الثورة

الصناعية ولم نتأثر بها حتى أصبحنا تحت سيطرة الاستعمار الذي فتح الباب للرأسمال الاجنبي ، فتأسست المعامل وفتحت المصانع وأخذ العمال يتجمعون ويوحدون صفوفهم للمطالبة بحقوقهم والدفاع عنها.

وهكذا ترك بعض الفلاحين وأخذ أصحاب المصانع البسيطة الصغيرة ـــ المكونة عادة من رب المعمل وعاملين ـــ يتركون مصانعهم ويعملون بأجرة في المصانع الكبرى حيث القوة الكهربائية وحيث قوة الآلات البخارية.

ونتج عن هذا تطور اجتماعي وتفكير جديد وشعور بالحقوق والواجبات ادى الى خلق وعي اجتماعي اخذ مكانه بجانب الوعي السياسي الذي كان يتمتع به المغاربة منذ عهد ما قبل الاستعمار.

مجتمعنا الحاضر يحتاج الى تطور :

وبناء على ما ذكرنا فإن مجتمعنا كان فاسدا في عهد ما قبل الاستعمار وإن الاستعمار عمل على ابقاء الكثير من مظاهر ذاك المجتمع القديم، كما عمل على تحطيم بعضها عندما جمع حوله الدجالين من ادعياء الدين وعندما فتح الباب في وجه الرأسمال الأجنبي الأمر الذي أدى الى خلق وعي اجتماعي والى ظهور الحركة الوطنية السلفية. كما نرى بأن مجتمعنا الحاضر مخضرم يتكون من مجتمع ما قبل الاستعمار ومن مجتمع عهد الاستعمار.

ومهما يكن لون مجتمعنا الحاضر فإن نظرة دراسية اجتماعية عميقة ونظرة الى حالات الشعوب المتخلفة اجتماعيا مثلنا كافية للحكم بأن هذا المجتمع يحتاج الى تطور وبأن المغرب الجديد في حاجة الى بناء مجتمع جديد.

ولقد ادركنا كما ادركت الشعوب المتأخرة التي لها وضع كوضعنا بأن الاستقلال ليس بغاية في حد ذاته، وانما هو وسيلة للعمل الجدي من أجل بناء مجتمع جديد على انقاض مجتمع ما قبل الاستعمار ومجتمع عهد الاستعمار.

اذن مهمتنا الأساسية في عهد الاستقلال هي بناء مجتمع جديد فكيف سنبني هذا المجتمع الجديد ؟

كيف سنبني مجتمعا جديدا ؟

سنبني مجتمعا جديدا لأننا شعرنا ـــ ويجب أن نجعل كل مواطن مغربي يشعر ـــ بأن الواجب يفرض علينا تحقيق الرفاهية والسعادة والازدهار الفكري لجميع المواطنين، وان نجعل من بلادنا قطرا يقوم بدوره الانساني في ميدان التقدم الفكري والعلمي، ودولة تلعب دورها في العالم ومغربا يشع بالمعرفة والنور، واعتقد بأن كفاحنا من أجل الاستقلال سيفقد معناه ونفوسنا ستفقد قيمتها اذا نحن أخلدنا لراحة التقاعد واذا اصبح جل مواطنينا يتسارعون من أجل ايجاد مظاهر الرفاهية لا أقل ولا أكثر ...

إننا في حاجة اليوم الى خلق حماس في نفوسنا لا يقل عن ذلك الحماس الذي ملأها عند ما كانت الدعوة الى الصبر والى التضحية وتحمل السجن والنفي من أجل الوصول الى الاستقلال، اننا في حاجة لخلق حماس يجعل كل المواطنين يشمرون على ساعدهم لبناء مجتمع المغرب الجديد.

وستنعدم كل قيمة لعملنا كوطنيين اذا اعتبرنا الاستقلال غاية ولم نعتبره نقطة البداية ومفتاحا لخوض معركة أكبر من معركة الاستقلال وهي معركة بناء عهد الاستقلال.

لقد أصبحت لدينا الامكانيات لبناء المجتمع الجديد حيث نتوفر اليوم الى جانب الوعي السياسي على وسائل القوة البشرية وعلى حرية التصميم والعمل، وبقي علينا فقط تخطيط الطريق. وارى بأن من الأوفق أن يعرف كل مواطن بدقة الهدف الذي يسعى اليه لكي يتحمس الى السير نحو ذلك الهدف.

يجب أن نضع صورة تامة لمغرب الغد وأن نمكن جميع المواطنين من الاطلاع على هذه الصورة، وألا نكتفي بتغيير سطحي بين عهد الاستعمار وعهد الاستقلال، لأن استقلالنا ليس معناه تغيير القبعة بالطربوش واللغة الأجنبية باللغة العربية وانما يحتاج الى تغيير جذري يتناسب مع الكفاح الذي كافحناه من أجل الاستقلال.

لقد حصلنا على الاستقلال لا لتصبح وطنيتنا وطنية تصفيقات وهتافات بل لنعمل من أجل بناء مجتمع جديد ولنضع للمواطنين الصورة المرجوة لمغرب الغد ونحدد المراحل التي سيتم فيها بناء مجتمعنا الجديد ليعرف جميع المواطنين أهداف ما بعد الاستقلال ويعملون لتحقيق هذه الأهداف. وهذه الأهداف تتلخص في :

— تحقيق الرفاهية والعدالة والمعرفة لجميع المواطنين.

— تحقيق الازدهار الاقتصادي والفكري والاجتماعي في جميع أنحاء البلاد ليتمتع جميع المواطنين بخيرات بلادهم بعد ما ضحوا جميعا في تحقيق هذا الازدهار.

طرق العمل لتحقيق هذه الأهداف

تطور الفلاحة :

ان أول ظاهرة تتجلى في مجتمعنا هي الفقر وانخفاض مستوى المعيشة لأن معدل دخل المواطن المغربي لا يتجاوز عشرين ألف فرنك سنويا في البوادي لو قسم المدخول على التساوي بين الجميع.

وان السبب الرئيسي في هذا الفقر هو اعتماد بلادنا في اقتصادياتها على العمل الفلاحي الذي يشغل ثلاثة أرباع سكان بلادنا ولا ينتجون ربع الدخل الوطني العام، والسبب في هذا يرجع الى ان الأساليب والوسائل التي يستعملها المغاربة في الفلاحة بسيطة جدا، وان المعمرين الأجانب يستعملون طرقا علمية عصرية تؤدي الى وفرة الانتاج. ومن كل هذا ندرك بأن محاربة

هذا الفقر تفرض علينا تطوير الفلاحة باستعمال الوسائل العصرية للحصول على انتاج وثروة أكثر ليرتفع مستوى المعيشة ويتجاوز المواطن مرحلة كسبه لضروريات قوت يومه الى مرحلة ما يحتاج اليه المواطن المعاصر من حاجيات تتناسب مع الكرامة الانسانية ومع الحياة التي يحياها المواطنون في البلاد المتقدمة.

التصنيع :

وان تطوير الفلاحة وحدها غير كاف لمحاربة الفقر بل يجب التفكير في ايجاد سلاح تحر لمحاربته — خاصة وان ارتفاع الانتاج الفلاحي له حد أعلى سيقف عنده وتبقى أيد بشرية عاطلة أو غير منتجة كل الانتاج. ولنذكر أن عددا من فلاحينا لا يشتغلون سوى بضعة أسابيع في السنة. لذلك يجب التفكير جديا في التصنيع.

وعندما نذكر التصنيع لا نقصد الصناعة التقليدية — التي نريد لها التقدم والتطور المفعول ولكنها محدودة الأثر — وانما نقصد الصناعة التي تجعلنا في مصاف الدول المتقدمة وتمكننا مثلا من ان نستغني عن جلب عدة بضائع من الخارج نصدر موادها الأولية خامة من بلادنا لتعود اليها مصنوعة.

تنمية الانتاج :

ان تطوير الفلاحة والتصنيع سيعملان بصفة مباشرة لمحاربة الفقر ولتنمية الانتاج.

نجد بأن الدخل العام المغربي — حكومة ومؤسسات خاصة — يبلغ سنويا 500 مليار فرنك تقريبا فاذا قسم هذا المبلغ الى مجموع عدد السكان — 10 ملايين — فان حظ كل مواطن سيكون هو 50.000 ألف فرنك. ولكن هذا الرقم ليس بواقعي لأن ثلثي 500 مليار يوزع على ربع السكان ومن بينهم الأجانب الأمر الذي يجعل حظ المواطن المغربي المتوسط سنويا هو 20.000 فرنك فقط كما ذكرنا في أوائل هذا الحديث.

وهذا القدر الضئيل هو الذي يدعونا لضرورة العمل في آن واحد من أجل تنمية الانتاج لرفع مستوى المعيشة ومن أجل التوزيع العادل لمدخول الأمة.

التوزيع العادل :

وستكون الاجراءات التي ستتخذ لتوزيع الدخل القومي توزيعا عادلا سببا في رفع مستوى المعيشة لئلا يتخم البعض بنصيب وافر ويكاد يموت البعض الآخر من جراء ما يعانيه من حاجة ماسة لسد ضرورياته الحيوية لعدم كفاية نصيبه التافه لهذه الحاجيات.

وهنا يبرز الدور الذي ستلعبه الحكومة في هذا الصدد .

وليس معنى التوزيع العادل أن نزيل للملاك أملاكه لنسلمها لجيرانه الفقراء ، ولا اذ

ننزع لارباب المصانع معاملهم، بل معنى التوزيع العادل أن تقوم الحكومة ـــ مثلا ـــ بفرض ضرائب مناسبة على الارباح والدخل الفردي فتتحصل من جراء هذا أموال للدولة يمكنها ان توسع الخدمات لفائدة المواطنين كجعل العلاج الطبي مجانا لطبقات شعبية أوسع وبوسائل تتحسن باطراد. فهده اذن طريقة مشروعة ومنطقية لاحداث نقص نسبي من اموال الغني وجعله كتعويض نسبي لحاجيات الفقير، وما أصدق المثل الصيني الذي يقول :« اذا كان هناك طعام فلياكل منه الجميع ».

ان التوزيع العادل لا يعني القضاء على الملكية الفردية وانما يعني ان تراقب الدولة هذا التوزيع وتحميه من سيطرة الاقطاعية والاحتكارات الخاصة .

فعندما نحتاج الى تطوير الفلاحة عند صغار الفلاحين مثلا فان هذا التطوير يجب ان يتم بواسطة الحكومة حيث تشتري للفلاحين الجرارات وتقدم اليهم المساعدات المادية والفنية وتعمل على حثهم على التعاون ونبذ الروح الفردية وتناسي الحدود أثناء عملية الحرث ليتمكن الجرار من قلب مساحات مناسبة ولتتمكن الارض بعد ذلك من اعطاء انتاج مضاعف يفوق بكثير انتاج كل تلك الضيعات الصغيرة لو حرثها كل فلاح على حدة وبوسائله العتيقة عقب نزول الامطار الاولى

التعاونيات الفلاحية :

وان الهدف الذي نريد الوصول اليه من وراء جعل عملية جماعية للحرث هو تعويد الفلاحين على التعاون وعلى نسيان نظرتهم المتعصبة الى الحدود المحيطة بضيعاتهم لتتمكن الدولة بعد خمس سنوات من امداد كل جماعة من الملاكين الصغار بجرار ليصبح ملكا لهم مقابل التعهد بتنفيد شرط واحد هو القيام بصيانته، وتكوين جمعية تعاونية تقوم بتوحيد التكاليف وتخفيفها وتكوين ميزانية عامة لهذه الجمعية ذلك ما سيساعد على خلق مجتمع متعاون متضامن. وسيحقق التعاون الذي سيحول ضعفهم الى قوة ويضاعف انتاجهم عدة مرات وسيؤدي الى رفع مستوى حياتهم.

والتعاونيات الصناعية :

ويجب ان يشمل نظام التعاونيات الميدان الصناعي ايضا. فلقد نشأت الصناعة في اوربا منذ 120 سنة وسيطرت عليها الرأسمالية واصبحت وسائل الانتاج ملكا خاصا لمجموعة من الافراد.

وفي المغرب لا توجد عندنا هذه المشكلة في الميدان الوطني لان أغلبية المتمولين الساحقة عندنا لا يملكون الا بعض الاراضي والبيوت يؤجرونها أو تراهم ينهمكون في التجارة غير المنتجة ولا يهتمون مطلقا بالتصنيع مما يدعو الدولة المغربية الى تبني مشاريع التصنيع الاولى فى البلاد والقيام بها في نطاق واسع .

وفعلا لقد تأسس مكتب للتصنيع في وزارة الاقتصاد الوطني مهمته العمل على ايجاد الصناعات وتأسيس الشركات بمساعدة الأموال الاجنبية التي نحن في حاجة اليها ونشترط لجلبها شرطا أساسيا فقط هو الاحتياط من كل سيطرة سياسية مباشرة أو غير مباشرة .

ولكن لتوسيع نطاق التصنيع ببلادنا يجب ايجاد روح التوفير وتشجيع التعاونيات الصناعية التي تجعل المواطنين المغاربة يساهمون بأموالهم في تأسيس المعامل حيث تتكون قوة تعاونية جديدة في ميدان التصنيع تساعد على محاربة الفقر ورفع مستوى معيشة سكان هذه البلاد.

الاهتمام بشؤون التعليم :

وان من بين العوامل التي أوجدت مجتمعنا متأخرا إهمال التعليم ولهذا يفرض علينا واجب بناء مجتمع متقدم، الاهتمام بالتعليم للقضاء على الفقر الذي نعانيه من قلة المعلمين ومن ضعف الاطار الفني لتسيير شؤون البلاد.

ولايجب علينا الاهتمام بايجاد المعلمين وبتكوين الاطار الفني فقط بل يجب علينا ايضا العمل لاصلاح التعليم وتطويره.

فالدول لاتبنى على مظاهر خارجية كالحفلات والحراقيات والاستعراضات فقط وانما تكون الدولة حقيقية عندما تتوفر على مجموعة كبرى من العلماء والباحثين والمهندسين الذين يسيرون شؤونها ويخرجونها من طور التبعية والعبودية الى التحرر الفعلي.

ولاضرب لكم مثلا بالفنيين الذين يسيرون الآن مرافق حياتنا. هل تعلمون أن بلادنا تتوفر على 2000 مهندس ليس فيهم مغربيا لحد الآن سوى 200 على اكبر تقدير مما يدل دلالة واضحة على ان المسافة بيننا وبين تكوين الاطار الفني لا زالت طويلة ؟

شروط النجاح

اذن فبتطوير الفلاحة وتصنيع البلاد وتنمية المدخول القومي وتوزيعه توزيعاً عادلا، وبايجاد التعاونيات في الميدانين الفلاحي والصناعي، وبتطوير التعليم والاسراع بتكوين الاطارات العلمية والفنية سنعمل على تحقيق اهدافنا ليتمتع جميع المواطنين بالرفاهية والعدالة والمعرفة ولتتمتع بلادنا بالازدهار الاقتصادي والفكري والاجتماعي.

الايمان بضرورة بناء مجتمع جديد :

ولقد ادركنا من خلال ما تقدم لنا من حديث باننا في حاجة الى بناء مجتمع جديد لان مجتمعنا الحالي لا يتناسب مع عهد الاستقلال. ويمكن لمعترض على هذا الرأي ان يقول : ان استقلالنا لا زال حديث العهد لم تمر على ميلاده سوى سنتين ونصف ولا زالت تنقصه

اركان مهمة كجلاء الجيوش الاجنبية عن ترابنا وتوحيد هذا التراب بعد اتمام تحرير باقي مناطقنا المحتلة من طرف كل من اسبانيا وفرنسا الامر الذي يجعل الشروع في هذا البناء سابقاً لأوانه .

واجابة على هذا الاعتراض اقول : اننا لا نريد ان نهيم في الطريق دون ان نعرف الهدف الذي نتجه اليه بل يجب ان نعرف الى اين نسير ونحدد الطريق ونؤمن بالاهداف التي نسعى اليها قبل بدء السير لتحقيقها. فنحن ندرك تماما بأنه ينتظرنا بذل مجهود كبير لتكون بلادنا في صف الدولة التي لها كرامة، وان من بين الاسس الرئيسية التي يجب ان تتوفر لدى دولة تشعر بكرامتها هو المجتمع الواعي الصالح ونظرا لعدم توفر مجتمعنا الحاضر على عناصر الصلاحية حسب ماتقدم ايضاحه من عوامل موروثة عن مجتمعنا القديم وعن الحكم الاستعماري، فان الواجب الوطني يفرض علينا الايمان بضرورة بناء مجتمع جديد، فاذا ما آمنا بضرورة بناء هذا المجتمع الجديد كافراد، ثم امنا به كحزب، فاننا سنجند انفسنا لتحقيق هذا البناء كما سنكون على يقين بان الامةبمجموعها ستتجند لهذا الغرض.

واعتقد بان بناء المجتمع الجديد هو جهادنا الاكبر ـــ بعدما قمنا باداء فريضة الجهاد الاصغر اثناء المعركة التي خضناها لانتزاع استقلالنا ـــ وان هذا الجهاد ليتطلب الكفاح العام من جميع المواطنين والعمل بحماس من أجل الوصول الى الاهداف وتقديم كل تضحية ممكنة في هذا السبيل.

مجتمع تقدمي متفتح :

أننا لا نعيش منعزلين في هذا العالم بل نعيش مع عدة شعوب كافحت مثلنا من أجل الاستقلال : الهند، الصين، اندونيسيا، مصر، العراق، ووجدت نفسها امام المشاكل التي وجدنا أنفسنا أمامها وعلى رأسها ضرورة بناء مجتمع جديد.

ويجب ان نقضي في عهد الاستقلال على روح الانعزال التي فرضها علينا الاستعمار في الماضي وان نؤمن بضرورة بناء مجتمع متطور تقدمي متفتح للتيارات المغذية لا مجتمع رجعي جامد، وان نكون على اتصال بتلك الشعوب التي تعاونا معها ايام محنتنا، وخاصة التي تربطنا بها أواصر التاريخ والجغرافية والحضارة، وان نكون معها رابطة قوية يساند بعض أعضائها البعض الأخر لنتمكن من اجتياز مرحلة الجهاد الاكبر بنجاح، ولنتمكن من السير في طريقنا لبناء مجتمع جديد.

وهنا يمكن ان يلقى علي من طرف احدكم هذا السؤال :
هل نضمن السير الناجح في هذه الطريق ؟

ان لنجاح السير في هذه الطريق الطويلة شروطا ضرورية لان الانقلاب والتغير لا يمكن وقوعه بين عشية وضحاها ـــ ما دامت المعجزة غير ممكنة، وما دمنا لا نتوفر على عصا سحرية قادرة ان تحول بضربة واحدة جهلنا الى علم وتأخرنا الى تقدم ـــ ويمكن ان نستنتج الشروط الضرورية للنجاح في السير، اثناء هذا الطريق الطويلة، من تجارب الأمم التي كانت لها وضعية مثل وضعيتنا.

فاذا ما ألقينا نظرة على هذه الأمم نجد أن هناك ثلاثة شروط أساسية كتب النجاح لكل أمة قامت بتطبيقها كما كان الفشل حليف من لم يجعلها أساسا لعمله الوطني.

انها شروط ثلاثة يجب ان يحققها كل شعب جعله الاستعمار متخلفا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وفكريا:

1 ــ التوفر على قيادة حكومية وشعبية مخلصة قوية حكيمة تفرض احترامها على المواطنين باخلاصها ونزاهتها وكفاءتها.
2 ــ وضع التصميمات لتحقيق التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعمل على تنفيذ هذه التصميمات بدقة.
3 ــ مشاركة الشعب في وضع وتنفيذ ومراقبة هذه التصميمات وذلك بواسطة المؤسسات الديموقراطية من مجالس قروية وبلدية ومجلس وطني منتخب.

القيادة القومية المخلصة :

يجب ان تتكون القيادة القومية الحكيمة المخلصة سواء في الحكومة أو المنظمات الشعبية من مواطنين حنكتهم التجربة ايام المحنة الوطنية واثبتت السنوات كفاءتهم ومقدرتهم على مواصلة السير نحو الاهداف التي تتطلب مصلحة البلاد العليا تحقيقها.

ومعنى القيادة الحكومية هي ان تكون الحكومة المسؤولة قوية في جميع مرافقها قوية بعمالها وبجيشها وبشرطتها ومحاكمها قادرة على تسيير شؤون البلاد تسييرا حازما منسقا دقيقا وعلى فرض احترام سلطتها على جميع المواطنين بحزمها واخلاصها ونزاهتها وعملها الجدي المتواصل.

التصميم للقضاء على التخلف :

رأينا انخفاض مستوى معيشتنا يفرض علينا العمل المتواصل لرفعه، يفرض علينا التكثير من الانتاج الفلاحي ويفرض علينا تصنيع البلاد وترقية الصناعة التقليدية ونشر التعليم وتطويره وتعميمه.

وفي قضية التعليم لا يمكن نشر التعليم وتطويره وتعميمه بدون وضع تصميم ــ فلا يعقل ان نستمر في بناء المدارس وفتحها لنسلم أبناءنا الى معلمين يمكن ان يقال عنهم بأنهم لا يفوق مستوى بعضهم مستوى تلامذتهم الا بقليل، لان القيام بعمل مثل هذا يعد من باب الاجرام ولأن جميع اولئك التلاميذ لن يتعلموا تعليما جيدا الامر الذي سيتضررون منه ويجعل آباءهم ينعتون التعليم في عهد الاستقلال بالضعف والانحطاط بينما التصميم سيساعدنا على الخروج من المأزق الذي نحن واقعون فيه الى حالة احسن في مدّة محدودة من الزمن.

كما ان تقديم ارضاء الحاجيات المعجلة يرجع الى ضعف امكانياتنا المادية. فحالتنا كحالة مريض ظهرت في جسمه عدة ادواء ــ داء الكبد وداء الامعاء والجلد الخ ــ واحتار في

امر معالجتها أو في اعطاء الاسبقية لاحداها وخاصة انه لا يملك من نفقات العلاج سو 10.000 فرنك — مثلا — فاذا ما ذهب لعيادة طبيب وأخبره بادوائه وبما يملكه من ما لعلاجها فان أي طبيب عاقل لا يسمح له بانفاق جزء من المال على كل داء — لان هـ التقسيم لا يفيد مطلقا أي داء — بل يهتم باشد الادواء خطورة فيبدأ بمعالجته ثم يعالج الد الذي يليه خطورة وهكذا.

فالتصميم ضروري عند تعدد الادواء وقلة الامكانيات وهو الطريق الذي تسلكه عد دول لضمان اصلاح تخلفها الفكري والاقتصادي والاجتماعي.

مشاركة الشعب بواسطة المؤسسات الديموقراطية :

بعدما تحدثنا عن الشرطين الاول والثاني نعود الان للشرط الثالث الذي يجب ان يتوفر للتمكن من بناء مجتمع جديد وهذا الشرط هو مشاركة الشعب في وضع وتنفيذ ومراقب التصميمات، ويمكننا ان نتساءل ما هي الكيفية التي سيشارك بها الشعب في وضع وتنفيذ ومراقبة التصميمات.

ان هذه المشاركة ستكون بواسطة ايجاد المجالس القروية والبلدية و مجلس وطني منتخب يراقب تطبيق بنود الدستور ويراقب سير الحكومة ويحاسبها على أخطائها اذا ما ارتكبت اخطاء ويحقق التوازن المنشود بين الحاكمين والمحكومين. ولا يتأتى للشعب ان يشارك بهذه الصورة الا اذا كان منظما متكتلا داخل هيآته السياسية والنقابية المبنية على التربية الوطنية الصحيحة.

هل تتوفر هذه الشروط لدينا ؟

فهذه الشروط الثلاثة ضرورية لنتمكن من التخلص من مجتمع ما قبل الاستعمار ومجتمع عهد الاستعمار ومن بناء مجتمع جديد يضمن العزة والكرامة والرفاهية والازدهار لجميع المواطنين. لقد نجحت كل الدول التي اتخذت هذه الشروط اساسا لتحقيق هذه التطور وفشلت غيرها من الشعوب التي تهاونت في تحقيق هذه الشروط وظلت تتعثر في طريقها وتتلقى خلالها اقسى الضربات.

هل تتوفر بلادنا اليوم على هذه الشروط الثلاثة ؟.

ففيما يتعلق بالقيادة القوية الحازمة فاعتقد اننا لازلنا لم نتوفر عليها لحد الان، لان الحكومتين الاوليين كانتا مبنيتين على اساس توازن صوري، كما ان الحكومة الحالية — التي تكاد تتكون كلها من اخواننا في الحزب — لا تتوفر على الوسائل الكافية لمباشرة مسؤولياتها كاملة حتى تتمتع بالسلطة اللازمة في البلاد.

ويجب ان نكون يقظين للعمل على تحقيق هذا الشرط الضروري والا سنكون قلقين على مستقبل المجتمع الذي يجب ان تتوفر الشروط الثلاثة لبنائه واعتقد بان كل تهاون في تحقيق هذا الشرط سيجعلنا نسلك طريقا غير قويم.

وكان ذلك هو الباعث على المطالبة بهذا الشرط في بلاغ اللجنة السياسية بتاريخ عشرين أبريل 1958 عندما حددنا شروط قبولنا كحزب لتحمل مسؤولية الحكومة ولكن الحكومة لم تتألف وفق هذه الرغبة وبقيت مسؤوليتنا بسبب ذلك منقوصة اما فيما يتعلق بالشرط الثاني فاعتقد اننا نسير في طريق تحقيقه واننا قطعنا خطواته الاولى عند دراسة المجلس الوطني الاستشاري لتصميم سنتي 1958 ــ 1959 الذي يعتبر خير مقدمة نحو تصميم عام في ميادين الفلاحة والصناعة وتكوين الاطارات وضع ليمهد في مدة عامين تصميمات السنوات الخمس المتوالية فاذا ما نفذ هذا التصميم بدقة فسيحقق الهدف من وضعه ويجتاز بنا فترة الانتقال من عهد الاستعمار الى عهد الاستقلال كما سيمكننا من وضع يدنا على زمام اقتصادنا في السنوات القادمة.

اما فيما يتعلق بتحقيق مشاركة الشعب عن طريق ايجاد المؤسسات الديموقراطية وفق الرغبة المشتركة بين الملك والشعب فان تحقيق هذا الشرط لازال في طور المشاريع وله ارتباط بالشرط الاول ويتساءل كثير من المواطنين : هل يؤيد حزب الاستقلال ايجاد المؤسسات الديموقراطية ام لا ؟

وللاجابة على هذا السؤال اود ان اقول : ان حزب الاستقلال الذي عذب اعضاؤه العذاب الكافي من اجل الحرية لايمكنه مطلقا ان يكون ضد الحرية فحزب الاستقلال يؤيد ايجاد المؤسسات الديموقراطية وذلك بانشاء المجالس القروية والبلدية ومجلس وطني منتخب.

الشروط متماسكة الحلقات :

ولكن أريد أن أنبه الى ان تحقيق هذا الشرط الثالث يتأتى الا اذا حقق الشرط الاول لان ايجاد المؤسسات الديموقراطية قبل ايجاد قيادة قوية حازمة ــ تقطع دابر الخونة وتقضي على مناوراتهم وعلى كل مناورة اجنبية ــ قد يؤدي بالبلاد الى الفوضى والاضطراب فلا يمكن ايجاد المؤسسات الديموقراطية مادامت محاكمة عدي ويهي لم تتم، وما دامت بعض المؤامرات لازالت تدبر وتشجع من بعض الجهات، وما دامت الحكومة لاتتوفر على سلطة حقيقية تامة في ميدان الشرطة بينما تتوفر امكانيات للايادي الاجنبية لانفاق الاموال من اجل نخر كياننا والسير بنا في طريق الفوضى والخراب. ان هذه الشروط الثلاثة تكون سلسلة متماسكة الحلقات فبدون قيادة حكيمة قوية حازمة لا يمكن ايجاد المؤسسات الديموقراطية، وبدون قيادة قوية ومؤسسات ديموقراطية لا يمكن تنفيذ برامج اقتصادية واجتماعية بعيدة المدى.

الاداة الفعالة

لقد حصلنا على الاستقلال كوسيلة لتحقيق التقدم والتطور ولبناء مجتمع جديد سيحقق للشعب المغربي الرفاهية والازدهار الفكري والاقتصادي والاجتماعي ويخلق في البلاد روح التعاون التي تكسب القوة للضعفاء.

ولكن بناء هذا المجتمع يتطلب ايجاد قيادة قوية وتصميمات اقتصادية ومؤسسات ديموقراطية، وتحقيق هذه الشروط الثلاثة يتطلب خلق وعي يؤدي الى جعل طبقة هامة من الامة تشعر بهذه الحاجيات وبضرورة تحقيق هذه الاهداف، واننا اليوم في حاجة الى اداة فعالة لخلق هذا الوعي في الشعب ــ كما كنا في حاجة في الماضي لاداة خلق الفكرة الوطنية ولنشر التربية الوطنية هذه الاداة التي قامت بالكفاح السياسي والكفاح المسلح والكفاح النقابي.

واعتقد بان الاداة الجديدة يمكن ان تكون هي نفس اداة الأمس ولكن مع تغيير وسائل العمل لأن معركة اليوم غير معركة الأمس فلقد خضنا بالأمس معركة من اجل الاستقلال، ويجب ان نخوض اليوم معركة سلمية من اجل بناء مجتمع جديد، ولكن تلك الاداة التي كانت صالحة بالأمس للحزب يجب ان تتحول اليوم صالحة لوقت السلم.

لذلك فان هذه الاداة لن تكون صالحة الا بعد احداث تحوير فيها، لان حزب الاستقلال الذي صنع الابطال والمكافحين اثناء معركته مع الاستعمار، يجب ان يصنع الابطال والمكافحين لخوض المعركة من اجل بناء مجتمع جديد في مغرب جديد وسيكون مثله في هذا كمثل معمل أخذ ينتج في أيام السلم الجرارات والآلة الكاتبة بدل انتاجه للدبابات والآلات الفتاكة في أيام الحرب.

وهذا الدافع يجعلنا نشعر بضرورة احداث انقلاب داخل حزبنا لنجعله قادرا على القيام بمهمته الجديدة.

فينبغي ان يتكون لدى جميع العاملين الشعور بالحاجة إلى الانقلاب داخل الحزب لأن هذا الشعور سيجعلنا ندرك بأننا في طريق تحقيق هذا الانقلاب، فالواجب يفرض علينا ان نعمل لتكوين الأداة الجديدة التي تعد أبطال معركة بناء مجتمع جديد وهذه الأداة هي حزب الاستقلال بعدما يتجدد في تفكيره وأسلوبه وبرامجه. وان الشرط الأساسي لتحقيق هذا الانقلاب هو ضرورة العمل بنفس الروح الثورية التي كانت تملأ نفوس جميع المكافحين المخلصين أثناء معركتنا مع الاستعمار. لنتجند من جديد للعمل بحماس كبير من اجل بناء المجتمع الجديد والله ولي التوفيق والسلام.

○ كتب : حركة المعاصرة في الشعر العربي الحديث (كمال خير بك)

قتلوا الشاعر الناقد كمال خير بك في بيروت. ها نحن بعيدون عن الدخول معك، أنت أيضاً، أيها العزيز، في مدار الموت.
هيأ الصديق عبد الله راجع هذه الكلمة في نهاية الصيف، كنت تريد أن تقرأها، وكنت أعمل على رؤية كتابك في المغرب.
ماذا يقول الآن كل منا للآخر ؟
صمت أبيض يحضر. حالة أخرى لم تهادن المحو.

م. ب

(حركة المعاصرة في الشعر العربي الحديث) هو عنوان الكتاب الذي أصدره د. كمال خير بك بالفرنسية ضمن سلسلة «عربية»: منشورات إستشراقية سنة 1978. وهو في الأصل رسالة دكتوراه في الآداب قدمت إلى جامعة جنيف خلال سنة 1972 تحت إشراف سيمون جارجي ونالت ميزة «جد مشرف مع التهاني العميقة للجنة». وقد وضعه الباحث بالمطبعة منذ 1973 لكن ظروفا خاصة حالت دون صدور الكتاب آنذاك، بالاضافة إلى أحداث لبنان، مما ترتب عنه تأخر نشر الكتاب إلى سنة 1978.

•

ينقسم الكتاب إلى أقسام ثلاثة :
ــ أصول حركة المعاصرة في الشعرالعربي
ــ التحول الذي أصاب لغة الشعر
ــ التحول الطاريء على البنيات الايقاعية

يعالج المؤلف في القسم الأول من كتابه المجالات التي نشأت فيها حركة المعاصرة في الشعر العربي منطلقا من البحث عن الأسباب التي أدت إلى ظهور «إنفصام» داخل شخصية المثقف العربي الذي يجد نفسه مدفوعا بالضرورة إلى دائرة مفرغة : فلكي يكون هو نفسه يلزمه أن يدافع عن نفسه ضد الآخرين، ولكي يواجه الآخرين فإنه مرغم على أن يتبنى ويتمثل مكتسباتهم المادية التي هي نمط حضارة متميزة .. بمعنى أنه لكي يكون هو نفسه يلزمه أن يكون الغير، حسب تعبير جاك بيرك.. أن الصراع الدرامي بين تحديد ومقاومة الخصوصية لهذا التحديد يقود مجموع النشاط الثقافي للعالم العربي في طريق الشذوذ والاستلاب، ذلك أن التحديد حسب رأي المؤلف يظهر غالبا على شكل استبدال كلي. وهكذا فإن الجدل القديم حول الشرق والغرب يصبح جدلا في المحافظة والمعاصرة، ولكنه، في غيبة نفاذ حقيقي لجوهر تقاليدنا وتقاليد الغرب، يضع المشكل على مستوى التنازع في الأشكال والصيغ.. ويخلص المؤلف إلى أننا لفهم ميلاد وتوجه وبنيات حركة المعاصرة في الشعر العربي يجب أن نعكف على دراسة ملابسات هذه الأزمة الوجودية التي يمر منها العالم العربي.
يناقش المؤلف بعد ذلك المجال الثقافي في لبنان أثناء ميلاد مجموعة شعر ويلخصه في النقط الآتية :
ــ بروز عدد من الشعراء الشباب المتأثرين بانتاج سعيد عقل من أمثال جورج غانم، شوقي أبو شقرا، وكل أعضاء مجموعة الثريا
ــ عاصفة من النثر الشعري أثارها جبران وأمين الريحاني ومي زيادة وهي التي ستصبح نواة الشعر المنثور الذي سيثير تبني مجموعة شعر له عاصفة من الجدل
ــ نمو الشعر الشعبي وتطوره السريع لاتصاله بالحياة اليومية
ــ بصرف النظر عن الحالة الاستثنائية التي يمثلها خليل حاوي كان في الامكان ملاحظة الغياب الشامل في لبنان لأي شعر معاصر

ولكن حركة المعاصرة خارج لبنان كانت قد قطعت شوطا لا بأس به مع خطى الشعراء العراقيين فيما سمي بالشعر الحر، ويبدو أن المؤلف وهو يستعرض أسماء السياب والبياتي ونازك يعتبر كل إبداعاتهم الشعرية خطوة نحو المعاصرة ليس إلا. فالمعاصرة ستنطلق مع بيان يوسف الخال ومع صدور مجلة شعر (يناير 1957) ذلك أنه إذا كانت الأسماء السابقة قد شكلت في إنتاجها ما يمكن إعتباره ترددا واضحا بين معانقة التجديد ومقاومة الخصوصية لهذا التجديد فإن يوسف الخال وغيره من مؤسسي ورواد حركة المعاصرة سيسعون إلى موقف أكثر تطورا حين يرغبون في أحداث إستبدال كلي من شأنه أن يحدث قطيعة مع التراث.. بل ومع الجمهور.. لكن المؤلف سيعود إلى إعتبار أن المثقف العربي يجد نفسه تائها بعد أن فقد نقطة إرتكازه وهو يعانق الغرب كلية، وهو أمر سيجعل رواد حركة المعاصرة واعين بالمسافة التي كانت تتسع سريعا بين إنتاجاتهم وقرائهم. أن الشاعر العربي المعاصر الذي يريد أن يسمو فوق تناقضاته يجد نفسه في «مخرج» هذه التناقضات نفسها أمام أخرى أشد خطورة، فأن تكون معاصرات، بالنسبة ليوسف الخال، هو أن تدخل حضارة القرن العشرين، في حين أن هذه الحضارة نفسها تشهد بموت الانسان.. ولعل غياب تركيب لهذا التناقض كان بالمستطاع أن يكون في قاعدة هذه التناقضات وهذا الالتباس الايديولوجي، ويفسر بالتالي ظاهرة الازدواجية هذه على المستوى الاجتماعي، السياسي، الثقافي والفني.

إن هذا الخلل في مسيرة مجموعة شعر سينمو ويتطور بنمو الأسئلة التي ستطرح على المجموعة، وستبدو الصيغة : «جد نفسك لتجد الآخر» مقلوبة بشكل غريب «جد الآخر لتجد نفسك» وسيصبح الانتقال إلى النصف الايجابي من مهام المجموعة بعد أن تم تقويض وهدم القصر الشعري الشائخ، أمراً صعبا سيعلن عن توقف المجلة بالعدد المزدوج 31 ــ 32 صيف ــ خريف 1964.

في القسم الثاني من الكتاب يبدأ المؤلف بالاشارة إلى مفهوم اللغة الشعرية قبل ظهور حركة المعاصرة معتبراً أن نزول هذه اللغة إلى أرض الواقع وخروجها من أسار الكتب لتصبح لغة الحوار مدين بالشيء الكثير لظهور هذه الحركة، إلا أنه يثير ملاحظة جد هامة وهي ما أسماه بتمرد اللفظة على الجملة لدى رواد هذه الحركة، وهو أمر يتصل كثيرا بفكرة التضاد الحاصل بين الشاعر وقرائه.. إذ أن مفهوم الفردية هذا يكشف عن نفسه لدى الشاعر على مستوى اللغة الشعرية مما سيجعل الباحث في حركة المعاصرة هذه مرغماً على مناقشة لغة النص الشعري إنطلاقا من قاموس جديد. إن تمرد اللفظة على الجملة، كما يرى المؤلف، يمكن أن يفسر سوسيولوجيا بصرامة المجتمع التقليدي ومطلقيته الطاغية التي تكشف عن نفسها بشكل أوامر هادنة، وعلى مستوى التعبير تبدو كامنة في شعارات وصيغ بلاغية مقدسة. ثم يحصي المؤلف مظاهر التحول المعجمي فيوزعها إلى

ــ مظاهر سلبية تتجلى في إختفاء المفردات الميتة والصعبة والمفردات الطنانة والرومانسية

ــ مظاهر إيجابية تتجلى في إستخدام الشائع والواقعي، وفي الجوء إلى المفردات المبتذلة (التي تسمي الشيء بإسمه) ومحاولة توظيف مفردات جديدة أو مجددة (أعطيتها دلالات جديدة) وإستخدام الكلمات ــ الرموز والمفردات التمثيلية والتصويرية وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى مجال الجملة ليبحث في مسألة شغف الشاعر المعاصر بإستخدام الجملة الاسمية التي هي صيغة إختزال للجملة الفعلية، موضحا أن الاختزال الذي أصاب الجملة الشعرية كان مضطرا أن يتأثر، بشكل مباشر، بعناصر حاسمة مثل

ــ الادب الاجنبي (قراءة مباشرة أو ترجمة)

ــ النثر بسبب تطوره السريع بالقياس إلى الشعر

ــ اللغة الشائعة

ويختتم المؤلف القسم الثاني من الكتاب بمعالجة مسألة غموض النص المعاصر وتعقيده مبرزا أن المصطلحين معا يتصلان بالمجال الدلالي ولكنهما يتصلان به على مستويين متميزين : جوهري وشكلي، الأول هو مجال إكتساب وتمثل وانبثاق للأفكار حيث إن العلاقة : تفكير : تعبير، تظل، كما هي في النثر في حدود القيمة الاستعمالية أو التواصلية للغة، في حين أن الثاني يشكل منطقة الاعداد أو التهيء الجمالي الشعري

بكل بساطة.

وينعكس هذا الغموض والتعقيد في مستويات ثلاثة :

ــ المستوى المعجمي. إما بواسطة إنزياح أو إبتكار دلاليين، أو برفع «العلامة» الى مستوى الرمز بسيطاً كان أو مركبا،

ــ المستوى اللفظي الجوهري : قبل إنبثاق الدلالة تمنحنا المفردات الخلايا المبحثية الأولى مما يحتم إكتشاف الظلال النفسية والاسطورية التي تثيرها هذه المفردات

ــ المستوى اللفظي الشكلي : فكل ما يمكن قوله عن غموض النص يعود في جزء كبير منه إلى الشكل اللسني أو التعبير الذي يقدم به، ذلك أنه إذا كان الأمر لا يتعلق إلا بالمسائل الجديدة أو بالأفكار الجديدة فإن «التقديم اللسني» على مستوى النثر بإمكانه أن يوفر صيغا إخبارية قادرة على تحقيق الفهم لدى جمهور كبير

ويفهم من كلام المؤلف أنه يستخدم مصطلح «تعقيد» للدلالة على عدم الصحة النحوية وعلى الاهتزاز النظمي في حين أنه يخصص التعبيرين «تركيب ــ غموض» للاشارة الى مستويين دلاليين متمايزين، أو بعبارة أخرى لمستويين مختلفين من الدلالة : مدلول مجهول ذو طابع جوهري، ودلالة متأبية ذات طبيعة علائقية، مما يمكن أن يكون معادلا لما يسمى في البلاغة القديمة بالاستعارة البعيدة أو الغامضة بالتعارض مع الاستعارة القريبة أو الواضحة.

في القسم الثالث من الكتاب يناقش المؤلف حركية الايقاع في النص الشعري المعاصر بعد أن يخصص جزئين من هذا القسم للبحث في القوانين العروضية التي حكمت إيقاع القصيدة العربية منذ أن وضع الخليل بن أحمد علم العروض، وفي التطورات التي أصابت البنية الايقاعية للقصيدة العربية قبل حركة المعاصرة في الشعر متحدثا عن الموشح والمزدوج والمربع والمخمس والمسمط وغيرها. ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك ليتحدث عن التطور الحاصل في مجال الايقاع مبينا ما حدث من إنتقال الشعراء من نظام الشطرين المتقابلين إلى نظام الشطر الواحد أو الجملة، ومن البحر بمفهومه العروضي إلى الايقاع باعتباره فعالية داخلية. ويخصص الباحث قسما من هذا الجزء لمناقشة كتابي نازك الملائكة ومحمد النويهي حول الشعر العربي المعاصر مركزا على الجانب الايقاعي من بحثيهما قبل أن يخلص إلى تقسيم القصيدة العربية المعاصرة من حيث البناء الداخلي الى :

ــ قصيدة «فطرية» أو «خام» والمقصود بها تلك القصيدة التي لم يبذل من أجلها أي مجهود تنظيمي يذكر. ويقدم هذا النوع من القصائد بناء داخليا بسيطا وسطحيا

ــ القصيدة الشبه منظمة أو المنظمة جزئيا وهي قصيدة يتضح فيها مجهود صاحبها في توفير تنظيم لعمله، لكنه غالبا مجهود يركز على مظهر جزئي من العمل.

ــ قصيدة البنية الفوضوية، وهي قصيدة يجب ألا تختلط في أذهاننا بالشعر الفطري «لأنها تعتمد على الفوضى المنظمة والمفكر فيها».. ولعل هذا المفهوم صالح للفصل بين «فوضى فطرية» و «فوضى واعية»، وقد عرف هذا النوع بداياته الأولى مع البياتي (أباريق مهشمة) لكنه وجد مجالا خصبا في إبداعات محمد الماغوط و توفيق صايغ وأنسي الحاج.. وكيفما كان الأمر ــ كما يقول المؤلف ــ فإن القصيدة المسماة فوضوية يمكن أن تعتبر ليس فقط ، نقيض النص التقليدي، الرومانتيكي، بل أيضا الرد الرافض، والأكثر عصرية، للشكل المنظم. وإذا كانت القصيدة الفوضوية نقيض النص الرومانتيكي فإن القصيدة المنظمة تشكل حسب ما يبدو، تركيبا للنقيضين.

يعتبر الكتاب محاولة جادة لدراسة النص الشعري العربي المعاصر، إنطلاقا من مجموعة «شعر» وما أحدثته من تغيير في بنية القصيدة المعاصرة لغة وإيقاعا، كما يعتبر محاولة هامة في مناقشة مفهوم المعاصرة هذا على ضوء التغييرات التي حدثت سلبا وإيجابا داخل نفسية الانسان العربي المعاصر بتأثير من وضعيته كمتردد بين إبراز خصوصيته وتبني مكتسبات الغير.. بيد أن الرسالة في تركيزها على الجانبين اللغوي والايقاعي وحدهما، لم تستوعب مجمل مظاهر المعاصرة في القصيدة العربية، فقد كان لزاما أن يثير الباحث

مسألة العلاقة الصميمية بين نفسية الانسان العربي وتقنية تركيب الصورة الشعرية لديه، كما كان ضروريا أن يبحث في معمارية النص المعاصر باعتبارها وليدة تصور خاص لمفهوم المعمار، له ما يزكيه على مستوى العلاقات الاجتماعية من جهة، وإنتماء المبدع ثقافيا وطبقيا من جهة أخرى..

عبد الله راجع

كتب : « كيف تأتي المنافي » **محمد عزيز الحصيني**

من المحتمل أن يستمر الوضع الشعري في المغرب خاضعاً للتفاعلات الخارجية، والتقلبات المفاجعة، اذا هو لم تتقدمه الأسئلة، ولم يرافقه البحث في أمر ممارسته وامكانيات تجاوز سلبياتها.

ليس هذا القول انطباعا يحتمي بالراهن والعابر، ولكنه بالأحرى دخول في محاولة رصد الطرائق الشعرية ودلالتها وزمنيتها، ذلك أن النقد المُتّبع، رغم أنه نتاج شباب جريء، لم يتجاوز بعد جملة من التوسلات التقليدية في قراءة متننا الشعري، فما تزال المقاربات النقدية تلغي البنيات الداخلية للنص، وتهمل دوافع الكتابة وحدودها، مما يعطي لاستخدامها البنية الخارجية بُعْدَ لَأزمةٍ سياسية لا تستطيع دوما طرح المسألة المعرفية الخاصة بالمجال الشعري ضمن إطارها الاجتماعي التاريخي.

يصبح هذا القول ضرورياً عندما ننظر الى ما يفرزه وضعنا الشعري من تجارب متنافرة متباعدة، يفضل النقد أن يتعامل معها بجفاء مرة، وبعفوية مرة، وبتعميم مرة ثالثة.

مجموعة من الدواوين صدرت هذه السنة، أسماء تكتب وتنشر في الصحافة، وأخرى تخلت عن الشعر، وهي ظاهرة صاحبت ممارسة الشعر في المغرب الحديث، مع تبدلات ليست فاعلة كلية في تغيير بنية الممارسة الشعرية حتى تستقر الحالة التي يمكن أن نسميها بتقليد الكتابة، حالة نحتاج اليها.

ديوان محمد عزيز الحصيني « كيف تأتي المنافي ؟ » أحد هذه الدواوين الصادرة (أبريل 1980)، وهو يشكل جانبا من تجاربنا المتنافرة، طبق عليه النقد المعايير نفسها التي قرأ بها تجارب أخرى متباعدة.

عندما يقبل شاعر شاب في المغرب على طبع ديوان (جل الشعراء الشباب يطبعون على حسابهم) فإنه يبتغي الاعلان عن وحدته، ورفضه الانصياع لشرائط الصمت والاحباط. إن اقبال الشعراء الشباب على نشر دواوين مرتبط بجيل السبعينات، وأكبر من قيمة هذه الدواوين ميزة التراكم التي يحققها، والأسئلة التي يمكن أن يوقظنا عليها، بعد أن أصر النقد على تجاهلها.

من هنا يأخذ عنوان ديوان الحصيني كل دلالته، فهو بجملته الانشائية الحادة يلامس المنافي، يواجهنا بها، ومن خلال الاهداء القصير (الى المعطوبين في دمهم، في زمن الكتابة المعطوبة، في زمن الدم المعطوب) نعلم عمل الأحتراق الذي صدر عنه هذا الديوان.

ان كلا من العنوان والاهداء يختاران القاريء، يبتعدان عن التهليل والقناعة، يختزلان المسافات، يلغيان الوسائط، ينخرطان في البحث عن القاريء المجهول المعلوم.

ومن خلال السياق تبغتنا الكتابة الشعرية عند الحصيني منفىً ودماً معطوبا. ان الشاعر لا تسائله تجربة النفي والدم المعطوب فيما لا يسالمهما، ولذا لم يعد من الضروري أن يقول لنا شيئاً، بل همه ينحصر في اختطاف الحالة والالقاء بها في صمتنا ومنطوقنا عبر إنشائية العنوان كمدخل أول لتكثيف المتن ــ القصيدة (ص.

يتدخل النص الغائب في هذا الديوان ليتصدّر مغالبة النفي والدم المعطوب، ثم اعادة انتاجهما في ذات — نص الحصيني. يتبدّى لنا أدونيس، النفري، محمود درويش، سليم بركات كمتن يؤسس النص الغائب، على أن إعادة كتابة هذا المتن لم تتمكن بعد قوانينها المتميزة، بقدر ما خضعت لذاكرة متصدعة لم تألف كيف تحاور المنافي، ولا كيف تتفرد بها، ولكنها مع ذلك ترفض مسالمتها. هذا الرفض العنيف واضح :

1 — كالجسد الرّاعج أحصد مفازات الكلام (ص. 16).

2 — آه يا صنوي الكئيب

حاربني دثر الكتابة خوّلها رصاصاً وقنابل تحاصرني

في المكتوب تمر القحط وتنشي ملامح الرمل عند حضور

التقية والصبح الأعظم (ص. 38)

— أُكَنْمِكُ في الغيب كالترياق

فمن يتحالف مع سرّي (ص. 70)

لم يتجسد رفض المسألة على مستوى تحديد الموقف من اللغة، ولكنه انتقل الى العلائق المرئية واللامرئية، الواعية واللاواعية، بين الدواخل والعالم الخارجي، حيث تندفع الحواس في رحلة قاسية للمس موقع الجسد الهارب دوماً من كل سكون :

— يغمرني هَوَسِي وتغمرني هتافات الوجادي.. (ص. 95)

— إنه استوى على ربيع ناره

تتابه الغيلان وهو ما يزال يُغنّي (ص. 101)

هذا الموقف الرافض جعله ينفلت من موية الرؤية المعاصرة في الشعر المغربي، يُحَوِّل مُتتاليات النص عن الانفصال الوهمي بين الجملتين الانشائية والخبرية، ويدغِمُ الكائن بالممكن، القريب بالبعيد، هذه الفضيلة البيّنة في الديوان أسيرها الكلامُ، ومن هنا تجلت هيمنة الذاكرة المتصدعة التي لم ينقذها الحلم الا في مقاطع وأبيات محصورة. وقد فضل الشاعر للأمر في كثير من الصفحات :

1 — قد أتاني دم كثير

وغيبة مستنسرة

وخُذِلتُ على أمري لكنني أحاول السؤال :

كيف تصير الكتابات لغزاً... ؟ (ص 122).

ان هذا الدم — الجرح الداخلي رمز أيضاً لتدفق الكلام المحموم من ذاكرة (شعرية) متصدعة، وهو تدفق طبيعي جداً في أول الكلام، وقلقُ الشاعر هنا فاعِل، يمكن ان يذهب به بعيداً في البحث عن قواعد تعيد صوغ تصدع الذاكرة ولحمها بالحلم والشعر كصناعة. نحن أمام سؤال ضروري : من يُرَكِّبُ الآخر ويُكَوِّنُه، اللغة أم الشاعر ؟ ان كل رؤية أحادية تظل وهماً، ما دامت العلاقة الجدلية بين اللغة والجسد هي أساس كل تحول شعري. منذ القراءة الأولية نتأكد من أن الظاهرة الميكانيكية المستبدة بالديوان تعود الى تدفق الكلام وتحكم الذاكرة قبل أن تكون امتهاناً للنسيان والحلم والمحو، قبل ان تكون ميكانيكية نفسية.

طبيعة بعض قوانين النص الغائب تحكمت، اذن، في اعادة انتاج المتن المرجعي، فجاءت القصائد معتمدة على الدلالة، لا على الايقاع — الدلالة. ان الايقاع هنا نفس، ولكنه يظل مع ذلك خارجيا، ليس

الجسد هو الناطق دوماً، ولكن ما ترسب في الذات المتكلمة من نَفَس الأخرين، النصوص الأخرى، وعدم الاحتفال بالزمن أدى بدوره الى إهمال المكان، بل أدى الى مسالمة اللغة كنظُم لا كدلالة فقط.

لست أقصد من وراء هذه الكلمة القصيرة حصر رؤية الشاعر للعالم، هذه مهمة سابقة لأوانها، غير أن النفي /نفي النفي محور أساس يأخذ أبعادهُ الاجتماعية ــ التاريخية في مغرب السبعينيات، إذ المواجهة من مسلمات الكتابة، مما يموضع هذا الديوان ضمن كوكبة الأصوات التي توصل للتحرر، وربما توصل للشعر أيضا، على ان هذه الملاحظة لا تحمل معها غير المزيد من السؤال : هل الكلام بقادر على المواجهة، لا خارج النص، ولكن داخله أيضاً ؟ ان انتاج أي نص مشروط بالذاكرة، ولكن كيف تخلخل هذه الذاكرة، تمازج بينها وبين الوقائع الخارجية واستنطاق الذات واللغة، كوعي ولا وعي وتاريخ ؟ كيف يمكن لهذه الفروقات أن تحرِّك النص وتجعله متفاعلا مع تحولات العالم ؟

لاشك ان الاستمرار في الكتابة، التجذر في حركية الواقع، الانفتاح على المعارف، التساؤل الدائم، هي وسائل البحث الشعري. لايمكن أن نؤمل في مستقبل شعري بغير الانتباه المتعاطف مع الحصيني وأمثاله من شبيبتنا التي تحتاج لمن ينصت إليها، يتضامن معها في وحدتها.

محمد بنيس

كتب :« طارق الذي لم يفتح الأندلس » ــ

مصطفى المسناوي

قال جلول : كانت هناك عاصمة، وثمة كانت أرض تدور، غير أن الطيور ارتحلت جنوبا، والجبال تقهقرت إلى البحار، وغطت رمال العواصف الوادي الذي هتفت صخوره قائلة إن الشمس ستهوي الآن علينا مباشرة وأنّا سنحمَى ونحمر فنصبح وكرا للأنفس تأتيه بحثا عن الظل فتصيدها العقارب والحيات.

إن تركيزي على هذه الفقرة من قصة « فصل من حكاية جلول الجيلالي » ليس اعتمادا تعسفيا على حساب القصص الأخرى بالمجموعة، بقدرما كان تركيزي على هذه الفقرة بالذات لإبراز الخط العام للمجموعة وهي تحضن شرائح يقضها واقع مشترك، وإلى هذا الواقع منصاعة بغلبة فوقية، وهي بحالها مقهورة إلى موتها، ومهانة وهي مشدودة إلى موت مفروض، لكنه موت من نوع آخر.

« جاليلي » الحزين ينهض ليتبرأ من مفهومه القديم، ويرفض أن يستمر ذاك « جاليلي » الذي قال : « إن الأرض تدور ». الآن يتحول « جاليلي » العالم الى « جلول » الحكيم الذي يتصرف برأسه وقلبه، « جلول » الحكيم يرى أن الأرض كالقلب لا يهزه سوى الرضى والفرح، الأرض ثابتة بغياب عنصري الرضى والفرح عنها، ولم يبق للشمس سوى أن تهوي مرغمة بإعلان هروب مادي بلا اختيار، « ولم يسع البشر سوى الهروب ». من ماذا ؟ حتى لا : تتصيدها المؤامرات. (تتصيدها العقارب والحيات) إن المؤامرات هي فخاخ لفعل سكونية الواقع، وللحفاظ على نفس سكونيته بضبط الأنفاس بقعر قارورة مغلقة وبإحكام، « جلول » الإنسان حزين، والأرض التي تداعت أجزاؤها تلتهب وهي تفقد نشأتها، تبكي حالها مع البشر الذي غزاه طوفان القهر والإهانة، ومع ذلك فجلول الإنسان تهب عليه دفقة حنين قديم ويقرر بشوق : « كانت الأرض تدور ». هذا الفعل الناقص يندب حاضره، وتتجلى اللذة في تلك اللحظة القديمة التي أقصاها واقع شاذ.

إن الخط العام للمجموعة يركز على اكتظاظ الساحة بمسوخات سلوكية، لا تتفاعل معها علاقة موضوعية، بكل زوايا الساحة زيف، وبكل زوايا الساحة مقصلة، وساطور والحجاج يكرر نفسه، وشرط التواجد رأس فارغة، ولسان مبتور. وبداخل المرآة المتنقلة هناك زحام، هناك احتراق، ووجوه المرآة كل الناس المضطهدين. بداخل المرآة تتصرف شخوص المجموعة معتمدة على تزويج الماضي بالحاضر، وصبهما معا في قدر الانتقاد، والمطالبة بالغائهما ببديل يتجاوب وإرادة ما يستجيب لضرورة كل المضطهدين المزيفة حقيقتهم، فلوذ طارق بالاحتراق بـ « الكيف » ليس انتكاسا وهروبا، بقدر ما جاء سلوكه طبيعيا وهو يرى أن أحقيته المغتصبة قد حولته مجرد بيدق لوجه آخر، من المسؤول إذن ؟ بالطبع كما يرى طارق أن الذي يمارس الاغتصاب

ليس سوى موسى بن نصير الذي في فوق، فهذه الازدواجية بين الزمنين، وهذه الصورة ليست منظورا يائسا، فطارق الذي يهذب نفسه بعبثية انتقادية لا يمارس ذلك سوى لمراجعة داخلية بحثا عن مواجهة حقيقية لإنهاء هذا الزيف الممارس كالعادة من الجانب الآخر، كما أن طارق، وعبد يغوث الحارثي، وعبد الله سامسا وغيرهم، لا يخاصمون أشخاصا معينين، بقدر ما يخاصمون وضعا شاذا لسلوكيات ذلك الجانب الآخر، فأشخاص المجموعة لا تأسرهم حزازات انفعالية، لكن يمتلكهم وعي ثابت يلح بضرورة التغيير، برفع الزيف عن حقيقة المضطهدين، واستبدال ما هو ثابت بما هو متحرك ونافع، وبإنهاء حماقات طاغية، والموروث الجاهل، وإعادة النظر في الأمر الواقع الثابت، فهذه الظواهر العكسية هي التي قتلت عبد الله سامسا، قتلت حريته التي هي حرية كل الآخرين، كما شوهت حقيقة طارق الفاتح. ولأن الشمس تشرق أبدا، نرى عبد يغوث الحارثي يستعيد رأسه المقصول، وتضج الساحة بالفعل، وهي تشكل التقاء لولادة جديدة فيندحر الحجاج، وفي زاوية أخرى يثب الوعي الجديد في الذين امتصتهم « أوطو روت » وهم لا يعلمون ما « أوطو روت »، فتعطل الساطور، وينهض رأس عبد يغوث نابتاً بمكانه، وأن لكل من « جاليلي » و « جلول » أن يؤكدا أن الأرض بدأت الآن تدور، ولطارق الذي سرقت حقيقته من فوق أن يبدأ بالدخول في الفرح، ولطيور الجنوب، وللذي حلم بصاروخ يهرب به من لظى الأرض الملتهبة أن يعودا، فالولادة بدأت، لكن هل جاء البديل ؟ إن الحال كلها متجلية في حركة التنامي لإعلان المخاض : الوعي، الذي عرى عن تلك السلوكيات التي لها مكانها العربي وزمانها العربي، ففي هذا المكان والزمن العربيين يطفح النفاق، والزيف اللذان عطلا عقلية المسيرة الحضارية بذات الإنسان العربي الذي لا يتحمل مسؤولية تخلفه، ما دام الجانب الآخر الذي يمارس سلطة فوقية عربيا، مسرورا بهذا التعطيل الذي أفقأ النظر الحسي والفكري في ذات الإنسان العربي المتخلف عن غير طبيعته، مما عطل الإنجاب وانتهت الأرض العربية بالذات غير حالمة باشراقات ما، فهي حزينة في انتظار الولادة الحقيقية التي ستعيد الحلم إلى الرأس، والرغبة، وإلى الأرض التي تتألم وتشكو فقدانها للرضى. فالمجموعة كوحدة تنطلق برؤية واعية لتأصيل الحدث والموقف فالواقع الذي اغترفت منه المادة لم تتعامل معه بنفس السكونية، فالحدث المادة يمتزج بالرؤية المتجاوزة برد الفعل الذي بدأ يتنامى عن طريق القهر، إلى شموخ الفيض في مباشرة التعامل عن طريق الاقتناع برد فعل أقوى لطرح البديل، عن طريق الاحتراق، واليأس : الاندفاع الموضوعي، وعن طريق ملء الساحة بالاحتجاج والدم، فوجوه المجموعة تختلف في مستوى امتلاك الوعي، غير أنها تبقى وجها مشتركا بنفس العزف، فالارتقاء الموضوعي نشيد مشترك، والعامل الوضعي السياسي، والاقتصادي، والأخلاقي الاجتماعي، مطلب مشترك ذو إفادة مشتركة. استطاعت وجوه المجموعة أن تستلهم الحل عن طريق الانتكاس، فالانتكاس ليس سوى مراجعة للذات وللبحث عن مخرج يفضي الى واجهة الفعل من أجل التغيير.

ولم تستطع بعض القصص الذاتية التي تسجل لتجربة حية ذاتية، لم تستطع هذه القصص أن تنفصل عن الوحدة العامة للمجموعة، فالانعكاس يشكل حالة لها نفس الظلال على الواقع الواحد. كما أن قيمة المجموعة لم تأت من كونها طرحت مضمونا ذا وحدة يضبط حالة راهنة ممضة ضد حقيقة الآخرين، بقدر ما تتشكل القيمة في إدراك الكاتب لمسؤولية الكلمة كتوظيف تعبيري، فكان التعامل مع الواقع بلغة استهدفت التغيير عن طريق الإيماءة، والاستعارة التاريخية، وتوظيف الأسطورة، لكي لا يبقى نقل الواقع مجرد صدفة، ولكي لا يستمر الواقع بنفس الطبيعة التي هو عليها، فالتنقلات الخفيفة عن طريق اللفظة المختصرة، تنضوي على إشارات موحية، وليست طلقات مباشرة بحري، على مستوى المعنى، فكانت هذه التنقلات داخل المرآة تتعامل لتغذية اللفظة وتنامي الإشارات عن طريق الرصد، ولعلني أؤكد على أن الكاتب مصطفى المسناوي تأثر نتيجة قراءة ملازمة بزكيها تامر، فجدل قصص المجموعة تؤكد هذا، وفي قصص أخرى استطاع المسناوي أن يفرض ذاته وبأسلوب مميز وعميق أيضا، ولعل ثقافته ووعيه الناضج قد أكسباه الكثير من الخصوصية في التمايز عن الكثير من كتاب القصة القصيرة عندنا بالمغرب، فالمسناوي يستنهض الواقع من خلال الوصف ولهذا الغرض كانت اللفظة الموظفة بوعي وسيلة لأجل هذا الاستنهاض، وبذلك ارتفع الحدث بواسطة المسؤولية التقنية في ذلك الطرح للحدث.

بشير جمكار